سكان مصر

ودراســة تاريخهم الجنسى

١ — تمهيد عام : دراسة سكان مصر

٢ — منهج البحث الانثروبولوجى وفكرة الجنس

٣ — العوامل الجغرافية وأثرها فى تعمير مصر وفى تكوين سكانها الجنسى

٤ — سكان مصر وتطورهم الجنسى على مر العصور

٥ — خلاصة عن سكان مصر ومميزاتهم الجنسية العامة

٦ — ملاحظات ختامية ومقترحات بشأن الدراسة الانثروبولوجية لسكان مصر

٧ — ثبت ببعض المراجع

تمهيد عام : دراسة سكان مصر :

قال هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد ان مصر هبة النيـل • وتناقل الكتاب عنه هذا القول جيلا بعد جيل ؛ وفهم عنه كثير من المعنيين بالدراسات المصرية أن مصر ببيئتها الطبيعية وحضارتها التاريخية انما جاءت كلها هبة من هبات هذا النهر العظيم • ومع ذلك فنحن اذا أنعمنا النظر فى تاريخ الحضارة وجدنا أن النيل لم يكن المقوم الوحيـد من مقومات الحياة والمدنية فى مصر • فهنالك عناصر أخرى فى البيئة المصرية الطبيعية غير ماء النهر ؛ منها المناخ وما كان له من أثر فى الأعصر القديمة

وفى الوقت الحاضر ؛ ومنها الصحارى المصرية الواقعة على جانبى الوادى تقيه كأنها الدروع ، وتمكن له من الاحتفاظ بشخصيته المميزة عن العالم الخارجى ؛ ثم منها الموقع الجغرافى لمصر وما كان له من أثر متغير من عصر لعصر بحسب اتصالات مصر بما جاورها من جهة ، ومقتضيات الاتصال بين الشرق والغرب عن طريق هذا المركز الهام فى قلب العالم القديم من جهة أخرى • وفوق ذلك فان الظروف الطبيعية لم تعمل بمفردها فى نشأة الحياة والمدنية فى مصر • فالطبيعة وحدها لا تنشىء مدنية ، والنيل ذاته اذا ترك وشأنه يجرى جريانا طبيعيا دون ضبط أو تقويم ، ودون أن ينظم طوفانه على السهل الفيضى ، فانه يكون مصدر خطر على الحياة المستقرة على جوانبه أكثر مما هو مصدر خير ، لأن تياره يجرف التربة من جانب الى آخر ، وينحر الجسور بغير نظام • والحق أن الحياة الزراعية التى قامت على أساسها المدنية المصرية انما جاءت نتيجة لتفاعل جهود الانسان وعوامل البيئة الطبيعية ، بحيث ان التربة المصرية ان كانت هبة من هبات النيل ، فان الحياة والحضارة المصرية بشكلهما التاريخى المعروف انما هما من ثمرات جهود الانسان فى بيئة طبيعية صالحة • ولئن صح هذا الفهم للمدنية المصرية فان تعريف هيرودوت يحتاج الى شىء من التفسير والتعديل ؛ ولابد لنا اذ نتحدث عن مقومات الحياة والمدنية فى مصر من أن نجمع بين البيئة والانسان ، أو بين ما اصطلح الجغرافيون والمعنيون بالدراسات الاجتماعية على أن يسموه « المكان » من جهة ، « والسكان » من جهة أخرى •

ومع ذلك فالشىء الملحوظ فى الدراسات المصرية أن معظم الاهتمام حتى الآن قد اتجه نحو البيئة أو «المكان» أكثر مما اتجه نحو «السكان» • فنحن نعرف عن ماء نهر النيل وتربة واديه الأدنى ، وكذلك عن صحارى مصر المجاورة وعن مناخها وموقعها الجغرافى ، أكثر مما نعرف عن سكان هذا الوادى وتاريخ تكوينهم الجنسى ومميزات سلالاتهم فى الوقت

الحاضر . بل ان مانعرف عن هذه النـــواحى الأخيرة قد لايكفى لأن نخرج منه بصورة صحيحة عن المصريين وتكوينهم الجنسى ، بالمعنى الذى يفهمه الانثروبولوجيون ، والذى يستند الى الدراسة العلمية الدقيقة والبيانات والمقاييس الانثروبومترية المفصلة ، والتى لا يجاوز ما لدينـــا منها عن المصريين الحاليين أكثر مما يمثل بضعة آلاف قليلة من الأفراد الذين تمت دراستهم فى أجزاء مختلفة من مصر ؛ وهو رقم صغير لا يمكن أن نخرج منه بصورة دقيقــة عن سكان مصر وتاريخهم الانثروبولوجى وتكوينهم الجنسى ؛ فضلا عن أن تلك الابحاث قــد اختلفت فى طرائقها ووسائلها من باحث الى آخر مما يصعب الجمع والمقارنة . ولذلك كله فان مثل بحثنا الحاضر لن يعدو أن يكون استعراضا لبعض ما تم من دراسات فى مختلف النواحى التى تلقى ضــوءا على تاريخ شعب مصر وتكوينه الجنسى ، وما اعترى ذلك من اختــلاط فى فترات متلاحقة من أعصر تاريخنـــا الطويل . وسنعمد — استكمالا لمــا هنـــاك من نقص فى الدراسات الانثروبولوجية — الى الجمع بين ما لدينا من بيانات وحقائق نعرفها من مختلف ميادين البحث ؛ سواء فى ذلك مايتصل بأصل السكان وحضارتهم ، وتاريخ استقرارهم فى الوادى ، واتصالهم بالعالم الخارجى ، واختلاطهم بالوافدين والعابرين ؛ أو بما نعرف عن سلالاتهم السابقة من دراسة الهياكل والبقايا العظمية للسكان الغابرين فى عصر ما قبل التاريخ وخلال الأعصر التاريخية ؛ أو ما هو معروف من تكوين السكان فى الوقت الحاضر فى ضوء بعض الدراسات الأنثروبومترية والجنسية الحديثة . ولذلك فان هذا البحث لن يكون انثروبولوجيا خالصا ؛ فنحن فى مصر لا نزال فى مرحلة لا يمكن أن تكتمل فيها مثل هذه الدراسة الجنسية الخالصة دون الاعتماد على الأدلة الأثرية وغــيرها ، بل دون الاعتماد على بعض الأدلة العامة التى تساعد على الاستنتاج والاستخلاص ، مما قد يستفاد مثلا من دراسة البيئة المصرية وطرق الهجرات القديمة ، والعوامل الجغرافية

المختلفة التى يصح أن تكون قد سهلت قدوم الوافدين من الخارج أو استقرارهم واختلاطهم بغيرهم فى مختلف جهات وادى النيل الأدنى •
وعلى ذلك كله فستكون الغاية من هذا البحث انما هى استقصاء أصل السكان فى مصر ونشأتهم الأولى ، والعوامل الأساسية التى أثرت فى تعمير وادى النيل الأدنى خلال الأعصر المتتابعة ، علنا نخرج فى نهاية البحث بما ينير السبيل أمامنا فى رسم خطة ومنهاج عمليين لدراسة سكان مصر ، والبحث عن أمهات المسائل التى قد تهم من يعرضون لدراسة هذا الموضوع •

منهج البحث الانثروبولوجى وفكرة الجنس :

ولكننا قبل أن نطرق موضوع سكان مصر وتكوينهم الجنسى والعوامل التى أثرت فى تعمير الوادى بسلالة أو سلالات خاصة ، يصح أن نشير اشارة عابرة الى منهج البحث الانثروبولوجى ، وما طرأ عليه من تطور فى العهد الأخير • ويفرق الانثروبولوجيون بين ناحيتين من نواحى البحث ، تتصل احداهما بالجانب الطبيعى من تكوين الانسان ، فتدرس الجسم ومقاييسه التى تكشف عن مميزات جسمية أو هيكلية خاصة ، وتعرف هذه الدراسة بالانثروبولوجيا الطبيعية ؛ كما تتصل الأخرى بالجانب البشرى العام والاجتماعى من حياة الانسان، وتعرف بالانثروبولوجيا الاجتماعية • وبديهى أن مايهمنا الآن انما هو البحث الطبيعى ؛ وهو يعتمد كما أشرنا على مقاييس وملاحظات جسمية أو هيكلية ؛ منها شكل الرأس والوجه ، لاسيما ما يعرف بمقياس الرأس Cephalic Index وهو نسبة العرض الى الطول على اعتبار أن الأخير يساوى مائة[1]؛ ومنها لون الجلد أو البشرة ، ويتوقف على مقدار المادة الملونة (Pigmentation)

---

(١) يحسب مقياس الرأس أو النسبة الرأسية هكذا : $\frac{\text{عرض الرأس} \times \text{مائة}}{\text{طول الرأس}}$ وهناك مقاييس أخرى للرأس منها ارتفاع الرأس مقدراً من ثقب الأذن إلى أعلا الجمجمة ، وغير ذلك من مقاييس الرأس والوجه •

الموجودة تحت الجلد ؛ ثم نوع الشعر ويتوقف على قطاع الشعرات ، وهو قد يكون مستديرا أو بيضيا أو مضغوطا فيؤثر ذلك فى حالة الشعر من حيث الاستقامة أو التموج أو التجعد أو الالتفاف على بعضه بعضا حتى يشبه حبات الفلفل ؛ ثم منها القامة وطولها أو قصرها ؛ ثم بعض مميزات جسمية أخرى تقاس أو تقدر أو تدون عنها الملاحظات • وعلى الرغم من اختلاف الباحثين فيما يختص بطرائق تسجيل المقاييس والملاحظات ثم دراستها واستخلاص النسب المختلفة منها ، فقد توصل الانثروبولوجيون الى تقسيم سكان العالم الى «أجناس» ميزوا بعضها عن بعض «بمجموعات» من الصفات التى أشرنا اليها ، والتى توجد كل مجموعة منها فى جنس من الأجناس ، ولو أن بعضها قد يكون أظهر من بعض • ومع ذلك فقد أسىء استعمال لفظ « جنس » خلال العقدين أو الثلاثة الأخيرة ، فأصبح لفظا دارجا ليس له من الدلالة الانثروبولوجية الدقيقة ماينبغى أن يكون للمصطلح العلمى ؛ بل كثيرا مايخلط بينه وبين بعض الألفاظ ذات الدلالة غير الدقيقة من الناحية الانثروبولوجية كلفظ « شعب » أو « قوم » أو « أمة » • ولذلك فان الانثروبولوجيين يميلون الآن الى اهمال استعمال لفظ « جنس » أو على الأقل اعادة تحديد مدلوله تحديدا ثابتا • وقد حدث فى المؤتمر الانثروبولوجى الدولى الذى انعقد بمدينة كوبنهاجن فى عام ١٩٣٨ أن تقدم أحد قادة الانثروبولوجيين وهو الأستاذ H. J. Fleure واقترح الاستغناء عن استعمال لفظ «جنس» من حيث أنه يدل على وحدة الأصل والسلالة ووحدة التكوين البيولوجى بين أفراد مجموعة معينة من البشر[١] • وهو يرى فوق ذلك أن الصفات

(١) "The term race implying fundamental genealogical unity and original biological uniformity should no longer be used", see H.J. Fleure, "Are attempts to classify mankind by sub-divisions scientific", Compte-Rendu de la Deuxième Session du Congrès International des Sciences anthropologiques et ethnologiques, Copenhague, 1938, pub. 1939, p. 134.

التى يعتمد عليها فى تمييز السلالات بعضها عن بعض تحتاج الى عناية خاصة وحذر بالغ فى الاعتماد عليها • فصفات الرأس مثلا متــوارثة الى حد بعيد ، ولذلك فقد يجمع الفرد بين المتناقضات اذا ورث عن أصلين أو أصول مختلفة من حيث صفات الرأس • أما لون البشرة فيتأثر فيما يبدو بعوامل البيئة اذا أعطيت الزمن الكافى ، ولذلك فان التاريخ البيولوجى للون الجلد فى شخص معين قد يختلف عن التاريخ البيولوجى لصفة أخرى كشكل الرأس الذى يعتمد على الوراثة أكثر ممــا يعتمد على البيئة • وأما نوع الشعر فان له توزيعه الجغرافى الذى قد يلقى ضوءا على بعض مؤثرات البيئة ومنها المناخ ، ولكنه مع ذلك لا يتمشى بالضرورة مع لون الجلد • وكذلك طول القــامة وقوام الجسم فانهما يتأثران بالبيئة والتغذية وبعوامل أخرى ربما كان منها سن البلوغ • وهكذا يبدو أن الصفات المختلفة للجسم والهيكل تتأثر بعوامل مختلفة معقدة ؛ ولذلك فاعتماد الانثروبولوجيين عليها لايخــلو من عيب ، أو هو على الأقــل يستلزم حذرا بعيدا لايجوز معه أن يقسم البشر الى « أجناس » لكل منها تكوينه النقى المحدد ، وصفاته الواضحة التى تنطبق على جميــع أفراده ؛ فذلك غير ممكن بحكم طبيعة التوارث ومؤثرات البيئة • والأفضل من ذلك أن يقسم سكان المناطق بحسب مجموعات الصفات الجسمية التى « تسود » أو « تغلب » بينهم ، والتى هى فى الواقع نتيجة لاختلاط وتزاوج طويل تم فى ظروف معينة ، بعضها يرجع الى الوراثة وأحكامها ، وبعضها الآخر يرجع الى البيئة ومؤثراتها • واذا صح هذا الاعتبار فان نظرية « نقاء الجنس » لا يبقى لها موقع فى الابحاث الانثروبولوجية ؛ بل ان لفظ « الجنس » ذاته لايجوز استعماله اذا أردنا أن نتجنب مواطن الخلط والخطل • وقد يكون لفظ « سلالة » فى اللغة العربية أصلح من لفظ «جنس » ؛ لأن الأخير يفهم منه (بحكم العادة فى الفهم) شىء من نقاء الأصــل واستقلال التكوين والانفراد عن الشبيه ، على حين أن لفظ

سلالة يعنى التسلسل والتوارث ، ولا يستلزم استقلال الأصل أو وحدته ، كما انه لم يسأ استعماله فى غير مدلوله الأصلى حتى الآن .

لذلك فاننا سنفضل استعمال لفظ السلالات البشرية على لفظ الأجناس . ومن الممكن أن نفرق بين السلالات الكبرى أو الأساسية والسلالات الصغرى أو الفرعية . وسيكون مفهوما اننا لا نقر مبدأ نقاء الأصل أو الجنس أو السلالة . واذا كان هذا صحيحا بالنسبة للدراسات الانثروبولوجية العامة ، فان انطباقه على الحالة فى بلد كمصر أكثر وضوحا ، فهو بلد قد اختلطت فيه السلالات بحكم موقعه الجغرافى كما سنرى بعد قليل .

العوامل الجغرافية وأثرها فى تعمير مصر وفى تكوين سكانها الجنسى:

ولكى نتفهم عمران مصر بالسكان وتوزيع الصفات الجنسية بين سكانها تفهما صحيحا، ينبغى أن نجتلى أولا أثر العوامل الجغرافية من هذه الناحية . فاستقرار السكان وهجراتهم واختلاط سلالاتهم بعضها ببعض ، كل أولئك متأثر الى حد كبير بظروف البيئة الجغرافية العامة من جهة ، واختلافاتها المحلية من جهة أخرى . وأول ما ينبغى أن نلحظه فى جغرافية مصر تلك الصحارى الشاسعة التى تحف بالوادى عن جانبيه . ومن المعروف الآن أن صحارى مصر لم تكن دائما من الجفاف بما هى عليه اليوم ؛ وانما كان هناك عصر مطير فى الزمن الجيولوجى الرابع ؛ وكان لهذا العصر دوران مطيران يعرفان بالدور الأول والدور الثانى ، فصلت بينهما وتلت ثانيهما حالة جفاف ؛ ثم جاء دور « ممطر » أى أكثر مطرا من الوقت الحاضر ولكنه أجف من الدور « المطير » . وعاصر هذا الدور الممطر بداءة العصر الحجرى الحديث أو سبقها بقليل ثم استمر ، مع ميل الى الجفاف التدريجى ، خلال عصر ما قبل الأسرات (أو عصر بداءة المعدن) والعصر التاريخى الفرعونى . ولكن سكان الصحارى حتى فى أوائل

الدور الممطر ، أى فى العصر الحجرى الحديث وعصر بداءة المعدن ، كانوا فيما يبدو أقل كثيرا من سكان الوادى ؛ بخلاف الحال فى العصر المطير ، عندما كانت الصحارى مسرحا هاما لحياة الانسان فى العصر الحجرى القديم • على كل حال فان الشيء المهم من الناحية الجغرافية الطبيعية والبشرية أن صحارى مصر اتخذت صورتها الجافة بالتدريج خلال العهد الفرعونى ، حتى بلغت جفافها الحالى حوالى القرن الخامس أو السادس الميلادى • فلم تكن الصحارى فى العهد التاريخى مصدرا هاما من مصادر تعمير مصر ، اللهم الا فى الجهات التى يسقط بها قدر من الأمطار يكفى لأن يعيش بها من السكان الرعاة من يستطيعون اذا ماتكاثروا أو لمسوا ضعفا من حكومات الأرض المستقرة بالوادى أن يغيروا على الأرض الزراعية ويستوطنوا بها أو على حافتها من عصر لعصر ؛ كما حدث على حافة الدلتا الغربية المجاورة لمنطقة مريوط الرعوية ، أو على حافتها الشرقية المجاورة لشبه جزيرة سينا ومنطقتها الجبلية ؛ أو كما حدث فى بعض جهات النوبة ومصر العليا التى تقرب نسبيا من جبال البحر الأحمر العالية حيث تسقط بعض الأمطار التى تعول الرعاة وانعامهم • أما فيما عدا ذلك فان صحارى مصر كانت على الجملة جافة ، بل شديدة الجفاف ، وتكاد تخلو من السكان ؛ فضلا عن أنها بجفافها الشديد أصبحت كالدروع تقى مصر شر الغزوات • بل هى كانت تمثل ما يسميه الجغرافيون « منطقة صعوبة » ؛ بحيث إنها أزهدت سكان مصر فى الهجرة الى خارجها ، وبذلك فان الوافدين الى مصر قلما رغبوا فى النزوح عنها الا فى ظروف وأحوال خاصة كما حدث فى طرد بنى اسرائيل ، أو كما حدث لبعض القبائل العربية الرحل ممن لم تستهوهم الزراعة والحياة الزراعية فمروا بمصر الى شمال أفريقية أو مروا بحافة الأرض الزراعية المصرية جنوبا الى سهول السودان الشمالى ومراعيه • والى جانب ذلك فقد كان للصحارى بالطبع أثرها المعروف ، والذى تمثل فى أن عبورها كان عسيرا

بالنسبة للمهاجرين من الرعاة ، فلم يصل مصر منهم الا عناصر قليلة ، أغلبها من المخاطرين الشديدى المراس ؛ اذ كانت الصحراء مصفاة تعمل لبقاء الأصلح من المهاجرين الى مصر ، بل كانت سببا فى أن مصر لم يصلها فى أى وقت من الأوقات هجرات كبيرة العدد ، تغطى على حياتها ، وتطمس معالم عمرانها السابق ، وتغير صفات سكانها الجنسية تغييرا أساسيا ، كما حدث فى بعض البلاد الأخرى والمجاورة لمناطق بها كثرة من الرعاة . ولم نسمع فى تاريخ مصر الطويل بغزوة كبيرة العدد غيرت مظهر البلاد وتكوينها الجنسى ، كما حدث فى غزوة الآريين لشمال الهند مثلا ، أو غزوات المغول لسهل الصين الشمالى أو لجنوب سهل الروسيا ، أوحتى غزوات الساميين لمنطقة آشور القديمة . ولعل هذا أن يكون هو السر فى أن سكان مصر استطاعوا على الدوام أن يحافظوا على أسس تكوينهم الجنسى العام ، فاستوعبوا الغزاة وهضموا أعدادهم القليلة أو المعقولة ، والتى سمحت بتسربها قسوة الصحراء .

وعامل جغرافى آخر غير الصحارى هو سواحل مصر . وينبغى هنا أن نميز بين ساحل البحر الأحمر وساحل البحر الأبيض المتوسط . فالبحر الأحمر يمتاز بكثرة الشعاب المرجانية ؛ ويزيد من خطورة الملاحة فى طرفه الشمالى كثرة الأعاصير الشتوية وما يصحبها من رياح عاصفة متغيرة الاتجاه ؛ ولذلك لم يصل مصر عن طريقه الا بعض عناصر تجارية قليلة تركت بعض آثارها على شكل نقوش ورسوم على صخور الصحراء الشرقية ؛ يرجع بعضها الى العهد الفرعونى (أو قبله ؟) وبعضها الآخر الى العهد الاغريقى الرومانى ؛ ويبدو أن بعض أصحابها جاءوا من جنوب بلاد العرب (وربما من شرقها) ولكنهم على كل حال كانوا قلة ضئيلة من التجار والملاحين ولم يمثلوا غزوة بالمعنى الصحيح [١] . وحتى العرب

(١) عن هذه النقوش والرسوم القديمة انظر : H. Winkler "Voelker und Voelkerbewegungen im vorgeschichtlichen Oberaegypten im Lichte neuer Fels bilderfunde" Stuttgart 1937.

الذين دخلوا مصر والسودان فيما بعد لم ينتقلوا الى وادى النيل عبر البحر الأحمر ، وانما كان وصولهم كما سنرى عن طريق شبه جزيرة سينا • وأما ساحل البحر المتوسط فقد امتاز بصلاحيته للملاحة واعتدال الرياح فى شماله ، ولذلك كان مدخلا من مداخل مصر ولا سيما فى شمالها وشمالها الغربى حيث المرافىء أصلح وأقل تعرضا لأن تردمها الرواسب التى يدفعها تيار بحرى خفيف يجرى من الغرب الى الشرق فيردم بها المرافىء فى شمال شرق مصر • ولقد دخلت مصر بالفعل بعض العناصر البحرية منذ عصر لا يمكن تحديده ، ولكنه يسبق التاريخ المكتوب ؛ واستمر وصول هذه العناصر البحرية لاسيما فى أواخر العهد الفرعونى وخلال العهد الاغريقى الرومانى ، عندما أصبحت الاسكندرية قاعدة التوغل البحرى الى داخل مصر • ولا يزال أثر العناصر البحرية التى تتابعت موجاتها ظاهرا فى موانى مصر الشمالية ، ومنها الاسكندرية ورشيد ودمياط •

فاذا ما تركنا الصحارى والسواحل وانتقلنا الى وادى النيل ذاته ، فاننا نلحظ الفرق الواضح بين الدلتا والوادى فى الصعيد • فالدلتا أرض فسيحة تحف بها صحارى أقل جفافا فى الشمال الغربى وعند أطراف شبه جزيرة سينا ؛ كما يقع البحر فى شمالها مباشرة • ولذلك فانها كانت أكثر تعرضا لغزوات الرعاة الليبيين والساميين وغزوات البحريين من جزر اليونان وسواحل البحر المتوسط ؛ وكانت بذلك وقاء للصعيد الذى لم يبلغه الا عدد قليل نسبيا من هذه الغزوات • وعلى العكس من ذلك تعرض الصعيد لغزوات الحاميين القدماء من شرق أفريقية ، ولبعض العناصر الافريقية ممن انتشروا نحو الشمال فى بعض الأوقات منذ عصر ما قبل التاريخ ولم يبلغوا الدلتا الا فى القليل • على أن وجه الفرق الكبير بين الدلتا والصعيد أن الأولى أفسح مساحة وأكثر سكانا ، ولذلك فانها كانت أقدر من الصعيد على استيعاب الغزاة وهضمهم والتأثير فى تكوينهم الجنسى بما يقربهم بالتدريج من السكان الأصليين • فاذا ما تذكرنا أن

أغلب غـزوات مصر أتت من الشمال والشمال الشرقى أدركنا كيف أن اتساع مساحة الدلتا وكثرة سكانها كانا من العوامل التى ساعدت على أن يحتفظ وادى النيل الأدنى بطابعه الجنسى العام خلال العصور ، والتى عملت على وقاية مصر الوسطى والجنوبية من أن تطغى عليهما موجات الهجرة أو الغزوات الخارجية .

ومع ذلك ففى كل من الدلتا والصـعيد مناطق يجب التمييز بينهـا بحسب الموقع والظروف الجغرافية العامة . فشرق الدلتا مثلا كان معرضا لغزوات الرعاة من الساميين وغيرهم ممن دخلوا أرض مصر ؛ وقد كان وادى طميلات بالذات وكذلك الحافة الشرقية للأراضى الزراعية طريق الهجرة ، فتتابعت عليهما العناصر ؛ بخـلاف قلب الدلتا فقد كان محميا نسبيا . أما غربها فقـد كان أكثر تعرضا لغزوات الليبيين القدماء ؛ ولا يزال أثر سكان مريوط ظاهرا فى غـرب مديرية البحـيرة وشمالها الغربى . كذلك السواحل الشمالية وموانيها لها صفاتها الخاصة ، حيث تبدو المؤثرات البحرية . وأما فى الصعيد فهنـاك أولا الفرق بين مصر الوسطى ومصر العليا وبلاد النوبة ؛ وقد كانت لكل منها صفتها الخاصة . ويقال ان الوسطى ربما كانت أقل جهات مصر اختـلاطا فى سـكانها لحمايتها بالدلتا فى الشمال من جهة ، وبالنوبة ومصر العليا فى الجنوب من جهة أخرى ، ولأن الصحارى على جانبيها جافـة قليلة الوديان ، ثم لبعدها عن البحار حتى البحر الأحمر، لأن النيل عندها ينحنى نحو الغرب قبل أن يعود فيقترب من البحر الأحمر عند ثنية قنا . ومع ذلك فمسألة نقاء السكان الجنسى فى مصر الوسطى مسألة نظرية أكثر مما هى حقيقة ثابتة ؛ وقد تظهر الدراسة الجنسية فى المستقبل أن مصر الوسطى لاتقل فى اختلاط سكانها عن غيرها من جهات مصر . اذ المعروف الآن أنهـا كانت تمثل « منطقة توسع » بالنسبة لسكان الدلتا ، ولغزاتها الذين كثيرا ما كانوا يستقرون عند رأس الدلتـا وعاصـمة البلاد أول الأمر ، ثم

يتوسعون جنوبا بعد ذلك • كما أنها كانت منطقة توسع أيضا بالنسبة لأمراء مصر العليا ومنطقة قنا ذات المساحة المحدودة ، بخلاف مصر الوسطى حيث يبدأ الوادى فى الاتساع ، فيغرى ذلك سكان الصعيد الأعلى وأمراءه فينتقلون الى مصر الوسطى ، ويتخذون منها قاعدة قبل الوثوب الى الدلتا فى الشمال • وهكذا كانت مصر الوسطى مطمعا لأهل الشمال وأهل الجنوب على السواء ؛ ولا يبعد أن يكون ذلك قد أثر فى تكوينها الجنسى تأثيرا لا تكشف عنه الا الدراسة المفصلة فى المستقبل • (١)

وأما مصر العليا فقد كانت بعيدة عن مصدر الغزوات فى الشمال كما ذكرنا ؛ ولكنها كانت معرضة للغزاة والمتوسعين من الجنوب مع النيل ، أو من الجنوب الشرقى مع وديان الصحراء الجنوبية الشرقية • كما أن بعض جهاتها ، مثل منطقة قوص فى ثنية قنا ، كانت واقعة على طريق للتجارة مع البحر الأحمر ، بل على طريق للحج فى العصور الوسطى من بلاد المغرب الى جوف الصعيد وقوص ثم الى البحر الأحمر فالبلاد المقدسة • وقد أثر ذلك فى سكانها تأثيرا لا يزال ينتظر الدراسة والاستقصاء •

وأما بلاد النوبة بين الشلالين الأول والثانى فتمثل « منطقة صعوبة » اذ يضيق الوادى فيها ، ولا يكاد يوجد به غير القليل من الأرض الزراعية ؛ فضلا عن أن الجنادل والصخور تكتنف مجرى النهر من الشمال ومن الجنوب ، ولذلك فقد كان سلوكه من الصعوبة بمكان . وإلى جانب هذا فان قلة الأراضى الزراعية بالنسبة للصعيد فى الشمال ولمنطقة دنقلا فى الجنوب لم تطمع الغزاة فى أقليم النوبة الشمالية كمنطقة للاستقرار ؛ وبذلك

---

(١) عن مصر الوسطى وبقية الأقاليم الجغرافية الصغيرة أوالأوطان الصغرى فى وادى النيل الأدنى راجع : سليمان حزيّن « البيئة والموقع الجغرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام » مجلة الجمعية الجغرافية الملكية المصرية مجلد ٢٠ القاهرة ١٩٤٣ ص ١١ — ١٩

استطاع سكانه الأصليون أن يبقوا به ، وأن يحتفظوا بثقافتهم ولغتهم القديمة حتى الآن ، وذلك رغم الموجة العربية التى سارت على جوانب النيل فى مصر وانتشرت حتى شملت سهول السودان دون أن تستقر فى بلاد النوبة الشمالية الا فى مناطق محدودة • ومع ذلك فقد زاد من تعقيد الحالة فى بلاد النوبة الشمالية هذه أنها كانت تعتبر فى بعض الأوقات منطقة دفاع هامة توضع فيها حاميات الجند والمرتزقة فى جزيرة الفنتين حينا ، وفى بعض الجهات والنقط الواقعة الى جنوبها حينا آخر ؛ واستمر ذلك فى عهود متقطعة منذ أيام الدولة الصاوية والعهد الاغريقى حتى عهد محمد على • وكان لهذا بالطبع أثره فى الناحية الجنسية •

من كل هذا يتبين مبلغ التعقيد على طول وادى النيل فى مصر ، وما ينتظر أن يكون من تأثير صفة الأقاليم الجغرافية على عمرانها وتكوين سكانها الجنسى • وليس هذا التعقيد بالطبع مقصورا على الوادى ؛ وانما هو يتعداه الى مناطق أخرى مجاورة له أو متصلة به ؛ ومنها حوض الفيوم ،وهو شبه واحة تلتقى فيها مؤثرات الحياة النيلية المستقرة ومؤثرات الصحراء الليبية الشمالية الرعوية • ومنها واحات مصر ،وتقع فى مجموعتين شمالية وجنوبية • والأولى كانت متأثرة بالهجرات وطرق التجارة القديمة وطرق الحج بين شمال أفريقية الغربى وشمالها الشرقى . أما الثانية فقد تأثرت ولا شك بطرق التجارة مع افريقية السودانية ؛ كما بلغتها بعض الغزوات فى أعصر وأوقات غير معروفة بالضبط ، ولكنها على كل حال أنفذت بعض العناصر الافريقية الى واحات مصر الجنوبية • فضلا عن أن بعض تلك الواحات كالخارجة كان على طريق تجارة الرق ودرب الاربعين ، فتأثر سكانها بذلك من الناحية الجنسية •

وكذلك يمتد التعقيد والاختلاف الاقليمى والمحلى الى صحراء مصر الشرقية • ولابد أن نميز فيها بين جنوب تلك الصحراء وشمالها •

فالجنوب تصيبه بعض الأمطار التى تغذى النبات ، ويتصل سكانه بأهل السودان الشرقى وبلاد اريتريا اتصالا يرجع الى عهد غزوات الحاميين قبل مطلع التاريخ ، ويمتد فى صورة متجددة الى وقتنا الحاضر . أما شمال الصحراء الشرقية فجاف قليل الوديان قليل السكان ، كثير من أهله فى الوقت الحاضر قد نزحوا الى جهاته الساحلية حيث مناجم الفوسفات ومنابع الزيت ، وكانت هجراتهم من مصر العليا ومنطقة ثنية قنا بالذات ، ومن جهات أخرى من القطر . فاذا ماانتقلنا من الصحراء الشرقية الى شبه جزيرة سينا وجدنا الاختلاف ظاهرا بين جنوبها وشمالها . ففى الجنوب توجد الجبال العالية التى يصيبها المطر ، وتتكون الصخور من مواد نارية ومتبلورة قديمة تحتفظ بالرطوبة ، وتشجع على نمو الأعشاب . ولذلك كان جنوب شبه الجزيرة صالحا لتوسع بعض الرعاة من منطقة مدين فى شمال الحجاز . أما شمال شبه الجزيرة فسهلى تغطى جانبا منه كثبان الرمال ، ولكن توجد به بعض الآبار بين الكثبان . وهو لايصلح كثيرا للرعاة ، ولكنه طريق تجارة وغزو قديم ، سلكه التجار وناقلوا السلع بين مصر والشرق الأدنى القديم ، وسلكته الغزوات المتتابعة التى دخلت مصر فى مختلف أدوار تاريخها ، ابتداء من غزوات الساميين أيام عهدى الاقطاع الأول والثانى ، وغزوة الهكسوس ، ثم غزوات البابليين والآشوريين ، ثم الفرس ، فجيوش الاسكندر ، فالجيوش العربية المتتابعة ، فغزوة الأتراك العثمانيين . كما خرجت على طوله حملات المصريين أيام الفراعنة (الدولة الحديثة) ، وفى بعض أيام العرب والمماليك ثم فى عهد محمد على . ولذلك فان هذا الطريق الشمالى من شبه جزيرة سينا له أهميته الخاصة فى دراسة التكوين الجنسى لسكان هذا الركن من مصر ، بل هو مهم فى دراسة تكوين السكان فى شمال شرق مصر برمته .

كل هذا عن عوامل البيئة الجغرافية المحلية فى مختلف أجزاء أرض مصر . ولكن هناك عاملا جغرافيا آخر غير البيئة المحلية هو الموقع

الجغرافى . وقد كان له أثر بالغ فى سكان مصر وتاريخهم الجنسى . وينبغى فى دراسة الموقع الجغرافى أن نميز بين موقع مصر بالنسبة للبلدان المجاورة من جهة ، وموقعها بالنسبة للعالم البعيد من جهة أخرى . ولاشك أن موقعها وصلاتها بالنسبة للعالم المجاور كان أهم من حيث المؤثرات الجنسية ، ومن حيث الهجرات من غرب آسيا حينا ، ومن شرق أفريقية حينا ، ومن بعض جهات شمال أفريقية أو من جزر البحر المتوسط حينا آخر . ولكن موقع مصر بالنسبة للعالم البعيد لم يخل من أثر . وقد بقيت قيمة الموقع الجغرافى كامنة أو مقتصرة على صلات مصر القريبة والمباشرة خلال العصر الفرعونى ؛ حتى اذا ما جاء الاسكندر الأكبر ظهرت « العالمية » ، واحتك الشرق بالغرب احتكاكا عنيفا وفى نطاق واسع ؛ وكان من نتيجة ذلك أن برزت قيمة موقع مصر عند مقرن قارات ثلاث ، وعند مفرق البحار المعتدلة الشمالية والبحار الدفيئة الجنوبية ، وفى منطقة متوسطة من حيث الظروف المناخية فهى تلائم سكنى العناصر الشمالية والعناصر الجنوبية فى آن واحد . وقد أطمع ذلك كله بعض الغزاة فى مصر ، التى اجتذبت عناصر أتى بعضها من جهات بعيدة . ولم يقتصر الأمر على العصر القديم أيام الاسكندر ومن أتى بعده ، وانما امتد الى العصر الوسيط والعصر الحديث . ولم تكن هذه بالطبع هجرات كبيرة العدد ، ولكنها كانت غزوات تركت أثرها الجنسى واضحا ملحوظا ، لاسيما فى مناطق الحاميات . وكان سبب ظهورها أنها غزوات من عناصر بعيدة نسبيا من حيث تكوينها الجنسى عن سكان مصر الأصليين ؛ بخلاف الحال فى الهجرات أو الغزوات التى أتتت من بلاد قريبة ومجاورة ، والتى كانت شديدة الشبه بسكان مصر الأصليين .

سكان مصر وتطورهم الجنسى على مر العصور

والآن وقد استعرضنا العوامل الجغرافية الأساسية التى أثرت فى

عمران مصر بالسكان وفى التميز بين مختلف العناصر التى تقطن مايمكن أن نسميه بالأوطان الصغيرة فى وادى النيل الأدنى والأراضى المجاورة له ، فاننا نستطيع أن ننتقل الى الناحية التاريخية ، فنتتبع الموجات المختلفة التى تعاقبت على مصر ، وأثرت فى تكوين سكانها الجنسى • ولابد لنا هنا من أن نبدأ بأول دور بدأت الحيـاة فيه تتركز فى مصر ، وبدأت الحضـارة تتميز فى هذا الركن من أفريقية عنها فى البـلدان المجاورة والبعيدة ، مما يجوز أن يدل على ظهور شىء من الصفات المحلية للسكان ؛ أو مما يدل فى القليل على توافر شىء من العزلة النسبية لسكان مصر ، ويسمح لسلالاتهم أن تأخذ طريقها الى أن تصبح ذات طابع محلى من ناحية الصفات المتوارثة والمتأثرة بالبيئة المحلية وظروفها الخاصة • وهذا الدور الأول لتركز الحضارة والحياة فى مصر هو مايعرف بالعصر الحجرى القديم الاعلى[١] • وقد كان المعتقد الى وقت قريب أن هذا العصر يمثل أول دور ظهر فيه الانسان العاقل (Homo Sapiens) • ولكن تبين أخيرا أن من الجائز أن يكون ظهور هذا النوع من الانسان قد سبق ذلك فى جهات مختلفة من الأرض • على كل حال فان بقايا الانسان الأول التى عثر عليها فى مصر حتى الآن قليلة جدا ؛ وربما كان مرجع هذا الى قلة البحث عنها • وقد عثر ساندفورد على بعض عظام من العصر الحجرى القديم الأعلى فى تكوينات بحوض كوم امبو[٢] • ومن الطريف أنهاقريبة

---

(١) عن هذا الدور وبداءة تركز الحضارة وتخصصها فى مصر (وغيرها) على أساس اقليمى انظر :

S.A. Huzayyin "Some new light on the Beginnings of Egyptian Civilization", *Bull. de la Soc. Roy. de Géog. d'Egypte*, t. XX, Le Caire 1939, pp. 207-212.

وكذلك انظر :

S.A. Huzayyin "The Place of Egypt in Prehistory "*Mém. de l'Institut d'Egypte* t. 43, Le Caire 1941, pp. 251-263, and 333-334.

(٢) انظر :

K.S. Sandford "Paleolithic Man and the Nil Valley in Upper and Mid. Egypt" Prehist. Survey of Egypt and W. Asia. vol. III, *Oriental Institute Pub.* vol. XVIII, Chicago 1934, p. 86.
S.A. Huzayyin "The Place of Egypt etc." *loc. cit.* p. 272.

فى تكوينها من عظام السكان فى عصر ماقبل الاسرات ، أى فى عصر بداءة المعدن • ولئن دل هذا على شيء فعلى أن نوع الانسان العاقل ربما كان ظهوره بمصر حتى قبل العصر الحجرى القديم الأعلى ، اذ أن تطوره بمصر فى ذلك العصر كان قد بلغ شأوا بعيدا بدليل التشابه بين بقاياه اذ ذاك وبين بقايا سلالات عصر ماقبل الاسرات الذين خلفوه فى مصر •

فاذا ماانتقلنا الى العصر الحجرى الحديث ، وهو أول عصر استقر فيه السكان واعتمدوا على الزراعة والرعى بدلا من الصيد والجمع والالتقاط ، فاننا نجد بقايا الانسان العظمية فى مقابر عثر عليها فى كل من مصر السفلى ومصر العليا ، ويرجع تاريخها الى حوالى ٥٠٠٠ ق•م• (مع احتمال خطأ فى التقدير يعادل قرنين بالزيادة أو بالنقص) • ففى الشمال عثر يونكر (H. Junker) على مقابر فى محلة قديمة تعرف باسم مرمدة بنى سلامة وتقع عند الحافة الغربية للدلتـــا قرب الخطاطبة • وقد دلت دراســة الهياكل [١] على أن سكان غرب الدلتا فى ذلك العهد كانوا من سلالة البحر الابيض المتوسط ؛ فهم طوال الرأس ، وليس بهم أى أثر افريقى أو شبه زنجى • ولكن حجم الجمجمة كان على الجملة أكبر منه لدى العناصر التى جاءت بعدهم ، أى فيما يعرف بعصر ماقبل الاسرات (وهو يعادل عصر بداءة المعدن) •

ويقابل أهل مرمدة بنى سلامة فى مصر العليا سكان منطقة ديرتاسا فى شرق النيل فى مديرية أسيوط [٢]. وتدل دراسة بقاياهم على أنهم امتازوا برؤوس كبيرة أيضا ولكنها أكثر عرضا من رءوس أهل الشمال ؛ أو على الأقل هى مختلطة فأغلبها مستطيل ولكن بعضها عريض • وربما كان هذا أول دليل على اختلاط السكان فى مصر • وقد امتاز التاسيون

(١) انظر :

D.E. Derry "Preliminary note on Human Remains from a Neolithic Settlement at Merinde-Benisalame" in *Anzeiger der philos.-hist. Klasse der Ak. der Wissenschaften in Wien*, Jahrgang 1930, No. V-XIII, pp. 53-60.

(٢) انظر :

G. Brunton, "The Beginnings of Egyptian Civilization "*Antiquity*, vol. III, No. 12 Dec. 1929, pp. 466-467.

القدماء أيضا باستعراض الوجه وقوة الفك وبروز عظام الحاجب • ثم خلفهم فى مصر العليا قوم يعرفون بالبداريين ، نسبة الى البدارى فى جنوب دير تاسا بقليل • ويرجع تاريخهم الى أول عصر المعادن أى حوالى منتصف الألف الخامسة قبل الميلاد • وتدل دراسة هياكلهم العظمية (١) على أنهم كانوا يختلفون عن التاسيين فى أن عظامهم على الجملة أصغر وهياكلهم أرق ، حتى انه ليصعب تماما تمييز جماجم الذكور عن جماجم الأناث • وتدل الدلائل كلها على أنهم لابد وأن يكونوا قد نزلوا مصر العليا من الجنوب أو الجنوب الشرقى ؛ فرءوسهم طويلة أو متوسطة ، ولكن الفم متقدم وبارز الى الأمام ، وكذلك الأنف شبه أفطس، وان كان الشعر متموجا وليس مفلفلا ، كما أن لون الجلد (وقد بقى بعضه ملتصقا بالعظام) كان قمحيا • ولذلك فان البداريين القدماء لابد وأن يكونوا قد تأثروا بالحاميين الذين وصلوا شرق افريقية وبلاد الصومال فى وقت لايمكن تحديده بعد ، وربما كان فيهم أثر شبه زنجى خفيف (؟) وان لم يكن زنجيا بالمعنى المعروف • على كل حال فالمهم أنهم يمثلون أقدم العناصر التى دخلت وادى النيل الأدنى من شرق أعاليه الأثيوبية ؛ ويبدو أنهم يشبهون بعض سكان شرق أثيوبيا وشرق السودان الحاليين ، كما أنه لايبعد أن تكون لهم صلة قديمة ببعض العناصر الدرافيدية التى تسكن الآن جنوب الهند والتى يرجح أنها كانت أكثر انتشارا نحو الغرب فى العصر القديم •

وبعد عصر البدارى يجىء ما يعرف بعصر ما قبل الأسرات (Predynastic) وهو يمتد لألف سنة أو أكثر قبل توحيد مصر وقيام الأسرة الأولى حوالى ٣٢٠٠ ق•م • ويختلف فيه سكان مصر العليا أو الجنوبية

---

(١) أنظر :
B.N. Stoessiger "A Study of the Badarian Crania recently excavated by the Brit. School of Archaeology in Egypt", *Biometrika*, vol. XIX, 1927, pp. 110-150; also article by G. M. Morant in same volume pp. 293-309.

عن سكان مصر الشمالية بعض الاختلاف [١] • ففى مصر العليا كان السكان طوال القامة كبار حجم الرأس والوجه بالنسبة لسكان البدارى الذين سبقوهم ، كما أن فمهم لم يكن له ذلك البروز ولا أنفهم له ذلك الاستعراض اللذين لاحظناهما عند البداريين • أما سكان مصر السفلى أو بعبارة أصح مصر الشمالية (بما فى ذلك مصر الوسطى) فقد امتازوا برأس أكثر عرضا (أو هو فى الحقيقة أميل الى التوسط بدلا من أن يكون طويلا[٢]) وبوجه أكثر طولا وأنف أكثر اعتدالا من أهل الجنوب • ومع ذلك كله فيمكن أن يقال ان سكان مصر فى عصر ما قبل الأسرات كانوا جميعا من سلالة البحر المتوسط • وغاية ماهنالك أن عنصر الجنوب وعنصر الشمال كانا يمثلان فرعين مختلفين من تلك السلالة ، لكل منهما صفاته المميزة الى جانب الصفات المشتركة بين الاثنين • على أن الشىء الطريف أن ظاهرة الاختلاف بين الاثنين أخذت تختفى بالتدريج خلال العهد الفرعونى بسبب طغيان صفات أهل الشمال ، نظرا لكثرة عددهم وقدرتهم على استيعاب من قد يغزوهم من أهل الجنوب ؛ بخلاف هؤلاء الأخيرين فقد كانوا دواما قليلى العدد نسبيا متأثرين بمن ينتشر بينهم من عناصر الشمال ؛ ونظرا كذلك — فيما يبدو — لأن بعض الصفات الجنسية لأهل الشمال ، ومنها ميل الرأس الى التوسط بدلا من الطول ، كانت من النوع الذى يسميه الانثروبولوجيون « صفة غالبة » (dominant) بمعنى أنها اذا اختلطت مع صفة مقابلة لها فى الوراثة بسبب تزاوج شخصين أحدهما عريض الرأس نسبيا والآخر طويله ، فان الشخص

---

(١) المقصود هنا بمصر الجنوبية مصر العليا بالمعنى الضيق وتمثلها منطقة على الخصوص نقادة فى غرب ثنية قنا أما مصر الشمالية فتشمل مصر الوسطى وتمثلها على الخصوص منطقة جرزة فى وادى النيل أمام الفيوم • أنظر عن دراسة البقايا العظيمة والجماجم من عصر ماقبل الأسرات •

G.M. Morant "A Study of Egyptian Craniology from Prehistoric to Roman Times", *Biometrika*, vol. XVII, 1925, pp. 1-52.

(٢) كان متوسط مقياس الرأس فى مصر الشمالية فى ذلك العهد ٧٥ يقابله فى مصر العليا ٧٢

الأول يكون بحكم قواعد الوراثة بين الصفتين أقدر على أن يورث صفته للجيل الجديد • ومهما يكن من أمر فاننا اذا صرفنا النظر عن الغزوات الخارجية التى أصابت مصر فى العهد الفرعونى ، فان التاريخ الجنسى لمصر خلال ثلاثة آلاف عام ، هى مجمل العهد الفرعونى ، قد تمثل فى طغيان صفات أهل مصر الشمالية على القطر كله طغيانا تدريجيا بطيئا ، تمثل فى زيادة عرض الرأس نسبيا حتى صار على الجملة أميل الى التوسط بعد أن كان أميل الى الطول ، كما تمثل فى زيادة طول الوجه واعتدال الأنف ، وان لم يمنع ذلك من ظهور أعراض تغاير ذلك كله فى حالات بعض الغزوات التى أصابت أطراف مصر الشمالية أو الجنوبية بين حين وحين • (١)

والحق أن مصر قد دخلتها فى العهد الفرعونى عدة غزوات ، وان كانت قد استطاعت فى كل الأحوال أن تهضم الغزاة بما لا يدع مجالا الى تغيير مجرى تطور سكانها وتكوينهم الجنسى (٢) • على أن بعض تلك الغزوات يستحق الاشارة • والراجح الآن أن المصريين كانوا فى تكوينهم الأصلى مشتقين من عنصر ذى لغة وثقافة حامية ، يبدو أنه أتى فى الأغلب من شرق افريقية أى من منطقة اريتريا القديمة وما جاورها ، ثم تأثروا فيما بعد بعنصر مشابه بعض الشبه من الناحية الجنسية ، ولكنه مختلف فى ثقافته ، هو العنصر المعروف بالسامى ، والذى أتى من الشمال الشرقى وتوغل فى مصر • ومع ذلك فهذا العنصر السامى يصعب جدا تحديد كيانه الجنسى ، فلفظ « سامى » ولفظ « حامى » لا يجوز فى الواقع اعطاؤهما أية دلالة جنسية دقيقة ، وغاية ماهنالك أنهما يمثلان

---

(١) انظر خلاصة طيبة لهذا التطور البطىء فى :
C.S. Coon: "The Races of Europe" New York 1939, pp. 94-96; also:
G.M. Morant, "A Study of Egyptian Cranilogy etc.", *Biometrika, op. cit.*, 1925,

(٢) عن تكوين قدماء المصريين انظر :
G. Elliot Smith: "The Ancient Egyptians and the Origin of civilization", New Edition 1923.

فرعين من سلالة البحر المتوسط ، ربما كان أحدهما وهو الحامى متأثرا بعنصر آخر قديم غير معروف بالضبط ؛ كما أن الساميين أنفسهم قد تأثروا ولاشك بعناصر أخرى غير سلالة البحر المتوسط وأغلبهم من سكان الهضبة الايرانية والأرمينية [1] • والشيء الذى يهمنا أن الغزوات التى دخلت من الشمال قد اشتملت على عناصر مختلفة ؛ منها عنصر أرمينى مختلط يبدو أنه وصل فى عهد بناة الأهرام؛ ومنها عناصر شقراء نسبيا أتت من الشمال أو الشمال الغربى وأثرت فى السكان أو الطبقة الحاكمة ؛ ومنها الليبيون الذين غزوا غرب الدلتا قبل العهد الفرعونى وخلاله ، لا سيما فى الدولة الحديثة ؛ ومنها الساميون المختلطون الذين أتوا فى عهد الاقطاع الأول ثم فى عهد الاقطاع الثانى ؛ ثم الهكسوس الذين انشأوا دولة مؤقتة وسيطروا على جانب كبير من البلاد ؛ ثم اليهود الذين دخلوا مصر ثم خرجوا منها ؛ ثم الاغريق المختلطون الذين نزحوا للعمل فى التجارة أو الجيش لاسيما فى العهد الصاوى ؛ ثم المرتزقة الذين استقروا فى جهات ومناطق مختلفة من مصر وكانوا خليطا فى تكوينهم الجنسى ؛ ثم منها النوبيون وسكان الجنوب الذين ساروا مع النيل واستقروا فى بعض أجزاء واديه الى الشمال • كل هؤلاء أثروا ولاشك فى التكوين الجنسى العام لسكان وادى النيل فى مصر • ولكن كل ما فعلوه أنهم أضافوا الى ثروة مصر وسكانها فى المميزات الجنسية المتوارثة ؛ ولم يغيروا الطابع العام للسكان ؛ فبقى المصريون على مر الزمن جزءا من سلالة البحر الأبيض المتوسط ، أضيفت اليه دماء خارجية فاستوعبها بفضل عدده الكبير وحياته المستقرة وتوافر العوامل الجغرافية التى أشرنا اليها من قبل ، والتى حفظت على مصر شخصيتها فى السلالة والتكوين الجنسى

---

(١) يطلق أحيانا لفظ الجنس أو السلالة القوقازية ليشمل الحاميين والساميين وغيرهم من العناصر غير الزنجية والمنتشرة فى جنوب غرب آسيا وشمال أفريقية وشرقها. ولكنه أيضا لفظ غير دقيق فى دلالته الجنسية ويميل الرأى إلى إهمال استعماله .

العـام ... تلك الشخصية التى لا تزال تحتفظ بكيانهـا وطابعها حتى يومنا الحاضر .

وفى العهد الاغريقى الرومانى تجدد الاختلاط واتخذ صورة خاصة فى بعض المناطق . ولابد لنا من أن نشير هنا الى أن الاغريق القدماء لم يكونوا ليمثلوا فرعا نقيا من سـلالة البحر المتوسط ؛ بل هم قد اختلطت فيهم بعض الدماء النوردية (الشمالية) وغيرها من دماء البلقان القديم . ولذلك فان دخولهم واستقرارهم فى بعض أجزاء مصر أثر ولاشك فى تكوين سكان تلك المنـاطق ، وأهمها منطقة الاسكندرية وبعض جهات البحيرة الغربية وأطراف الفيوم ، حيث استعمر الاغريق فى العهد البطلمى بعض الأراضى المستجدة الى جانب عملهم فى التجارة . والملاحظ فى تلك المناطق حتى الآن ، بل وفى بعض جهات الواحات التى انتشروا اليها أن هناك شقرة نسبية ملحوظة فى أفراد قلائل من السكان هم ورثة بعض المميزات التى كانت دخيلة على بلاد الاغريق ذاتها (أو بلاد الرومان فيما بعد) ثم انتقلت الى مصر . ولكن وجود هؤلاء الأفراد لا يغير مع ذلك من الصـفة العامة لسكان مصر ، بل ولا لسكان تلك المناطق بالذات .

وبعد ذلك جاء العهد العربى ، وامتاز بتوسع جديد من بلاد العرب . ويقال ان هجرات العرب وتوسعهم قد تأثرت بحدوث تغيرات مناخية وحلول الجفاف أو اشـتداده بتلك المنطقة ابتداء من القـرن الثالث الميلادى ، ثم بلوغه أقصى شدته بعد القرن السادس[1] .وكان هذا الجفاف

---

(١) عن جفاف شمال بلاد العرب أنظر :

E. Huntington "Palestine and its Transformation" Cambridge 1911.

وعن جفاف شمال بلاد العرب وكذلك جنوبها أنظر :

S.A. Huzayyin "Arabia and the Far East" *Pub. Soc. Roy. de Géog. d'Egypte*, Cairo, 1942, pp. 2-7 and 31-38.

وكذلك أنظر :

S.A. Huzayyin "Changements historiques du Climat et du Paysage de l'Arabie du Sud", *Bull. Faculty of Arts*, Cairo, vol. III, 1935 pp. 19-23.

عاما فشمل جنوب بلاد العرب كما شمل شمالها، ولذلك كثرت الاضطرابات فى شبه الجزيرة، وكثر تنقل القبائل وهجراتها وأيامها فى الحرب والقتال والشحناء • وتوسعت القبائل من القحطانيين (الجنوبيين) والعدنانيين (الشماليين) فدخلت مصر [١] • وهنا أيضا لابد أن نشير الى الفرق فى التكوين الجنسى بين عرب الجنوب وعرب الشمال • فالجنوبيون يمتازون باستعراض الرأس (ماعدا شمال اليمن) وغلظ الملامح بالنسبة للشماليين ، الذين يمثلون سلالة البحر المتوسط تمثيلا لا بأس به • ومع ذلك فان القبائل الجنوبية التى دخلت مصر عن طريق الحجاز وشبه جزيرة سينا كانت قليلة بالنسبة للقبائل الشمالية ؛ ولعل هذا هو السر فى أن غزوات العرب المتلاحقة لم تؤثر كثيرا فى تغيير تكوين المصريين العام ، لأن العناصر الجديدة كانت مشابهة فى صفاتها العامة لسكان مصر • ولقد نزح بالفعل كثير من القبائل العربية التى استقرت فى بعض أجزاء مصر كشرق الدلتا لاسيما بين القرنين السابع والرابع عشر الميلاديين ، أى فى الفترة التى ساد فيها حكم العناصر العربية ؛ اذ أنه بالاضافة الى الجيش الفاتح أيام عمرو بن العاص ، فان كل حاكم عربى تلاه كان يحضر معه جيشه وحرسه الخاص من الأعراب وقد يبلغون آلافا عديدة بل عشرين ألفا فى بعض الحالات ، فضلا عن أن قبيلة الحاكم الجديد كانت تجد فى توليته ما يشجع على الهجرة والافادة من نفوذه فى أرض الكنانة [٢] • ومع ذلك فينبغى أن نلحظ أن بعض القبائل كانت

---

(١) عن توسع العرب إلى وادى النيل عامة والسودان خاصة أنظر :

H.A. MacMichael "A History of the Arabs in the Sudan",: 2 volumes, Cambridge 1922.

وعن أدوار التوسع العربى إلى مصر أنظر :

A.M. Ammar "The People of Sharqiya" *Pub. Soc. Roy. de Géog. d'Egypte*, Cairo 1944, pp. 29 *et seq.*

(٢) أنظر :

H.A. Mac Michael "A History of the Arabs in the Sudan", *loc. cit.* vol I pp. 159-160

لا ترغب فى الاشتغال بالزراعة ، فتبقى فترة على جوانب أرض مصر ثم تجذبها البادية من جديد ؛ وربما كان هذا من العوامل التى حدت ببعض القبائل لأن تعبر مصر عبورا فى طريقها الى شمال افريقية ، أو لأن تسير مع الوادى جنوبا الى مراعى السودان • وبعد انقضاء العهد العربى بالمعنى الصحيح حل المماليك وغيرهم من العناصر الشركسية والتركية محل العرب فى حكم مصر وسيادتها ، فتوقف التيار العربى تقريبا ، وجاءت فترة استطاعت مصر فيها أن تهضم العرب النازحين • ولم يستطع الاتراك بعد ذلك أن ينقلوا الى مصر عناصر كثيرة منهم غير الجيوش والحكام وهم قلائل بالنسبة لهجرات العرب السابقين ، وان كانت صفاتهم الجنسية تختلف اختلافا واضحا عن المصريين من حيث مقياس الرأس (المستدير) وشكل الأنف ولون البشرة وبنية الجسم على الجملة • لذلك فانه على الرغم من التباين فى التكوين الجنسى بين الأتراك وأشباههم ، وبين المصريين ، فان الأثر التركى بقى محصورا فى مناطق وطبقات خاصة من سكان مصر ، ولم يستطع أن يغير المعالم العامة لتكوين الشعب ، لاسيما فى البيئة الريفية •

وهكذا جاء العصر الحديث ومصر لم تغير طابعها القديم ، بل حافظت فى الجملة على أسس تكوينها الجنسى ، الذى وضعت قواعده الأولى فى عهد يرجع فى القليل الى عصر ماقبل الاسرات أو بداءة المعدن ، ثم استمرت تلك القواعد ثابتة أو متطورة تطورا بطيئا فى حدود مرسومة ؛ واستندت فى ذلك الى مقومات الوراثة العاملة ومؤثرات البيئة القائمة (١) ؛ فلم يعترها من التغيير الا ذلك التحول العام بطغيان بعض

---

(١) ربما كان من أظهر مؤثرات البيئة فى مصر استمرار لون البشرة لاسيما فى مصر العليا • وقد يكون ذلك راجعاً إلى الأحوال المناخية الخاصة التى جعلت المصريين يمتازون بشىء من السمرة بالنسبة إلى غيرهم من عناصر البحر المتوسط الذين يشبهونهم فى المظاهر الأخرى للتكوين الجنسى •

« الصفات الغالبة » على غيرها ، ومن ذلك ميل الرأس الى التوسط بدلا من ميله الى الطول ؛ وهى ظاهرة تعتبر محلية فى أساسها أكثر منها خارجية ؛ فمصر قد استطاعت بفضل عزلتها النسبية خلف حواجز الصحراء أن تهضم غزاتها وأن تحتفظ بشخصيتها الجنسية على مر العصور •

خلاصة عن سكان مصر ومميزاتهم الجنسية العامة :

من هذا العرض العام لسكان مصر وتطور تكوينهم الجنسى ، والعوامل التى كيفت ذلك التطور وأثرت فيه ، نستطيع أن نخرج بصورة عامة عن تكوين المصريين • وأول مايسترعى النظر أننا شعب اشتركت فى تكوينه عدة عناصر ، فاجتمعت له صفات جنسية منوعة • ولكن الشىء المهم أن العناصر المختلفة التى دخلت مصر فى أوائل تعميرها بالسكان كان أغلبها متقاربا من بعضه البعض فى تكوينه الجنسى ، ويمت بصلة قريبة أو بعيدة الى سلالة البحر المتوسط أو هو متأثر بها تأثرا ظاهرا • ولقد ألف من نسميهم الحاميين الأولين أساس المجتمع المصرى فى نهاية عصر ماقبل التاريخ وبداءة العصر التاريخى ؛ وهم نزحوا من شرق أفريقية الى وادى النيل بما فى ذلك مصر • ثم أضيفت اليهم عناصر ممن نسميهم الساميين ، أتوا على شكل غزوات متتالية من غرب آسيا ، وأثروا فى ثقافة مصر من جهة ، كما أضافوا اليها عنصرا أو عناصر من سلالة البحر المتوسط التى اختلطت فى الشرق الادنى ببعض عناصر أخرى من هضبة ايران والاناضول المجاورة من جهة أخرى • وفى بعض الاحيان كان عنصر الهضبة قويا وقريبا فى تكوينه من السلالة الارمينية ذات الصفات الظاهرة فى عرض الرأس وارتفاعه وتقوس الانف وارتفاع قنطرته • كما أن هذا العنصر الارمينى غذى فى عهود لاحقة بعناصر أخرى مستديرة الرأس لاسيما الاتراك •

على أن هذه الاضافات كلها مالبثت أن استوعبها عنصر البحر المتوسط الاصيل فى مصر ،كما استوعب غيرها من المؤثرات التى أتت من شمال غرب مصر وشمالها ، وامتازت ببعض الفئات الشقراء نسبيا ؛ أو أتت من جنوب مصر ، وحملت اليها بعض العناصر السوداء . فالشيء الواضح اذن أن الغزوات التى وصلت مصر لم تستطع أن تطغى على سكانها الاصليين فتبدل مميزاتهم الجنسية تبديلا تاما أو واضحا ؛ وانما هى أضافت صفات قليلة ظهرت فى بعض المناطق بصورة جلية ، ولكنها مالبثت أن تلاشت أو لطفت فى مجموع السكان . ولذلك فان مصر قد جمعت بين أمرين قد يبدوان متناقضين أول الامر ، وهما اختلاط الدماء والمميزات الجنسية ، ثم تقارب تلك الصفات وتشابهها الى حد يصعب معه لمس الفوارق الجنسية بين مختلف السكان بصفة عامة ، اللهم الا فى حالة من لم يمض عليه فى مصر من الوقت مايكفى لصبغه بالصبغة العامة أو استيعابه فى بقية السكان . ولذلك فان من الممكن أن نقول عن المصريين فى جملتهم [1] انهم يمتازون بالرأس الذى يعتبر بين الطويل والمتوسط ، وان كان أميل الى التوسط ؛ وبالوجه البيضى أو الطويل ؛ وبلون البشرة الاسمر أو القمحى ، والذى قد يختلف فى بعض المناطق عنه فى الاخرى ، كماهى الحال فى الفرق بين سكان مديرية قنا واحدى مديريات الوجه البحرى مثلا ؛ ثم بلون العيون العسلى الداكن ، وبالشعر المتموج أو المجعد ؛ والأنف الذى يميل الى الاستعراض على

---

(١) رغم أن المصريين الحاليين لم يدرسوا بعد الدراسة الكافية ، فمن الممكن بصفة عامة الحصول على معلومات عامة مفيدة فى بعض المراجع مثل :

E. Chantre "Recherches anthropologiques dans l'Afrique Orientale—Egypte", Lyon 1904; J.I. Craig, "Anthropometry of Modern Egyptians", *Biometrika*, vol. VIII, 1911, pp. 66-78.

C.S. Myers, "Contributions to Egyptian Anthropology" *Journal of the (Royal) Anthropological Institute*, vol. 33, London 1933, pp. 82-89, vol. 35, 1905, pp. 80-91, vol. 36, 1906 pp. 237-271 and vol. 38, 1908 pp. 99-147. Also G. Elliot Smith „The People of Egypt" *The Cairo Scientific Journal*, vol. III, No. 30, 1909, pp. 51-63.

الجملة ولكنه يختلف اختلافا ظاهرا بين الافراد ؛ كما يمتازون بالقامة المعتدلة (فوق المتوسط قليلا) وان كانت هناك بعض الاختلافات المحلية . وكل هذه الصفات وغيرها تختلط فى السكان اختلاطا يصعب معه تطبيق نظرية نقاء الجنس من جهة ، كما يصعب تتبع أصول كل صفة من الصفات وردها الى مصدرها الأول من جهة أخرى . فالاختلاط فى مصر أصله قديم ؛ وقد لاحظناه حتى بين بعض سكان العصر الحجرى الحديث . ولكن من الواجب أن نستدرك أن هذا « الاختلاط فى الصفات الجنسية » ليس معناه ولا ينبغى أن يفهم منه « اختلاط فى التكوين الشعبى » . فالمصريون الحاليون ليسوا مؤلفين من « شعوب مختلطة » ؛ وانما هم شعب واحد اختلطت فيه الصفات الجنسية ، وتعددت مصادر الوراثة . وفرق كبير بين الحالتين . بل اننا نستطيع أن نذهب الى أبعد من ذلك فنقول ان اختلاط الصفات الجنسية فى شعب مصر كان على الدوام سرا هائلا من أسرار قوة هذا الشعب وحيويته ومقدرته على أن يحتفظ بشخصيته ، وأن يغالب الزمن ويبقى رغم أحداث التاريخ التى أتت على كثير من الامم القديمة والوسيطة . ولقد وجد شعب مصر من تنوع صفاته وملكاته ما أعطاه مقدرة خاصة على أن يلائم بين نفسه وبين اختلاف الايام والظروف والاحداث . ولو أنه لاشك أيضا أن قوة البيئة المصرية ذاتها فى الوادى وما يحيط به من صحارى جافة قد ساعدت من جهتها كذلك على أن يحتفظ ذلك الشعب بكيانه وطابعه الجنسى الخاص على مر العصور[1] .

(١) ليس يعيب المصريين فى شىء أن تكون قد اختلطت فيهم دماء الغزاة . فهم قد أفادوا من ذلك تنوع الصفات والملكات بين الأفراد وفئات المجتمع، وهم قد استطاعوا رغم الاختلاط أن يبقوا على الدوام أمة واحدة . ومن المعروف أن أغلب أمم التاريخ الكبرى فى العهود القديمة كاليونان والعهود الوسيطة كالعرب والعهد الحديث كبريطانيا إنما استطاعت أن تحقق ماقامت به من دور خاص فى التاريخ بفضل تنوع تكوينها الجنسى . وأمامنا الآن تجربة هائلة فى الولايات المتحدة حيث تأتلف أمة واحدة من سلالات غاية فى التشعب . وكذلك الحال فى الاتحاد السوفيتى .

ولكن ظاهرة الاختلاط الجنسى فى الصفات الجسمية تبرز بصورة أكثر وضوحا اذا ما نحن قارنا بين مختلف أجزاء مصر ، وراعينا الظروف الجغرافية والبشرية والتاريخية العامة لكل منها • فالدلتا غير الصعيد ، وشرق الدلتا غير غربها ، والجهات الساحلية غير المناطق الداخلية ، ومنطقة كالفيوم غير الوادى ؛ وذلك كله من حيث التعرض لمختلف الغزوات التى قد تأتى بالبحر أو بالبر ، ومن الشرق أو الغرب أو من الجنوب • فالاختلافات المحلية أمر مسلم به ، لأنها مترتبة على ظروف البيئة الطبيعية المحلية من جهة ، وعلى عوامل الاتصال بالعالم الخارجى من جهة أخرى •

على أننا اذ نلاحظ الاختلاف المحلى فى التكوين الجنسى ينبغى أن نصحح اعتقادا شائعا ، وهو أن فئة خاصة من المصريين قد تكون أقرب الى تمثيل « السلالة المصرية » من غيرها • ففى كثير من الكتب ، وحتى العلمية منها ، يشار مثلا الى الاقباط على أنهم أصدق تمثيلا لسكان مصر الاصليين من المسلمين الذين تأثروا بالعنصر العربى • ومثل هذا القول يحتاج كما ذكرنا الى أن يصحح من نواح عدة • فأولا ليست هناك « سلالة مصرية » بالمعنى العلمى الدقيق ، وانما سكان مصر يمتازون فى جملتهم بتوافر مجموعة من الصفات الجسمية أو الجنسية تشيع فى جملتهم وتعطيهم طابعهم الجنسى العام • ومثل هذا القول يتفق تماما والاتجاه العلمى الحديث فى دراسة السلالات ودراسة التكوين الجنسى للأمم والشعوب • ثم ان الطابع الجنسى العام للمصريين قد وجد واتخذ صورته المميزة قبل أن يكون هناك أقباط أو مسلمون • بل هو كما رأينا يرجع فى القليل الى أواخر عصر ماقبل التاريخ • ولم تفعل الاضافات اللاحقة والجديدة أكثر من أنها عدلت بعض الصفات القديمة أو زادتها تنوعا ، ولكنها على كل حال لم تقلبها رأسا على عقب • وليس فى تاريخ مصر الطويل مايدل من قريب أو بعيد على حلول سلالة محل

أخرى ؛ ولا على أن شعبا نازحا طرد شعبا أصيلا . بل ان مصر من هذه الناحية تختلف اختلافا ظاهرا عن بلد كالعراق مثلا ، أحاطت به السهوب والمراعى من الجانبين ، فاكتسحته الغزوات اكتساحا من الشرق أو من الغرب أو من الشمال بين حين وحين ، وغيرت معالم تكوين أهله الجنسى تغييرا واضحا فى بعض الجهات ، كما طمست كثيرا من معالم حضارته من وقت لآخر ، فتداولت عليه ، أو على أجزاء منه على الأصح ، « أمم » من السومريين والعقاديين (الآكاديين) والبابليين والآشوريين والفرس والعرب ؛ ولكل منهم طابعه الخاص ليس فى المدنية وحدها وانما كذلك فى التكوين الجنسى الى حد قريب أو بعيد . أما مصر فقد احتفظت بطابعها الذى لم يتحول الا فى نطاق محدود . وحتى عندما جاء الاسلام أثر العرب بعض التأثير فى مصر والمصريين لاسيما فى المناطق القريبة من بلادهم فى شرق الدلتا ؛ ولكن العرب ولا سيما الشماليين منهم ، كانوا كما ذكرنا قريبين جدا فى تكوينهم الجنسى من سكان مصر ، لأنهم جميعا متأثرون بسلالة البحر المتوسط أو منحدرون فى الأصل منها . كما ان الغالبية الساحقة من المسلمين فى مصر لم يكونوا غزاة وانما هم فى الأصل أقباط تحولوا الى الاسلام . ومن الطريف فى هذا المقام أن نذكر أن هذا التحول لم يحدث فى مصر فجأة ، وانما جاء بالتدريج ؛ واحتفظت الكنيسة القبطية بقوتها وأتباعها الكثيرين الى أن لحقها الركود ونخرتها الخلافات الفردية والطائفية ، فضعفت فى القرن الثالث عشر ضعفا ظاهرا كان من نتيجته تحول أفواج كثيرة من الاقباط الى الاسلام [١] . وهكذا يمكن أن يقال ان كثيرا من العناصر المسلمة بين المصريين كانوا أقباطا الى عهد قريب جدا ، ولم يؤثر دخولهم فى الاسلام فى تكوينهم الجنسى[٢] .

(١) انظر :
T. W. Arnold, "The Preaching of Islam" 1st ed. London 1896, pp. 87-93

(٢) ومع ذلك فهناك فئات قليلة من المسلمين لاسيما فى المدن انحدروا من جماعات وافدة =

المصريون اذن أمة تنتمى فى تكوينها الجنسى الأصلى الى سلالة البحر المتوسط • تلك التى تمتاز بالبشرة القمحية أو البيضاء والشعر المموج أو المجعد والرأس الطويل أو المتوسط والوجه البيضى والأنف المعتدل والعيون العسلية أو السوداء والقامة المتوسطة • ولكن هذه الصفات لاتتمثل فى المصريين نقية لأنهم جمعوا اليها مؤثرات أخرى اكتسبوها بفعل البيئة ثم على الخصوص بالاختلاط مع غيرهم من الوافدين والعابرين • ولكن الاختلاط بين سكان مصر يمتاز بأنه قديم وبأنه بلغ حد الامتزاج والتداخل التام بين الصفات الجنسية الأصلية والوافدة • ولقد أعطى ذلك أهل مصر قوة ، وساعدهم على « هضم » من اختلط بهم وعلى « تمثيل » العناصر الدخيلة تمثيلا لم يلبث معه أن انمحى الأثر الوافد ، أو تلاشى فى الصفة الاصلية بعد أن عدلها بعض التعديل • وكلما مضى الزمن على المصريين ازداد تداخل الصفات الجنسية بينهم ، وتضاعفت — فيما يبدو — مقدرتهم على استيعاب العناصر الغريبة وتمثيلها •

ملاحظات ختامية ومقترحات بشأن الدراسة الانثروبولوجية لسكان مصر

ذلك مجمل ما يمكن أن يقال عن المصريين وتكوينهم الجنسى فى الوقت الحاضر • وهو كما ذكرنا فى أول هذا البحث لايمكن أن يعطينا غير صورة عامة مجملة عن هذا التكوين • فمصر لم تدرس من الناحية الانثروبولوجية دراسة علمية مستوفاة • وهى حتى بعد أن تتم دراستها

= من غير سلالة البحر المتوسط كالأتراك . وهؤلاء لم يتح الوقت بعد لاندماجهم فى السكان الأصليين اندماجاً كافيا « من الناحية الجنسية » . وربما كان هذا مرد الرأى القائل بأن المسلمين أقل تمثيلا للمصريين الأصليين من الأقباط . ولكن مثل هذه الحالات لاتتعدى مناطق محدودة ولا تشمل الريف المصرى فى جملته .

لايمكن أن يفهم تكوين أهلها فهما صادقا الا اذا قارنا نتائج الدراسة فى مصر بما تنتهى اليه دراسة غيرها من الاقطار المجاورة • ولذلك فلابد لنا أن ننتظر طويلا قبل أن نستطيع أن نصور تكوين المصريين واتصالهم فى السلالة بغيرهم من أهل الأقطار المجاورة تصويرا صادقا دقيقا • ومع ذلك فقد يكون من الخير فى هذه المرحلة أن نضع أمام الباحثين بضع ملاحظات ومقترحات تفيد فى رسم الخطة لهذه الدراسة العلمية ، التى نرجو ألا يطول الوقت قبل أن تجد طريقها الى النور •

١ — وأول ماينبغى أن يلتفت اليه فى دراسة سكان مصر دراسة جنسية أننا لانستطيع فى هذه الدراسة أن نفصل بين مختلف نواحى البحث الانثروبولوجى الطبيعى الذى يدرس الانسان وصفاته ؛ والجغرافى الذى يدرس البيئة ومظاهرها ومؤثراتها ؛ والأثرى الذى يبحث أصل الحضارات واتصالاتها مما قد يلقى ضوءا على أصل السلالات واختلاطها ؛ ثم التاريخى العام وهو يكمل الجانب الاثرى فى الاستدلال على اتصالات مصر والمصريين فى العهود الماضية • وليس يغنى فى مصر أن نكتفى بدراسة السكان الحاليين وتكوينهم من حيث صفات الجسم المختلفة ، فذلك يخرج بنا بصورة قد تكون صحيحة فى حد ذاتها ، ولكنها مع ذلك لن تكون مفهومة لنا فهما واضحا • وانما تفسر الظاهرات الجنسية وتنسب تعقيداتها اما الى أثر البيئة المحلية أو الموقع فى الاتصال بالعالم الخارجى ومزج عناصر السكان بعضهم ببعض أو عرقلة ذلك الاتصال والمزج فى بعض الحالات ؛ واما الى مؤثرات وعناصر قديمة جدا بل ترجع الى عصر ماقبل التاريخ ، وهو الذى لايكشف عنه الا دراسة الآثار الأولى للانسان وتحديد هجراته واتصالاته فى ذلك العهد ، وكذلك دراسة العظام الباقية مع الآلات الحجرية التى خلفها الانسان • ومثل هذا العصر وان بدا سحيقا فان دراسته فى مصر واجبة بصفة خاصة ، بل لازمة لفهم حياتنا فى الوقت الحاضر • وقد رأينا أن سكان

مصر أخذوا طابعهم الأساسى من الناحية الجنسية قبل أن يبزغ فجر التاريخ ، وان العناصر التى دخلت مصر حتى فى ذلك الوقت البعيد لم تخرج منها ، وانما بقيت لتورث صفاتها للأجيال اللاحقة • وكذلك الحال فى دراسة العصر التاريخى وتتبع الهجرات أو الغزوات التاريخية التىأتت مصر ؛ فذلك كله مما يلزم فى تفهم تكويننا الجنسى العام فى الوقت الحاضر • ولعل هذا كله أن يكون سببا فى صعوبة الدراسة وتعقيدها وتشعبها ان نحن أردنا أن نعطى صورة صحيحة مفهومة عن تكوين سكان مصر الجنسى •

٢ — ان الطريقة المثلى أو المدخل الصحيح فى رأينا لدراسة سكان مصر وتكوينهم الجنسى انما تكون بتقسيم وادى النيل الأدنى والجهات الملحقة به الى مناطق أو « أوطان صغيرة » يدرس تكوين سكان كل منها دراسة اقليمية تفصيلية ؛ ويكون تقسيم تلك الأوطان الصغيرة وتحديدها على أساس جغرافى طبيعى بقدر الامكان ، بدلا من الاكتفاء بالتقسيم الادارى المعروف ، بل بصرف النظر عن هذا التقسيم الادارى فى بعض الأحيان ؛ ثم تأتلف من مجموع الدراسات الاقليمية صورة عامة عن سكان مصر• ذلك أن البحث الانثروبولوجى فى مصر سيهدف بطبيعته الى ابراز نواحى الاختلاط والتزاوج فى الصفات التى يمتاز بها أهل وادى النيل الأدنى ؛ ومن الخير أن نبدأ بدراسة المناطق كل واحدة على حدة ، فنعين مميزات سكانها ؛ ثم نجرى المقارنة والربط بين مختلف المناطق ، فنخرج بصورة اجمالية واضحة ، تمتاز بأن عمومياتها لاتطمس معالم التنوع الاقليمى فى السكان ، ولا تطغى على أثر موقع كل منطقة وظروفها الجغرافية والتاريخية • أما اذا بدأنا بدراسة القطر كله بأخذ قياسات لأفراد من مختلف جهاته وعمل المتوسطات فيها ، فان النتيجة تكون أن تأتلف لدينا صورة عامة لاتفيد كثيرا فى استجلاء التفاصيل الاقليمية ؛ وقد نخرج «بمتوسطات» نظرية للتكوين الجنسى «للمصرى»

لاتنطبق على الحالة فى أى اقليم من الأقاليم المحلية فى مصر • وبذلك تكون الصورة التى نرسمها للمصرى صورة « حسابية » أكثر منها « واقعيــة » • ومن المسلم به أننا نعتمد على مثل هذه المتوسطات فى دراســة سكان « الاقاليم » أو « الاوطان الصغرى » ، ولكن احتمال الخطأ واضاعة المعالم التفصيلية والمحلية يكون فىهذه الحالة أقل مما يحدث عند ما نعتمد على المتوسطات العامة التى تشمل سكان القطر جميعا •

٣ — الى جانب هذه الدراســة الجنسية الاقليمية يصح أن تكون هناك دراسة جنسية تاريخية لمصر ؛ بمعنى أن تاريخنا الجنسى يمكن أن يقسم الى « مراحل » تدرس كل منها على حدة ، ويعتمد فيها على مجموعة من الأدلة الباليونتولوجية الخاصة بعظام الانسان وهياكله فى العهود القديمة من جهة ، والأدلة الأثرية والتاريخية بل والجغرافية من جهة أخرى • ومع أنه ليس من المنتظر أن تبرز فروق كبيرة فى تكويننا الجنسى بين عصر وعصر ، فان هذه الدراسة التاريخية لن تخلو من طرافة وفائدة ، لأنها ستعطينا صورة منعكسة من تطور السلالة وامتزاج الصفات فى مصر بحكم العوامل المحلية من جهة ، والاتصال بالعالم الخارجى وتلقى الموجات الجنسية من جهة أخرى •

٤ — فاذا ما عرضنا لطريقة الدراسة الانثروبولوجية ذاتها وجدنا أن خير طريق نستطيع أن نسلكه هو أن ندرس الصفات الجسمية كلا على حدة ، ثم نوزع تلك الصفات توزيعا جغرافيا • فنجمع مثلا البيــانات عن مقياس الرأس أو شكل الشعر أو طول القــامة ؛ ثم نوزع تلك البيانات على خرائط ؛ ثم نقارن بين الخرائط المختلفة حتى نخرج بنتيجة عن أى الصفات يتمشى فى توزيعه الجغرافى مع غيره ، وأيها يمتاز بتوزيعه الجغرافى الذى لا يتمشى مع توزيع بقية الصفات• وربما ننتهى الى مااتجه الانثروبولوجيون نحوه فى السنوات الأخيرة من دراسة « مجموعات من الصفات الجنسية » (أو مايسمونه Groups of Racial Characteristics) التى

يتمشى بعضها مع بعض ، وتعطى السكان صفتهم العامة والغالبة • وهكذا نتحاشى الحديث عن الجنس والسلالة بمعناهما الضيق القديم (راجع أول هذا البحث) • ولاشك أن مثل هذه الدراسة فى مصر ستكون مثالا طيبا للدراسة الانثروبولوجية ومنهاجها الجديد ، لأن مصر كما رأينا بلد تمتزج فيه الصفات وتتزاوج الى حد بعيد لن تزيده الدراسة الا جلاء ووضوحا •

٥ — وقد تكون مصر فوق ذلك مجالا طيبا لأن تمارس فيه مختلف الطرائق فى الدراسة الانثروبولوجية ، ولأن تقارن نتائجها بعضها ببعض• ويمكن أن نشير هنا الى ناحية جديدة نسبيا من البحث الانثروبولوجى ، وهى تلك التى تعتمد على تحليل الدم وتقسيمه الى مجموعاته الأربع المعروفة [١] والتى يرى فيها بعض الباحثين أساسا صالحا لأن تقسم السلالات البشرية الى مجموعات كبرى على الأقل، ولأن نكشف عن تيارات الهجرة القديمة ، لأن كل تيار يترك أثره فى دماء أبنائه على طول طريق الهجرة مهما طال عليها الزمن • وقد جرت أبحاث مختلفة عن سكان مصر ومجموعاتهم الدموية [٢] ؛ ولكن النتائج لاتزال غير واضحة الى الآن • وهذه الدراسة لا تزال فى بداءتها ؛ ولا بد فى النهاية لتحقيق الفائدة المرجوة منها أن تقارن نتائج خرائط التوزيع القائمة على أساس مجموعات الدم بنتائج خرائط التوزيع التى تبنى أساس

---

(١) وهي التى يرمز إليها بمجموعات ا ، ب ، ا — ب ، و A, B, A-B, and O)

(٢) انظر :
A.T. Shousha and M. Ali "The Blood Groups of the Egyptians and their M. and N. Factors", *Journ. of the Egyptian Pub. Health Ass.*, 9th year 1934 (Oct.);
D. Matta, "Some Observations on the Distribution of the Blood Groups in certain parts of Egypt "*Journ. Egyptian Medical Association*, vol. XXIII, No 1 Jan. 1940; W.C. and L.G. Boyd, "New Data on Blood Groups and other Inherited Factors in Europe and Egypt", "*Amer. Journ. Phys. Anthrop.*, vol. 23, pp. 49-70

الصفات الجسمية المعروفة • وعندذاك تصبح دراسة مجموعات الدم مكملة لدراسة الصفات والمميزات الجسمية (١) •

٦ — لمصر موقعها الجغرافى الخاص بين قارات العالم القديم • وهى رغم احاطة الصحراء بها ، ورغم جفاف تلك الصحراء ، فانها كانت على اتصال دائم بما جاورها من البلدان ، وغاية ما هنـــاك أن الصحراء « نظمت » اتصال مصر بالخارج ؛ فحددت عدد الغزاة وعدد الغزوات ، كما سمحت للعناصر المخاطرة دون غيرها أن تصل الى أرض الوادى بعد رحلتها الشـــاقة عبر الفيـــافى القاحلة ؛ فكانت بمثـــابة المصفاة تحتجز العناصر الضعيفة فلا تصل أرض النيل • وقد كان لذلك أثره فى اتصال مصر بالخارج ؛ وأصبح ذلك الاتصال منظما محدودا ، وان لم ينعدم فى وقت من الأوقات • ولذلك فان من الخير فى دراسة سكان مصر وتاريخ تكوينهم الجنسى ألا نغفل هذه الصفة المنظمة التى اتخذها اتصال مصر بالخارج ؛ وألا ننسى التنظيم الطبيعى للصلات عندما نقارن بين سكان مصر ومن يجاورهم من العناصر •

٧ — ولعل آخر ما ينبغى أن نشير اليه أن هذه الدراسة الجنسية فى مصر لا يمكن أن تخلو من طرافة ليس فقط لطالب الانثروبولوجيا أو الجغرافيا الجنسية ، وانما كذلك لطالب التاريخ البشرى ، ولأولئك الذين يعنون بتعرف شىء عن نصيب مصر فى تاريخ المدنية العام • فالحياة والمدنية فى مصر لم تكونا كما ذكرنا فى صدر هذا البحث من نتاج البيئة وحدها ، وانما جاءتا مترتبتين على تفاعل عوامل البيئة وجهود الانسان • ومصر التاريخية بشكلها المعروف انما كانت هبة من هبات النيل وثمرة من ثمرات الكفاح البشرى فى وقت واحد • ومهما قيل عن أسباب

---

(١) انظر مثالا لذلك فى :
A.M. Ammar "The People of Sharqiya "*loc. cit.*, pp. 176-209.

نشأة المدنية وازدهارها واستمرارها فى مصر فليس من شك فى أن التكوين الجنسى للمصريين كان له أثره الأول وفعله الدائم فى قصة الحياة والمدنية على ضفاف النيل •

سليمان حزين

ثبت ببعض المراجع :

أولا : مراجع عامة

Coon, C.S. "The Races of Europe", New York 1939 (section on "Civilized Men in Egypt", pp. 91-98).

Kappers, A.G.U., "An Introduction to the Anthropology of the Near East in Ancient and Recent Times" Amsterdam 1934.

MacMichael, H.A., "A History of the Arabs of the Sudan, and some account of the people who preceded them and of the Tribes inhabiting Darfur" 2 vols. Cambridge 1922.

Seligman, C.G. "The Physical Characters of the Arabs" *Journ. of the Roy.Anthropological Institute*, vol. XLVII, 1917, pp. 214-237.

Seligman, C.G., "Races of Africa" Home University Library, London 1930.

Sergi, G., "The Mediterranean Race: A Study of the Origin of European Peoples", London 1901.

Smith, G. Elliot, "The Ancient Egyptians and the Origin of Civilization" new edition 1923.

Worrel, W.H. "A Study of Races in the Ancient Near East", Cambridge 1927.

ثانيا : مراجع خاصة واقليمية

Ammar, A.M. "The People of Sharqiya: their Racial History, Serology, Physical Characters, Demography and Conditions of Life," *Pub. Soc. Roy. de Geog. d'Egypte*, (with vol. of plates), Cairo 1944.

Anthropology of Egypt in the Light of Recent Observations, being a review in *American Anthropologist*, vol. 12, 1910, pp. 75-76.

Anthropometric Investigations among the Native Troops of the Egyptian Army, being Report of the Committee, *British Ass. for the Advancement of Science*, Belfast 1902 pp. 350-351; South Africa 1905, pp. 207-208., York 1906, pp. 347-348.

Boyd, W.C. and L.G. "New Data on Blood Groups and other Inherited Factors in Europe and Egypt" *American Journ. Phys. Anthrop.*, vol. 23, pp. 49-70.

Chantre, E. "Recherches Anthropologiques dans l'Afrique Orientale —Egypte", Lyon 1904.

Chantre, E. "Indice Céphalique des Egyptiens Actuels" *l'Anthropologie*, t. XII, 1, pp. 759 *et seq.*

Craig, J.I. "An Anthropometrical Survey of Egypt" *The Cairo Sc. Journal*, vol. V, July 1911, No. 58, pp. 165-180.

Craig, J.I. "Anthropometry of Modern Egyptians" *Biometrika*, vol. VIII, 1911 (1912) pp. 66-78.

Derry, D.E. "Preliminary Note on Human Remains from a Neolithic Settlement at Merinde-Benisalame" *Anzeiger der philos. hist. Klasse der Ak. der Wissenschaften in Wien*, Jahrgang 1930, Nr V-XIII pp. 53-60.

Giuffrida-Ruggeri, V., "Les crânes égyptiens et arabo-égyptiens de l'Université de Naples" *l'Anthropologie.* t. 22, 1911, pp. 214-216.

Giuffrida-Ruggeri, V., "Were the pre-Dynastic Egyptians, Libyans or Ethiopians ?" *Man*, 1915, No. 32.

Giuffrida-Ruggeri, V., "A few notes on the Neolithic Egyptians and Ethiopians", *Man*, 1916, No. 55.

Hamy, E.T. "Aperçu sur les races humaines de la basse vallée du Nil" *Bull. Soc. d'Anthr.*, Paris 3e série, t. 9, 1886, pp. 718-743.

Hrdlicka, A., "Notes sur la variation morphologique des Egyptiens depuis les préhistoriques ou prédynastiques" *Bull. et Mém. Soc. Anthrop.*, Paris 5e série, t. 10, 1909, pp. 143-144.

Hrdlicka, A., "The natives of Kharga Oasis, Egypt", *Smithsonian Miscellaneous Collections*, vol. 59, No. 1, Washington 1912.

Matson, G.A., "A Procedure for determining Distribution of Blood-Groups in Mummies" *Proceedings Soc. for Experimental Biology and Medicine*, vol. 31, 1934, pp. 964 sqq.

Matta, D., "Some Observations on the Distribution of the Blood-Groups in certain Parts of Egypt" *Journ. Egyptian Medical Ass.* Jan. 1940, vol. XXIII, No. 1.

Morant, G.M., "A Study of Egyptian Craniology from Prehistoric to Roman Times" *Biometrika*, vol. XVII, 1925, pp. 1-52.

Myers, C.S., "Contributions to Egyptian Anthropology, I." *Journ. (Roy.) Anthrop. Institute*, vol. 33, 1903 pp. 82-89.
"Contributions etc. II: The Comparative Anthropometry of the most Ancient and Modern Inhabitants" *Ibid.*, vol. 35, 1905, pp. 80-91.

"Contributions etc. III: The Anthropometry of the Modern Mohammedans" *Ibid.*, vol. 36, 1906, pp. 237-271.
"Contributions etc. IV: General Conclusions", *Ibid.*, vol. 38, 1908, pp. 99-147.

Shousha, A.T., "On the Biochemical Race-Index of the Egyptians" *Egyptian Medic. Journ.* vol. XI No. 1, 4.

Shousha, A.T. and Ali, M., "The Blood-Groups of the Egyptians and their M. and N. Factors" *Journ. of the Egyptian Public Health Ass.*, 9th year, 1934, Oct.

Smith, G. Elliot, "Anthropological Work in Egypt" *Man* 1908, pp. 156 sqq.

Smith, G. Elliot, "The People of Egypt", *The Cairo Scientific Journal*, vol. III No. 30, March 1909, pp. 51-63.

Smith, G. Elliot, "The Ancient Inhabitants of Egypt and the Sudan" *Rep. Brit. Ass. for the Advancement of Science*, Australia 1914 p. 534.

Stoessiger, B.N., "A Study of the Badarian Crania recently excavated by the Brit. School of Archaeology in Egypt", *Biometrika*, vol. XIX, 1927, pp. 110-150.

سليمان حزين

ايام الهكسوس

لم تكد الأيام تنتهى بالأسرة الثالثة عشرة الى أواخر حياتها ، حتى أصبحت الأمور فى حال من الفوضى ، أقل مايقال فيها انها جرت البلاد الى ثورات متتابعة وحروب أهلية مختلفة . وكأنما شاءت الايام أن تمتحن مصر من وراء ذلك بضرباتها القاسية ، جزاء ماقدم زعماؤها من أسباب الخلاف بين يدى الأيام .

وهكذا منطق الزمن وقضاؤه فى مصير الأمم حين يقع الخلاف بين زعمائها، وحينما تملؤهم شهوة الحكم فتعمى قلوبهم وأبصارهم عن الحق والواقع، وتصرفهم عن كل خير ، وتدفع بهم فى سبيل الضلال ، وتسوقهم الى الهاوية . تاركين من ورائهم شعوبا بريئة ، لتنهشها ذئاب الاستعمار فى شراهة وعنف ، وتنصب عليها أسواطه فى غير رحمة . فالويل الويل للأمة يوم يركب شيطان الحكم منها رؤوس القادة والزعماء ، ثم يسكن فى قلوبهم ، ويوسوس فى صدورهم بتلك الأطماع التى تنشر بينهم أسباب الخلاف وتذيع بينهم العداوة والبغضاء ، ثم تدفعهم الى المكروه وتسوق الشعب من وراء ذلك الى ما ينتظره من سوء المصير .

وقعت مصر على أثر الخلاف بين زعمائها فريسة فى أيدى المغيرين من الهكسوس . والتاريخ يدخر لنا بعض الخبر فيما كتبه مؤرخنا الوطنى « مانيتون » حيث يقول : « ان الرعاة قد استولوا على مصر فى سهولة . واجتاحوها فى غير حرب . لأن المصريين كانوا يومئذ فى ثورة واضطراب » . ولعل فى حديثه هذا مايمكن أن ينهض دليلا واضحا لسوء الحال فى مصر من ذلك العهد . فلم تكد الحياة تنتصف من أيام

الأسرة الثالثة عشرة ، حوالى عام ١٧٥٧ قبل مولد المسيح ، حتى بدأت علة الضعف السياسى والاقتصادى تأخذ طريقها مسرعة فى كيان الدولة وحتى أخذت عواصف الاضطراب تهب عليها من مكان قريب .

وبين أسناد التاريخ المصرى مايؤيد رواية « مانيتون » ، فهذه بردية ساليبه (Sallier) [١] التى كتبت أيام « منفتاح ابن رمسيس الكبير» تشير أخبارها الى ما مهد لأيام الهكسوس فتقول : « ولقد حدث أن وباء كان فى مصر ، ولم يكن هناك من سيد (بين المصريين) يقوم ملكا (عليهم) » .

وليس عجيبا أن تصاب البلاد بالوباء فى ذلك العهد . فلن يكون من وراء الخلاف بين زعماء البلاد وحكامها غير الفساد وغير الجوع وسوءالأحوال الاقتصادية والاجتماعية والخلقية جميعا . فلم تسؤ أحوال المصريين بقدر ما ساءت فى عهد المماليك . ولم يجع الشعب المصرى بقدر ما جاع فى عهد المماليك . ولم تصب مصر بوباء الطاعون مثلما أصيبت فى أيام المماليك . ومصر على عهد المماليك — كما نعرف — قد كانت أقاليمها قسمة بين الحكام ، يتمتعون بثمارها وينعمون بخيراتها بينما يبيت الزارعون والعاملون من أبناء هذا الشعب على الطوى ، ويفترشون الحصباء وتأكل أسواط الحاكمين أديمهم أكلا لما .

ولقد نستطيع بعد ذلك الوصف القصير الذى جاء على لسان « مانيتون » . وأيده ذلك السند من أسناد التاريخ ، أن ندرك مقدار ما أصاب البلاد من الانحلال السياسى فى ذلك العهد . وكيف أن الخلاف بين زعماء هذا الوطن وحكامه لم يمكن أهله من الاجتماع تحت راية زعيم يقودهم ، أو حول عرش سلطان يظلهم .

---

(١) يرجع تدوين ذلك القرطاس إلى أيام الملك منفتاح بن رمسيس الأكبر من الأسرة التاسعة عشرة . والقرطاس محفوظ بالمتحف البريطانى .

اسم الهكسوس:

يسميهم مؤرخنا الوطني مانيتون «هكسوس» • ثم يعرض لتفسير الاسم فيقول ان معناه «ملوك الرعاة» • على أن المؤرخ قد اعتمد فى هذا التأويل على لغة المصريين فى عصورها المتأخرة[1] • وجاء المؤرخ اليهودى «يوسف» وهو الذى نقل عن « مانيتون » فسمى الهكسوس « أسرى الرعاة » •

وأكبر ظنى أن يكون ذلك أثرا من الخلط بين اللفظين المصريين «حقا» بمعنى «حاكم» و «حاق» بمعنى «غنيمة» • و «يوسف» لم يكن مؤلفا وانما كان ناقلا ، نقل عن « مانيتون » وحرف مانقل لحاجة فى نفسه[2] •

وهو بعد ذلك قد كان غريباً عن مصر ، وعن لغة المصريين ، وكان اعتماده على الرواية — كغيره من الكتاب — أكثر من اعتماده على الاستقصاء والتحرى • سمع تأويل الشعب لاسم الهكسوس ، فنقل عنهم ثم خرج ودون • وللشعوب غرام عجيب بتفسير الغامض من كل اسم ولفظ ، تدفعهم الى ذلك نوازع مختلفة لا تكاد تخلو من غرض • فأنت تسمع من أهل التأويل فى مصر اليوم ، أن الفيوم مثلا معناها « ألف يوم » وأن « ميت رهينة » معناها « مائة رهينة » لأن الرومان كانوا يأخذون من سكانها المسيحيين فى كل يوم « مائة رهينة » ليرهبوا أهلها ، وليردوهم عن دينهم • وأن « سمالوط » معناها « سماء لوط » وآية ذلك أن حاكما من حكامها يدعى « لوط » قد طغى واستعلى وقال للناس

(١) لما ساءت أمور المصريين إبان انحلال دولة الفراعنة ودخول النوبيين عند مطلع القرن الثامن قبل مولد المسيح ، نزل المصريون بألسنتهم من سماء اللغة الفصيحة الصحيحة المقدسة إلى حضيض الأرض ، واتخذوا من دارج القول وعامة اللفظ لغة لهم ، وهى ما اصطلح المؤرخون على تسميتها باللغة الديموطيقية أى « لغة العامة » .

(٢) كان الرجل موتوراً من «أبيون النحوى السكندرى » أحد علماء زمانه ، وكان ذلك الأخير من أشد أهل زمانه بغضا لليهود ، رماهم فى أصلهم ، وطعن عليهم فى أخلاقهم ، ووصفهم بصفات منفرة كريهة ، فانبرى له يوسف ونقل من حطام ماثون ذلك الفصل الذى عقده فى تاريخ الهكسوس، وحاول أن يخلط بين الهكسوس واليهود، ليرد عن قومه مارماهم به « أبيون » السكندرى .

أنا ربكم الأعلى ، ثم اتخذ لنفسه سماء من زجاج ، ورفع عليها عرشه ، فأصبح الناس من أجل ذلك يسمون تلك المدينة « سماء لوط » . وأن كلمة «فرعون» أصلها «فرعون» ؛ وعون « هذا هو عون بن عنق » . وكان طاغية أرهب جيوش المسلمين . فلما دهمته ذات يوم وأعانها الله على هزيمته ، لاذ بالفرار فتهلل الناس لذلك وقالوا فر عون . وأن «أبو جرج» والقرية التى تليها من ناحية الغرب وهى « صفط أبو جرج » قد كان يقوم على حكمها جبار يدعى « أبو جرج » ، بينما قامت على حكم «صفط» امرأة يقال لها « صفاء » رزقها الله مالا وافرا وجمالا رائعا . فتراءى « لأبى جرج » أن يتزوج من « صفاء » ليفيد من مالها ويستمتع بجمالها . ورأت هى فى ذلك ما يحميها من بأسه وعدوانه ، ويظلها بقوته وسلطانه. ولما قبلت سماها الناس يومئذ « صفة أبو جرج » . وصارت التاء طاء فأصبحت « صفط أبو جرج » وأطلق ذلك الاسم على القرية من ذلك الوقت وما زالت تحمله حتى يومنا هذا . وأمثلة ذلك كثيرة نسمعها من أهل مصر فى أقاليمها المختلفة .

ومن الجائز أن الكاتب اليهودى قد كان متأثرا بقصة ذلك النبى الكنعانى « يوسف بن يعقوب » . وأنه قد تأثر بما وقع ليوسف من اخوته حينما حقدوا عليه فألقوه فى غيابة الجب ، ثم جاءت سيارة فأخذوه الى مصر وباعوه بيع الأسير الرقيق . ولعل الكاتب قد عمد الى هذا التأويل ليلائم بين حكام الهكسوس وبين الكنعانيين الذين وفدوا على مصر فى أعقاب الصديق ، وليدفع عن اليهود ما رماهم به أبيون السكندرى من نقائص .

والمعقول أن يكون مرجع اسم الهكسوس وأصله الى الكلمة المصرية « حقا خاسوت » بمعنى « حاكم البلاد الأجنبية » ويجمع على « حقاو خاسوت » أى « حكام البلاد الأجنبية » . وبذلك نعت ملوك الهكسوس أنفسهم على ما خلفوا من آثار فى هذا الوادى .

ولعل أبعد عهود اللغة المصرية بهذا الاسم أن تكون أيام الدولة الوسطى • لأن اللفظ قد ورد فى « قصة سنوهى » المعروفة ابان حكم هذه الدولة • « وسنوهى » قد نعت به حكام فلسطين الذين رآهم وعاشر بعضهم بعد هروبه من مصر واقامته فى تلك الأقاليم الأسيوية •

كذلك ورد اللفظ أيام الدولة نفسها فى نقوش قبرأمير من أمراء الأقليم السادس عشر من أقاليم الصعيد (اقليم بنى حسن) يدعى « خنوم حتب » وقد عاش ذلك الأمير فى أيام الملك « سنوسرت الثانى » ، وسجل فى قبره حادثا من الحوادث التاريخية ، يشير الى مجىء احدى القبائل الاسيوية الى مصر •

والظاهر أن احدى قبائل فلسطين قد هاجرت الى مصر فى أيامه ، وعلى رأسها أمير يقال له « أبشاى » يحمل لقب « حاكم البلاد الأجنبية » وهو نفس اللقب الذى كان يحمله ملوك الهكسوس فى مصر • ولقد سجل « خنوم حتب » رسوم أعيان تلك القبيلة ، يتقدمهم أميرهم المذكور • وأنا لنتبين من صورهم وسحنهم وأزيائهم أنهم كانوا ساميين ؛ فشعورهم طويلة ولحاهم مرسلة ، وأرديتهم ملونة ، ومظاهرهم تخالف مظاهر المصريين جميعا •

ويكاد علماء التاريخ المحدثين أن يتفقوا جميعا على المعنى الذى قدمنا فى أصل تسمية الهكسوس • حاشا المؤرخ الألمانى الكبير « ادوارد ماير » الذى ينظر الى ذلك الرأى فى شىء من الشك ، وان كان لا يكاد يتخذ لذلك الشك سبيلا أو يقيم عليه دليلا •

وللهكسوس فى لغة المصريين أسماء مختلفة ؛ نشأ بعضها عن الكره الذى ملأ قلوب أهل البلاد لأولئك الذين اجتاحوا أرضهم ، واغتصبوا أوطانهم ، ويشير بعضها الى وطن القوم اشارة عامة ليس فيها شىء من التخصيص • فالمصريون يسمون الهكسوس « الطاعون » أو « الوباء » وتلك تسمية أساسها الكره والبغض من غير شك ، كما يسمى الأوربيون آهل المغول « الخطر الأصفر » أو « الوباء الأصفر » وأسموهم

« العامو » بمعنى « الأسيويين » أو « الساميين » ؛ وأسموهم « منتيوستت » بمعنى « البدو الأسيويين » .

وقديما كان المصريون يطلقون هذا الاسم على القبائل الاسيوية التى كانت تغير على المناطق الشمالية الشرقية من دلتا الوادى ، ثم أسموهم « شاسو » أى « الرعاة » وهو اسم كان المصريون يطلقونه على البدو الضاربين على حدود مصر الشمالية الشرقية ، وأصلهم من فلسطين . على أنه يلاحظ فى نهاية القول أن المصريين كانوا يطلقون كلمتى « عامو » و « منتيوستت » على الساميين عموما .

وآراء المؤرخين تختلف ، وأقوالهم تتضارب ، عند الكلام عن أصل

أصل الهكسوس وسبب هجرتهم إلى مصر :

الهكسوس وموطنهم الأصيل . فمن قائل انهم من بطون القبائل السامية المنتشرة فى فلسطين وفى ربوع سوريا وبلاد الجزيرة العربية ، نزحوا الى مصر بسبب ما أصاب أوديتهم من قحط وجفاف . ومن قائل ، انهم هاجروا من الأقطار السورية حينما ضاقت عليهم أرضها بسبب ما حل بهم من ظلم حكام « ميتانى » من جهة ، وبسبب ضغط المهاجرين الآريين من جهة أخرى . وهذا هو رأى المؤرخ الألمانى المعروف « ادوارد ماير » الذى يرجح أن غارة الهكسوس على مصر انما وقعت فى الثلث الأول من القرن السادس عشر قبل مولد المسيح ، وأنهم انما أغاروا عليها لاجئين مضطرين لما نزل بهم من حيف وضيق ، بعد ما وقعت هجرة الآريين فى القرن الثامن عشر قبل مولد المسيح .

على أن كل شىء فى مصر خصوصا ، وفى الشرق القريب بوجه عام ، قد كان يمهد يومئذ لمثل ذلك الغزو . فالفوضى كانت تسود كل نواحى الحياة المصرية ، واختلاف الزعماء يقطع أوصال هذا الوطن المنكوب ، ويسوق الشعب كله الى طريق الموت المادى والأدبى والسياسى فى وقت واحد ، ثم يدفع الشر الى مصر دفعا قويا . بينما يزداد الضغط على الهكسوس فى أوديتهم ، فيدفعهم الى الهجرة . فالشرق القريب كله كان يضطرب

بهجرة تلك الشعوب الآرية، واندفاعها بين أقاليمه المختلفة. والهكسوس — فيما نرى — قد كانوا أصحاب غزو وغارة ، يجيدون صنعة الحرب ، ويحسنون فنونها المختلفة . فلما دهموا مصر هال أهلها يومئذ ما رأوا لهم من عدة الحرب وسلاحها ، ومن خيل العدو وعجلاته الحربية . ولم يكن فى طاقة المصريين يومئذ أن يستطيعوا لقاء العدو ومقاومته ، فدخل الهكسوس مصر فى سهولة واجتاحوا شمالها فى غير عسر .

ولما كانت هجرة الشعوب الآرية واغارتهم على الأقطار الاسيوية قد وقعت فى القرن الثامن عشر قبل مولد المسيح ، فمن المرجح أن تكون هجرة تلك القبيلة الاسوية التى أشرنا اليها أيام الأسرة الثانية عشرة كانت أول هجرة قام بهـا الساميون الى مصر فى ذلك الوقت . ومن يدرى لعل قبائل أخرى قد فكرت فى الالتجاء الى مصر ، فردها عن ذلك ما كانت تخشاه من قوة المصريين وازدياد سلطانهم السياسى ، وانما اعتمـدت تلك القبيلة التى هاجرت تحت امرة « ابشاى » على ثراء مصر من ناحية ، وعلى ما كان لها من العشم فى حسن ضيافة المصريين من ناحية أخرى . فهى قدكانت تعرف ذلك وأكثر من ذلك . وكان أهل مصريلقون عند تلك القبيلة السامية وأمثالها فى ذلك العهد خير ما يلقى الطارق من كرم اللقاء وحسن الضيافة . وفى حـديث « سـنوهى » عن هجرته الى فلسطين واقامته فيها ، ما ينهض دليـلا لذلك ؛ فهو لقى منهم خير الصحاب ، وتمتع عندهم بأجمل العشرة وأحسن الجوار ، ثم أصهر الى أحد شيوخهم فأضحى ولده من بعده لا يعدمون فى فلسطين أبر الاعمام وأكرم الأخوال .

كان ذلك فى أيام الأسرة الثانية عشرة ، وأمور المصريين على خير حال ، وسلطانهم مضرب المثل فى العزة والقوة والجاه العريض . فما كاد يدال من أيامهم الى زمن الخلاف والفوضى ، وعصور الاضطراب والمحن الجبارة والانحلال السياسى ، حتى نزل الضعف منزل القوة ، وتحللت تلك القبائل الاسيوية من كل عهد وقيد .

فنسيت تقاليدها السياسية ، ولم ترعليها بعدئذ من حرج فى أن تهاجر الى مصر ، لا هجرة الضعيف اللائذ ، ولا هجرة اللاجىء المقهور ، وانما هجرة الفاتح المغير .

فلن يكون عجبا بعد هذا كله أن تغير بعض تلك القبائل السامية على مصر . والهكسوس — أكبر الظن — قد كانوا ساميين . وكان وطنهم الأصيل فلسطين . وفى تاريخ أيامهم ما يشير الى ذلك ويقوم دليلا عليه . فهذه طائفة من أسماء ملوكهم تشير الى انهم آن لم يكونوا عبريين ، فقد كانوا أقرب الناس اليهم على كل حال [1] .

على أن أسماء الملوك من الهكسوس لم تخل من أسماء غير سامية مثل « بنون » و « خيان » و « سلاطيس » و « أبا خنان » . ولن يكون فى ذلك ما يمنع من أن يكون أصحاب تلك الأسماء من أصل سامى . فأسماء نصارى مصر — وأكثرها أوروبية محضة — لايمكن أن تشير الى أنهم غير مصريين . وانما دفعهم الى ذلك الضعف السياسى ، والتقرب الى أوروبا المسيحية ، طمعا فى حماية الأقليات . وأنا أرجو أن يكون نصارى مصر قد فطنوا الى أن فى ذلك مسخا لأسمائهم ، وتشويها لحقائق التاريخ . وأن الشرق أولى بهم من الغرب . وأن المسلمين فى مصر أبر بهم وأحنى عليهم من أهل الاستعمار وأصحاب المطامع الذين يدينون دين المسيح فى أوروبا وغير أوروبا ، فالدين لله وحده . ومصر وطن لنا جميعا . فاذا استنكفوا أن يسموا أنفسهم باسماء المسلمين . فعليهم باسماء أجدادنا من المصريين فهم واجدون فيها ما هو أولى بهم وأشرف لهم من أسماء الأوربيين ألف مرة ومرة . ولست أرى كذلك من الكرامة ولا من المروءة أن يتجرد نصارى مصر من مظاهرهم الوطنية فيسمون أنفسهم

---

(١) من تلك الأسماء « عنات إيل » و « يعقوب إيل » من أسماء الملوك ثم « عامو و « يعمو » و « سمقن » و « عبد » و « نحمان » من أسماء الرعية .

« الخواجات » ليخلصوا من المظاهر المصرية ، وليخدعوا العالم عن الحقيقة ، ويظهروه على أنهم وأهل أوروبا المسيحية على قدم المساواة .

ملوك الهكسوس :

قسم مانيتون ملوك الهكسوس الى أسرات ثلاث : فعد للأسرة الخامسة عشرة ستة ملوك هم : « سلاطيس » و « بنون » و « أباخان » و « أبو فيس » و « يناس » ثم « أسيت » (١) .

ويلى أولئك فيما بقى من تراث « أفريكانوس » أسرة أخرى هى السادسة عشرة . جعل حكامها اثنين وثلاثين ملكا . ثم أردفها بالأسرة السابعة عشرة ، وجعل ملوكها فريقين : فريقا من الهكسوس ، وعددهم ثلاثة وأربعون ، ومثلهم من المصريين يحكمون فى طيبة . وينتهى حكم الفريقين بخروج الهكسوس من مصر .

وبين آثار ذلك العصر ومخلفاته الكتابية ما يظهرنا على وجود ملوك ثلاثة اسم كل منهم « أبو فيس » ، وهم على التعاقب : « عاأوسر رع أبو فيس » و « نب خبش رع أبو فيس » و « عا قنن أبو فيس » .

هذا وبين ملوك الهكسوس فريق يسمون أنفسهم حكام البلاد الأجنبية وهم « سمقن » و « عنات ايل » (٢) ثم « خيان » (٣) .

وفريق ثالث من ملوك الهكسوس لقب كل منهم نفسه بلقب « الاله الخير » أو « الاله الطيب » جريا على عادة السلف من فراعين مصر وأولئك هم على التعاقب : « عا حتب رع » و « أو سر رع » و « خع أو سر رع » و « خع ان رع » و « ما عت آيب رع » و « نب تاوى رع » ثم « خع مو رع » .

---

(١) لم تسجل الآثار من أسماء أولئك غير اسمى ملكين ، أحدهما « أبو فيس » والثانى « يناس » وأكبر الظن أن يكون ذلك الأخير هو بعينه « خيان » .

(٢) ليس يملك التاريخ من أسماء أولئك الملوك غير جعلين، أحدهما من تل اليهودية والثانى من تل بسطة .

(٣) وجد اسمه على جعل أيضاً .

وفريق رابع جعلوا أنفسهم من أبناء الشمس جريا على عادة ملوك مصر من الفراعنة • وليس يملك التاريخ من آثارهم غير أجعال تسجل أسماءهم على الوجه الآتى : « ابن الشمس شيشى » « ابن الشمس سكت» «ابن الشمس يعقوب ايل» «ابن الشمس ايعى» «ابن الشمس عامو » « ابن الشمس قار » •

ثم عثر بين أنقاض منف على أثر يحمل أسماء ملوك ثلاثة من أيام الهكسوس هم « عاقن » و « شرق » و « أبو فيس »[1] •

آثار الهكسوس

وبعد فأنا أشعر بأن عشاق التاريخ المصرى وقراءه من غير الأثريين وأصحاب التخصص انما يضيقون به وينفرون منه اذا ماجاء محشوا بأسماء الملوك وآثارهم وسنى حكمهم • وان أكثر الذين سقطوا على كتب التاريخ المصرى فى أطوار دراستهم قد نفروا منه وهجروه من أجل ذلك • وانى لأعذرهم فيما كانوا يفعلون ، لأن آثار الملوك وعهودهم وأعمالهم المختلفة ليست الا وسيلة الى وصف ألوان الحضارات الانسانية وتحديد فتراتها وتطورها • ومقدار ما أصابت الأمة من تقدم فى العلوم والآداب والفنون المختلفة ، ومقدار حظها من المساهمة فى تحضير الدنيا ونصيبها من تقدم الفكر الانسانى • ولقد أشعر أن الله وفقنى الى أكثر ما يبتغى القراء والطلاب فى اخراج الجزء الأول من تاريخ مصر الفرعونية[2]. وأنا عظيم الأمل فى أن أصيب بعض ذلك التوفيق فى اخراج السفر الثانى ان شاء الله • على انى أرجو ألا يضيق القارىء بما يجد فى هذا الفصل من ذكر

(١) يرجع الأثر إلى أوائل القرن السادس قبل مولد المسيح ، دونه كاهن من كبار كهان منف . وسجل عليها أسماء السلف من آبائه الذين ورث عنهم ذلك المنصب الدينى الخطير . ثم أسماء الملوك الذين عاش آباؤه فى ظلهم ومن بين أولئك ثلاثة من الهكسوس والأثر محفوظ بمتحف برلين

(٢) فى « موكب الشمس » الجزء الأول فى تاريخ مصر الفرعونية ، من فجره الصادق إلى آخر الضحى .

ذكر أسماء الهكسوس وآثارهم ، لأنى مضطر الى ذلك اضطرارا ، ما أكاد أتحلل منه . فالهكسوس قد كانوا غرباء ومدة حكمهم كانت قصيرة فهى لا تعدو قرنا ونصف قرن . ومع ذلك فقد أثرت هذه الفترة فى توجيه سياسة الدنيا على ضفاف النيل وفى أقاليم الشرق القريب . ومن الخير بعد هذا أن نضع أبصار القراء على آثار أولئك الملوك ليعرفوا مدى توغلهم فى أقاليم الوادى ، وانتشار سلطانهم بين أقطار الشرق . وأنا أعد القارىء ألا يطول الحديث فهو لن يعدو أيام ملوك ثلاثة كل منهم يدعى « أبوفيس » قامت ثورة الحرية فى أيام أحدهم على كل حال . فأما أحدهم فهو الملك « عا أوسر رع أبو فيس » ومن آثار أيامه :

١ — حطام أداة من أدوات الكتابة عثر عليها فى واحة الفيوم (١) يزعم صاحبها أنها أهديت اليه من ذلك الملك ، وينعته فيها بنعوت تشير الى شدة بأسه واتساع سلطانه ، منها أنه كان « ربا للشمال والجنوب » و « خليفة الشمس على هذه الأرض » ، « لا نظير له فى بقاع الأرض جميعا » ، و « أنه بطل حرب وقرم نزال تمتد شهرته الى أطراف الدنيا » .

٢ — أثر من حجر لا يكاد يحمل غير اسمه ، وجد فى جبلين ، وفى ذلك ما يشير الى أن سلطانه قد وصل الى تلك البقاع من وراء طيبة (٢) وان حكام الصعيد فى أيامه لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون الاحتفاظ بمظاهر استقلالهم فى حدود ما يحكمون . وليس ببعيد أن يكون الهكسوس قد أقاموا بعض الحصون فى تلك البقاع النائية من صعيد الوادى ، وأن يكون بعض أمراء الأقاليم من المصريين قد استقلوا بما وراء ذلك من « الكاب » حتى مطلع الوادى عند جزيرة فيلة .

٣ — كذلك ورد اسمه فى فقرة بين سطور قرطاس من القراطيس

---

(١) يوجد الأثر فى متحف برلين تحت رقم ٧٧٩٨

(٢) الأثر محفوظ بمتحف القاهرة تحت رقم ٢٩٢٣٨

البردية تشــير الى حادث عله وقع فى العام الثــالث والثلاثين من أيام حكمه [1] •

٤ — وأخيرا وعاء من جرانيت يحمل اسمه واسم ابنه ، عثر عليه فى قبر « أمنوفيس الأول » بجبانة طيبة ؛ ولعل فى ذلك ما يشير الى أن نفوذه قد بلغ طيبة ؛ وجائز أيضا أن يكون الأثر قد حمل الى طيبة من مكان بعيد •

وأما ثانى أولئك الملوك فيدعى « نب خبش رع أبو فيس » ولم تخل أيامه من آثار تشير اليه منها :

١ — خنجر من برونز يحمل اسمه ، عثر عليه فى جبانة منف [2] وفى مدفن رجل يقال له « عبد » ولم يكن « عبد » هــذا صاحب الأثر المذكور • وانما كان صاحبه رجل يقال له « نحمان » • وظاهر من هذين الاسمين أن صاحبيهما لم يكونا من المصريين • ومن المرجح أن يكون الأول من ولد الثــانى أو من أقاربه أو من أتباعه • وكان « نحمان » تابعا للملك يحرسه فى غدواته وروحاته ، فلا غرابة فى أن يحمل السلاح ويعتز به أبناؤه أو أتباعه من بعده ، ولا غرابة فى أن يتخذ رجل مثل « أبوفيس »حراسه من الاسيويين دون المصريين ، فمن الطبيعى أنه كان لا يأمن جانب المصريين ، بل كان يخشى منهم على حياته ؛ على أن أكثر ما يهمنا من أمر ذلك الأثر ، هو مايتحلى به من نقوش تشير كلها الى أن الصانع المصرى فى ذلك الوقت قد تأثر بما كان شــائعا من فنون جزيرة كريت• ولسوف نشير الى ذلك فى حينه •

٢ — كذلك ورد اسم هذا الملك على قطعة من حطام وعاء ينعت فيه نفسه بنعوت الملوك من فراعين مصر فيسمى نفسه « الاله الخير » ويسمى

---

(١) يعرف هذا القرطاس فى الدوائر العامية باسم بردية ريند **Rhind** الحسابية وهى موجودة بالمتحف البريطانى. Peet, E.TheRhind Mathematica lPap. Lilverpool 1923.

(٢) لأثر محفوظ بمتحف القاهرة •

نفسه « ابن الشمس وحبيبها » . على أن ذلك الحاكم لم ينفرد وحده بين ملوك الهكسوس بذلك الانتساب الى الشمس . وانما الواقع أن أكثرهم قد فعلوا ذلك . وانى حين أفكر فى تلك الظاهرة أكاد أشعر أن لكهان الشمس من أهل هليوبوليس أثرا فى هذا التوجيه . وهم قوم عرفوا بنشاطهم العجيب فى التبشير بعقيدتهم فى جميع عصور التاريخ المصرى ؛ ولم يكن تقديم مثل تلك العقيدة الى الهكسوس بالأمر العسير ، فهم قد كانوا فى آسيا ، والاسيويون على العموم كانوا يعرفون التفكير فى الشمس وما عداها من كواكب السماء ونجومها . ومن يدرى لعل كهان هليوبوليس قد فكروا يومئذ فى الاستعانة بقوة أولئك الفاتحين على بعث دينهم ونشره فى أقاليم الوادى . ومعروف كذلك أن الهكسوس قد تركوا آثارا حول هليوبوليس فى المكان المعروف باسم « تل اليهودية » ؛ فلقد كشف لهم هناك عن أنقاض حصن ، كما عثر فى جبانتها على أجعال تحمل أسماء بعض ملوكهم .

وثالث أولئك الحكام هو الملك « عاقنن رع أبوفيس » ومن آثار أيامه ما يأتى :

١ — قطعة من حطام وعاء تحمل اسمه . وجدت فى خرائب منف[١] ولا غرابة فى ذلك فالهكسوس قد وصلوا الى منف وأقاموا فيها . وفى أخبار « مانيتون » ما يشير الى ذلك فهو يحدثنا عن مليك لهم يقال له « سلاطيس » كان يختلف الى منف ويقيم فيها لوضع الخراج وتوزيعه على أقاليم الوادى .

٢ — كذلك ورد ذكره على مذبح من حجر الجرانيت الأسود . وليس يستبعد أن يكون قد وجد فى خرائب منف أو عند أطلال هليوبوليس . وعلى الأثر من النصوص ما يشير الى أن الملك قد أقامه لأبيه المعبود « ست » رب « أواريس » .

---

(١) الأثر محفوظ بمتحف برلين تحت رقم ٢٠٣٦٦

٣ — وأخيرا تمثال له عثر عليه فى تانيس (أواريس) يحمل اسمه وألقابه ومن بينها لقب « أمير الجيوش » وظاهر من وضعه أنه كان شديد الاعتزاز به •

وأكاد أشعر حين أنظر فى هذين الاثرين ، وما جاء عليهما من اهتمام الملك بمعبوده « ست » رب أواريس الذى يزعم أنه جعل ملك الدنيا تحت قدميه • ثم من اعتزاز الملك بلقب «أمير الجيوش» وجعله ذلك اللقب ضمن أسمائه ، أنه هو بعينه صاحبنا « أبوفيس » الذى رمى بشرارة الثورة الأولى عندما أخذ يتحدى الملك المصرى الحاكم فى طيبة « سقنن رع » ويتحرش به • وأغلب الظن أن « أبو فيس » هذا قد كان رجل حرب وكفاح • وكان يحس لنفسه شيئا من قوة • ويكره أن يرى فى صعيد البلاد من المصريين من يستقل ببعض أقاليمه • وكان لأمراء طيبة فى ذلك الوقت قوة أقل ما يقال فيها انها كانت جديرة بالاعتبار • فأثارت اهتمام « أبوفيس » حتى فكر فى أن يمتحنها • ومهد لذلك بارسال الرسل الى بلاط طيبة • وسنرى عند الكلام عن الثورة كيف أن بعض المؤرخين قد فكر فى أن يكون أولئك الرسل قد جاءوا يأتمرون بالملك ليقتلوه • وكيف أن اسم « ست » معبود الهكسوس قد أقحم فى أمر الاعتداء • واتخذ وسيلة من وسائل التحرش بالملك المصرى • ومهما يكن من شيء فأنا أشعر فى نهاية الأمر أن ملك الهكسوس قد فكر فى أن يمتحن أميرنا المصرى ليرى مبلغ قوته واقدامه على الحرب أو احجامه عنها • وكان يطمع فى أن يظفر به ليبلغ مدى ماكان يحلم به من سلطان على هذا الوادى •

مبلغ سلطان الهكسوس

جاء فى أخبار مؤرخنا الوطنى «مانيتون» أن الهكسوس قد استولوا على مصر فى سهولة • وملكوها دون أن يشعلوا نار حرب • لأن أمور المصريين

يومئذ كانت مضطربة أشد الاضطراب • ولأن البلاد قد كانت مستعدة للسقوط مقبلة عليه فى غير تردد • فالفوضى قد عمت أمور المصريين جميعا منذ عام ١٧٥٧ قبل مولد المسيح • وملكت عوامل الضعف كيان دولتهم فما يكاد يفلت منها وما تكاد ترفه عنه •

وبين آثار المصريين ما يؤخذ حديث « مانيتون » ؛ فهذه بردية ساليه (Sallier) المعروفة [1] تحدثنا عما كان فى مصر يومئـذ من خطر ووباء • وعما أصابها من فقر الى رجال الحكم والنظام من أبنائها • وفى ذلك ما يشير الى أن أحوال مصر السيئة قد كانت كلها متفقة على الشر مدفوعة اليه دفعا قويا • كأنما كانت وارادة الغزاة على موعد واتفاق • فبلغ الهكسوس دلتا الوادى وسـيطروا على شمالها • جاؤوها بخيلهم وعجلاتهم الحربية • وتطلع المصريون الى ذلك الغزو فملأهم الخوف وملكهم الرعب من سلاح العدو الذى لم يكن لهم به عهد من قبل •

جعل الهكسوس حاضرة ملكهم (أواريس — صان الحجر) من شرق الدلتـا • ثم أخذوا يمدون سلطانهم على أقاليم الوادى • فتركوا غرب الدلتـا تحت امرة حكام من الوطنيين يسميهم « مانيتون » حكام الأسرة الرابعة عشرة • ثم واصلوا زحفهم نحو الجنوب فبلغوا « منف » واتخذوا منها قاعدة لادارة شئون البـلاد الاقتصادية • وبين أخبـار « مانيتون » ما يشير الى فظائع الهكسوس فى مصر وما كان من تلك الأهوال المروعة التى هدت كيان المصريين هدا • فهم قد حرقوا القرى والمدائن وخربوا العمائر والمعابد • وأخذوا الناس بالصارم العنيف ، فذبحوا الرجال ، وساقوا الأطفال ، وسبوا النساء ، ثم وصل مليكهم سلاطيس الى «منف» واتخذ منها قاعدة لادارة شئون البلاد الاقتصادية • وكان يختلف اليها بين الحين والحين • بذلك يحدثنا « مانيتون » ؛ على أن أمر سلطان الهكسوس لم يقف عند « منف » وانما ظلوا يواصـلون زحفهم ، ويمدون سلطانهم حتى بلغوا حدود الأقاليم الوسطى من ناحية الجنوب •

(١) وجدت هـذه الأخبار مدونة على جدران غار يقال له « غار أرتميس » على مقربة من جبانة بنى حسن •

وبين اسناد التاريخ المصرى ما يؤيد بعض رواية « مانيتون » ويشير الى بلوغهم ذلك المدى من حدود الأقاليم الوسطى .

جاء فى أخبار الملكة «حاتشبسوت» انها أصلحت دار عبادة للمعبودة « حاتحور » بجهة القوصية فى شمال أسيوط ، وانها عمرت الخراب وأتمت الناقص من معابد الوادى وعمائره بعد الذى أصابها على أيدى حكام الهكسوس (١).

وفى حديث الملك « كامس » أحد أبطال ثورة الحرية . مع أمراء جنده ورجال بلاطه (٢) مايؤيد امتلاك الهكسوس لاقليم الاشمونين بعد «منف» وبلوغهم بلدة «القوصية» من شمال أسيوط (٣) .

هذا ويرى بعض المؤرخين من أمثال « ادوارد ماير وفلندر بترى » أن نفوذ الهكسوس قد تعدى حدود ماذكرنا فبلغ ما وراء طيبة ويستندون فى رأيهم الى ما ظهر من تدوين اسمى الملكين « خيان » و «أبوفيس» فى منطقة «جبلين» من نواحى طيبة . على أن التاريخ الذى يتلمس التوافه من الأمر أحيانا ، ليقيم حجه ويظهر آيته ، قد لا يستند مطمئنا الى ما ذهب اليه أولئك المؤرخين من امتداد نفوذ الهكسوس الى

---

(١) وجدت هذه الأخبار مدونة على جدران غار يقال له « غار أرتميس » على مقربة من جبانة بنى حسن

(٢) وردت أخبار الكفاح فى أيام ذلك البطل على لوح يعرف بلوح « كارنارفون » .

(٣) كانت القوصية تعتبر الحد الفاصل بين أقاليم الجنوب وأقاليم الشمال . ويتجلى أمر ذلك بوضوح عند النظر فى التقسيم الإدارى الذى استقرفى أيام الإمبراطورية المصرية منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة وما بعدها، حيث جعلت إدارة الأقاليم المصرية من مطلع الوادى عند اسوان الى شمال أسيوط تحت إشراف كبير وزراء الصعيد . وتركت إدارة الأقاليم من أسفل أسيوط الى أقصى الشمال تحت إشراف كبير وزراء الشمال . هذا وقد سمي المصريون معبود أسيوط « فاتح الطرق » وصوروه على هيئة كلب من بنات آوى، وأكبر الظن أنهم كانوا يتخذون منه علماً فى زحفهم نحو أقاليم الشمال. فى اسمه مايشير إلى ذلك. وكانوا يدعونه « الحارس » وفى ذلك مايشير إلى عقيدتهم فيه . جعلوه حارسا لملكهم فى الصعيد. ومن المرجح أن المصريين قد كانوا يتخذون من « أسيوط » حصنا يدرأون به إغارة الطامعين فى ملكهم .

ما وراء طيبة • لأننا نعلم أن أقاليم الصعيد الأقصى من مطلع الوادى الى شمال أسيوط قد كانت كلها تحت أمرة المصريين • واذا كان لابد من النظر الى مثل هذا السند الضعيف من أسناد التاريخ ، فمن المرجح أن تكون بعض جيوش الهكسوس فى محاولاتها قد بلغت ما وراء طيبة فى فترة من فترات الضعف التى مرت بحكام الصعيد • ولما لم تستطع البقاء كرت راجعة الى الشمال ، واكتفت بحظها من أقاليم الشمال والوسط • وجائز أيضا أن يكون الهكسوس لم يعدموا من والاهم من الخونة المصريين الذين كانت تدفعهم الأطماع السياسية والمادية يومئذ الى الخروج على بيت طيبة • فاذا صح هذا الفرض فمن الجائز أن يكون أولئك الخونة قد اتخذوا من تدوين أسماء بعض ملوك الهكسوس فى تلك البقاع النائية من صعيد الوادى مظهرا من مظاهر الولاء للهكسوس والخروج على الحكومة الوطنية فى طيبة •

واذا جاز أن يكون الهكسوس قد بلغوا طيبة فى بعض أيامهم ، فلن يكون غريبا أن يقع ذلك فى أيام مليكهم «خيان» ؛ فهو قد كان فيما يظهر من أقوى ملوك الهكسوس وأشدهم بأسا وأوفرهم أثرا ، وأوسعهم سلطانا • وليس أدل على ذلك من كثرة ما خلف من آثار لعلها لم تتفق لغيره من حكام الهكسوس • وهى لم تقتصر على مصر فحسب ، وانما عدتها الى سوريا وفلسطين ، وبلاد النهرين ، وجزيرة كريت [1] •

ويحاول « ادوارد ماير » أن يتخذ من تلك الظاهرة دليلا على انتشار سلطان الهكسوس فى تلك البقاع من أرض الشرق القريب ومن جزائر

---

(١) وجد اسم خيان على كثير من الآثار، تتمثل فى أجعال وغير أجعال: منها ماوجد فى مصر، ومنها ماوجد فى أقاليم الشرق وجزائر البحر. وجد اسمه مدوناً على قطعة من الجرانيت الأسود فى جبلين من نواحى طيبة ، ثم وجد على طائفة من الأجعال فى فلسطين وسوريا ، ثم على تمثال لسبع وجد فى بغداد ، وانتهى إلى المتحف البريطانى بمدينة لندن . ثم على غطاء وعاء من رخام عثر عليه بين أنقاض أحد قصور « كنوسوس » بجزيرة كريت، ثم انتهى إلى متاحف أوروبا .

بحر الروم وهو رأى قد يخالفه فيه بعض الناس [١] وأكاد حين أنظر فى رأى المؤرخ العظيم ، أن أتخيل طيفا من شك يجعلنى أدور من حوله دون أن أطمئن الى قبوله فى سهولة ، لأن آثار « خيان » قليلة ، ولأنها قد تكون بلغت تلك البقاع عن طريق البدل والتجارة • ثم أحاول من ناحية أخرى أن خالف عن رأى « ماير » فلا أكاد أطمئن الى ذلك كثيرا • فقلة الآثار وحدها قد لاتكفى لاثارة الشك ، لأن آثار الهكسوس جميعا بالقياس الى أيامهم قليلة أيضا • واذا كانت آثار « خيان » فى سوريا وبلاد الشرق لم تتأثر بفنون الشرق وهواه ، وآثرت أو آثر لها أصحابها أن تحمل الطابع المصرى الخالص ، فذلك لأن الهكسوس قد أقاموا فى مصر واستقروا فيها ، وجعلوا فيها عاصمة ملكهم • ولم يعرف كذلك عن الهكسوس أنهم كانوا أصحاب فنون ؛ بل كانوا أهل حرب وغارة • والحروب لاتتيح للناس فرصة التفكير فى الفنون أو النظر فيها الا بمقدار •

ولعل أبصارهم لم تتجه الى الفنون الجميلة وآثار الحضارات الرفيعة الا فى مصر • فلا غرابة اذا فى أن تصدر فنون أيامهم مطبوعة بالطابع المصرى الخالص • ومن الأسباب التى تجعلنى أميل الى رأى «ماير» هو أننا لم نسمع صوت هذه البقاع الشرقية يدوى فى أيام الهكسوس • ولو كان لها صوت لسمعته الدنيا وسجله التاريخ ولجاز أن يكون لها قوة ، ولو كان لها قوة ، لنازعت الهكسوس سلطان الشرق ، أو نزعت على الأقل الى الخلاص من سلطانهم • ولكنها – فيما يظهر – قد آثرت العافية ، واستسلمت كما استسلم غيرها لجبروت الهكسوس ، حتى أزال الله ملكهم من عالم الوجود •

---

(١) ومن الذين يرون أن يخالفوا « ماير » فى رأيه زميلنا الدكتور باهور لبيب فى رسالته التى كتبها عن حكومة الهكسوس ، ويتعلل فى ذلك بقلة الآثار . وعدم تأثرها بفنون الأقاليم التى وجدت فيها •

وسبب آخر لا يجوز أن نغفل عنه ، وهو ما نلمحه فى تاريخ الثورة المصرية من بعد قريب ، من ميل أصحاب «كريت» للمصريين ومساعدتهم اياهم فى الجهاد ضد الهكسوس ، فقد يكون فى ذلك مايشير الى أن أهل تلك الجزيرة قد كانوا والمصريين فى الهم سواء .

أكاد أشعر فى النهاية بأن سلطان الهكسوس قد تعدى مصر الى غيرها من أقطار الشرق القريب . فهم كانوا أصحاب قوة وبأس . ومع ذلك نراهم يكتفون من مصر بأقاليم الشرق من دلتا الوادى ، بينما يتركون حكم أقاليمها الغربية لحكام من المصريين يسميهم « مانيتون » حكام الأسرة الرابعة عشرة ويجعل حاضرتهم « سخا » . كما حكم أمراء الصعيد أقاليمه العليا من مطلع الوادى عند فيلة الى أسيوط . واتخذوا طيبة قاعدة لحكمهم .

فنحن لانكاد نتجاوز حدود المنطق كثيرا ، ان نحن وقفنا الى جانب « ماير » ولم نخالف عن رأيه كثيرا . فقد يكون من المرجح أن تلك البقاع من بلاد الشرق القريب وجزائر بحر الروم قد كانت واقعة تحت نفوذ الهكسوس ان لم يكن فى أيام بعضهم ففى أيام مليكهم « خيان » على الأقل .

مدافن الهكسوس وعقيدتهم الدينية

وجدت مدافن الهكسوس متفرقة فى أكثر من مكان من أقاليم الشمال والوسط . وجدت فى تل اليهودية على مقربة من هليوبوليس ، ثم فى أبو صير الملق و «سدمنت» فى الجنوب من اقليم منف . ونستطيع أن نستنتج من ذلك أن الهكسوس وان كانوا قد حاولوا نشر سلطانهم فى أقاليم الجنوب ، فانه لم يقدر لهم الاقامة فيها . وانما الراجح أن جالياتهم قد نزلت فى الشمال وحول رأس الدلتا ، على مقربة من منف وهليوبوليس أى أنهم نزلوا فى موازين الأرض من أقاليم مصر . كذلك وجدت بعض

قبور الهكسوس فى فلسطين من نواحى «غزة» و«بيت بليت» • هنالك كشفت الأبحاث العلمية فى تلالها عن قبور غير قليلة للهكسوس • وطالعتنا هذه القبور بطائفة من تلك الأجعال التى تحمل اسم الملك « أبوفيس » ، كما عثر فيها على مدافن لحمير أربعة (١) • وليس من شك فى أن دفن الحيوان انما يشير الى تقديسه كما كانت الحال فى مصر الفرعونية (٢) •

وقدماء المصريين قد كانوا أئمة الناس فى هذا البـــاب ، وان كان تاريخهم لا يكاد يشير الى شىء من تقديس الحمار — رغم تقديسهم لأكثر أنواع الحيوان — ورغم وجود الحمار فى مصر • فانه كان معروفا منذ أبعد عصور التاريخ • وكان لدى المصريين من دواب الحمـــل المعروفة الا أنهم فيما يظهر لم يقدروا فيه الصبر وقوة الاحتمال • كما فعل أهل البلاد العربية فى المشرق والمغرب • فالهكسوس هم الذين قدروه وقدسوه من غير شك ، ثم عبدوا الههم « ست » أو « ست بعل » فى صورة الحمار (٣) .

وليس يستبعد كذلك أن يكون الســـاميون الذين قـــدروا ذلك الحيوان قد كانوا يقدسونه فى عهودهم البعيدة • وفى تاريخ العرب ما يشير الى تقديرهم لذلك الحيوان • فهذا « مروان بن محمد » أحد حكام بنى أمية كان يلقب بالحمار • لأنه كان لايجف له لبد فى محاربة الخارجين

---

(١) وجدت مدافن الحمير على مستوى يلى مدافن الآدميين . ولعل فى ذلك معنى من معانى تقديس الهكسوس لذلك الحيوان . كذلك عثر فى تلك المدافن على قبور للخيل ولكن على مستوى ينخفض من مستوى مدافن الحمـــير . ومن المرجح أن يكون فى دفن الهكسوس الخيل ، مايشير إلى تقديرهم لذلك الحيوان النافع . فهو قد نفعهم وأعانهم على بسط نفوذهم ونشر سلطانهم بين مصر وأقاليم الشرق القريب .

(٢) كان المصريون يعتقدون أن أرواح الحيوانات المقدسة إنما تلجأ إلى تلك القبور لزيارة أصحابها على نحو ماتفعل أرواح الموتى من بنى آدم. ولقد وجدت مدافن الحيوان عندهم منذ أبعد أيام فجر التاريخ . فمدافن البقر قد وجدت فى البدارى قبل مطلع الصبح من تاريخ مصر بزمن بعيد .

(٣) ولقد يؤيد ذلك أن أحد ملوكهم يدعى « عاقنى » بمعنى « الحمار قوى » يعنى قوى لأنه خلقه وسواه . وملكه وأيده . وهى تسمية مصدرها الحمد والشكر والإعجاب . ومن الشواهد التى تدل على أن الهكسوس قد عبدوا «ست» فى صورة الحمار . أن اسم الحمار قد بدأ يكتب فى لغة المصريين مخصصاً بصورة الإله ست منذ أيام الهكسوس .

عليه • فكان يصل السير بالسير • ويصبر على مكاره الحرب ، وكان فوق ذلك شجاعا داهية [1] •

وكذلك فعل أهل المغرب العربى فلقبوا بطل برقة « بحمار برقة » وظاهر من هذا كله أن العرب قد فطنوا الى ما فى ذلك الحيوان من قوة الصبر والقدرة على احتمال المكاره •

والهكسوس قد رأوا بين معبودهم السامى « بعل » وبين المعبود المصرى « ست » كثيرا من تشابه فى الصفات والطبائع • فساووا بين المعبودين وجعلوا منهما معبودا واحدا عبدوه فى صورة الحمار • والغالب أن يكونوا قد عبدوا الى جواره معبودات سامية أخرى مثل « عنات » و « عشترة » • وما نعرف أنهم قدســـوا غير تلك المعبودات • رغم ما نشاهد فى مظاهر أسمائهم من الاشارة الى معبود المصريين « رع » فوجود اسم رع فى اسمائهم قد يكون غالبا من باب الاستملاح أو جريا على تقليد فراعنة مصر •

فليس فى تاريخ الهكسوس ما يشير الى أنهم عبدوا رب المصريين على الاطلاق • وفى حديث الملكة حتشبسوت الذى مر ذكره ما يؤيد ذلك • فهى قد نسبت الى الهكسوس تخريب المعابد المصرية • ونسبت فعلتهم هذه الى جهلهم بمعبود المصريين « رع » •

والظاهر أن الساميين لم ينفردوا وحدهم بين شعوب الأرض بتقديس الحمار وانما قدسه غيرهم من شعوب الدنيا والذى يقرأ أساطير اليونان • يستطيع أن يقف على قصة « مرسياس Marsyas » ويستخلص منها انه لم يكن فى الأصل ربا للنهر ولا روحا من أرواح منابع الماء وانما كان اله عبد فى صورة الحمار •

---

(١) راجع تاريخ الخلفاء للسيوطى ص١٦٩ والبخارى ص٢١٣

لم تكن عاصمة الهكسوس حديثة عهد بدنيا المصريين . ولا هى خلقت عند دخول الهكسوس . بل لم تكن أيام الهكسوس أول عهد المدينة بعبادة الاله « ست » ؛ وانما الراجح أن عبادة الاله قد كان قائمة فيها قبل أيام الهكسوس بزمن بعيد . فالمعروف أن عبادة ذلك الاله قد عرفت فى شرق الدلتا أيام الأسرة الرابعة . وكانت قائمة فى مكان يقال له « سزرت » [1] . ولقد اتضح لكثير من علماء الآثار الذين بحثوا فى تلك المنطقة من شرق الدلتا وتعمقوا فى دراسة آثارها وتاريخها [2] ، أن المعبودات التى قدست فى عاصمة الهكسوس وعلى رأسها « ست » ، هى بعينها التى قدست فى عاصمة الرعامسة من بعد ذلك .

ثم بآن للعلماء من بعد ذلك أن عاصمة الهكسوس انما قامت على أنقاض بلدة قديمة قد تكون هى بعينها « سزرت » التى كانت موطنا لعبادة الآلة « ست » فى أيام الدولة القديمة . فلما دخلها الهكسوس احتضنوا ذلك المعبود بعد أن ساووا بينه وبين معبودهم السامى «بعل» ولما كانت أيام «رعمسيس الكبير» — وأكبر الظن أن تكون أسرته قد نشأت فى تلك البقعة — أقام على انقاض « اواريس » عاصمة الهكسوس عاصمة ملكه الجديدة . وأسماها «بر رعمسيس» أى «بيت رعمسيس » . وغالب الظن أن يكون السر فى اختيار الرعامسة لذلك المكان قد كان هو بعينه الذى دعا الهكسوس الى اقامة حاضرتهم عليه . أعنى أن السبب كان حربيا سياسيا . فالمكان يقع فى شمال الدلتا الشرقى ، فيشرف من هنالك على صحراء العرب فى الشرق ، وعلى بحر الروم فى الشمال .

(١) استطاع Junker أن يستخلص هذه الحقيقة من ألقاب موظف يدعى « بحر نفر » الذى كان كاهنا للمعبود ست ، انظر المتون الخاصة بذلك فى :
Maspero, Etudes de Mythologie, et Archéologie Égyptienne, in Bibliothèque Egyptologique Bd. II. 248. Auch. Junker, Giza III. SS. 96.97

بحيث يتيح للهكسوس أن يكونوا على بعد قريب من بقية أملاكهم فى شرق الأرض وجزائر بحر الروم • تلك هى عاصمة الهكسوس التى عرفت باسم « أواريس » والتى بنيت على أنقاضها عاصــمة الرعامسة والتى أسماها الاغريق « تانيس » ثم أسماها العرب « صان الحجر » • تلك هى المدينة العظيمة التى لعبت دورها الخطير فى تاريخ الشرق السياسى • وهى ما زالت خالدة حتى يومنا هذا • لكثرة ما ضمت أنقاضها من كنوز ، ما تزال تقذف بها الى الدنيا من بين قبور الأسرة الثانية والعشرين •

بعث عبادة ست وتجديدها فى تانيس على عهد الرعامسة

عثر بين أنقاض المدينة على لوح يعرف فى كتب التاريخ والآثار باسم لوح الأربعمائة عام [١] • أقامه رعمسيس الثانى تخليدا لذكرى أبيه الملك سيتى وذكرى جده الأكبر وكان يدعى سيتى أيضا • وظاهر من بناء الاسمين — كانرى — أنهما مشتقان من اسم الاله «ست» تيمنا به واعتزازا بقوته وبأسه • وظاهر أيضا أن الأسرة قد اتخذت من معبود أقليمها ربا اعتزت به وحاولت أن تدفعه الى أمام • ولعــل شأنهم فى ذلك أن يكون كشأن ملوك الأسرة الثانية عشرة الذين اتخذوا من معبود أقليمهم «آمون» ربا لأسرتهم ودفعوا به فى مقدمة الأرباب جميعا • كما يتضح من اسم مؤسسها وعاهلهــا الأول « أمنمحات » (آمون هو الأول) ثم اندفعوا تحت رايته من بعــد ذلك فأسسوا دولتهم التى عمرت قرنين ونصف قرن من أيام التاريخ الفرعونى •

أما والد رعمسيس الكبير فقد كان — كما نعرف — الملك سيتى الأول • وأما جده فكان قائدا لفيلق الرماة أيام الملك « حور محب » (حوالى

(١) أنظر :
Selhe, K. Der Denkstien mit dem Datum des jahres 4 00 der Aera von Tanis AZ. 65, 1930

عام ١٣٣٠ ق٠م٠) ٠ والظاهر أن الصلة قد كانت وثيقة بين حورمحب وبين تلك الأسرة ٠ فقد استعمل سيتى المذكور وولده رمسيس الذى ظل فى خدمتـه حتى أقام من بعـده أسرة الرعامسة وعرف يومئـذ باسم « رمسيس الأول » ٠

وليس من شك فى أن ذلك قد قصد به تخليد ذكرى الرجلين من آباء الملك رمسيس ٠ ولكنه أفاد فى شىء آخر أعظم خطرا وأبعد أثرا فى تحقيق حوادث التاريخ المصرى ٠ فاللوح قد سجل ذكرى اليوم الرابع من آخر شهور القرن الرابع من عبادة الاله ست ٠ وظاهر من مضمون الأثر أن رمسيس قد أراد أن يظهر الدنيا على ما كان لجده وأسرته من فضل فى عبادة « ست » فى ذلك المكان من شرق الدلتا ٠ فلو طوينا القهقرى تلك القرون الأربعة لوقف بنا الزمن عند عام ١٧٣٠ ق٠م ، وهو العام الذى دخل الهكسوس فيه مصر ٠ واتخذوا من أواريس عاصمة لملكهم ٠ وبعثوا فيها عبادة الاله « ست » الذى ظلوا عليـه عاكفين حتى غيب الله دولتهم من عالم الوجود ٠

يتضح من كل ما ذكرنا أن عبادة « ست » قد كانت معروفة فى ذلك المكان منذ أيام الدولة القديمة ثم بعثت بعد ذلك مرتين : مرة على أيدى الهكسوس ، ومرة أخرى على أيدى الرعامسة ٠

ثورة الحرية

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدق

بطل الثورة الأولى وأسبابها :

أشرنا فى الحديث عن آثار الهكسوس الى بواكير الثورة المصرية ٠ وقـدرنا أن يكون شررها قد أخذ يتطاير منـذ أيام ملك من ملوك الهكسوس يقال له « أبو فيس » وقد كان ثالث ثلاثة يدعون بهـذا

الاسم [١] . وتشير أخبار المصريين وأحاديثهم عن الثورة وأيامها الى أن « أبو فيس » هذا قد أخذ يتحدى الملك المصرى الحاكم يومئذ فى طيبة ويتحرش به [٢] . ولقد كان حاكمنا المصرى يدعى « سقنن رع » وكان هو الآخر ثالث ثلاثة من أهل بيته يدعون بهذا الاسم[٣]. وجدت أسماؤهم فى قرطاس من القراطيس البردية يعرف باسم بردية Abott [٤].

والبردية من مخلفات محكمة طيبة العليا ، فيها محضر التحقيق فى قضية نهب القبور المشهورة فى وادى الملوك ، والتى وقعت حوادثها فى الأسرة العشرين ؛ وفيها كشف القضاء عن أسرار تلك الجريمة الكبرى بحيث قبض على أصحابها . وانتهى التحقيق باداناتهم وبالاهتداء الى ذلك المخبأ الشهير فى نواحى الدير البحرى ، حيث كان اللصوص يخفون جثث الملوك الذين نهبت قبورهم ؛ وفيها جثة ذلك البطل « سقنن رع » وبها آثار الجهاد بينة ظاهرة تتمثل فى ضربات أفضت الى موته [٥] .

وأخبار الثورة من أيام ذلك البطل معروفة فى الآداب المصرية من عهد الأسرة التاسعة عشرة [٦] . وهى تحدثنا عما كان من أمر «أبو فيس» ملك الهكسوس ، وكيف أنه أرهق الملك المصرى الحاكم فى طيبة بمطالب

---

(١) انظر :

Labib Pahor, Die Herrschaft der Hyksos in Aegypten & ihre Sturtz s. 23 ff.

(٢) توجد أخبار تلك الثورة فى البردية المعروفة ببردية Sallier وقد ترجمها العالم الألمانى Erman فى كتابه عن الأدب المصرى

Literatur der Aegypter, Leipzig 1923.

(٣) يدعى أولها « تاى » ويدعى الثانى « تاى الكبير » ويدعى الثالث « تاى قنى » (= تاى الشجاع) ويحمل ثلاثتهم اسم « سقنن رع » وهكذا وردت أسماؤهم فى قائمة بدير المدينة . انظر تاريخ ادوارد ماير : Ed. Mayer, Chrenologie S. 78,

(٤) Peet, E. "The Great Tomb Robberies of the Twentieth Egyptian Dynasty". Oxford. 1930. Winlock; Tombs of the Kings of the 17 Dyn.

(٥) انظر :

Smith, The Royal Mmmies, Le Caire 92.S. 4 Tafel 2&3.

(٦) بردية ساليه

Pap. Sallier I. vgl. Labib Pahor ibd. S. 36 ff.

لا قبل له باحتمالها ، وكيف أنه ظل يتحداه ويجرح كرامته حتى أثاره [١] . وأكبر الظن أن يكون « أبو فيس » قد رأى لأميرنا المصرى من القوة والسلطان ما يجوز أن يصبح أمره خطرا على ملك الهكسوس ونفوذهم السياسى . فأخبار الثورة فى البردية المذكورة تشير الى قوة الحكومة الوطنية ، واتساع نفوذها ، وانتشار سلطانها بين أقاليم مصر ، حين تزعم أن مصر كلها كانت تؤدى خراجها الى بيت طيبة . فلن يكون غريبا بعد ذلك أن يتحرش ملك الهكسوس بأميرنا المصرى من أجل الثراء المادى واتساع السلطان السياسى ، وأن يثور بيت طيبة ، ويثور معه أعوانه من بيوت الصعيد للعزة الوطنية والكرامة القومية . ثم لشىء آخر أجل خطرا ، وأبعد أثرا فى حياة الناس وفى تاريخهم السياسى من كل ما ذكرنا أعنى من أجل العيش وتنازع البقاء .

وبين أخبار الثورة ما يشير الى أنها قامت تحت راية الدين . ولن يبدو ذلك غريبا فى عيون أولئك الذين درسوا الحياة المصرية وتاريخها ، وحياة الشرق وتاريخه ، بل وحياة الدنيا كلها فيما مضى من أيامها البعيدة والقريبة . فقصص الحروب المصرية كلها قد صورت تلك الحروب فى صور دينية ، وأجرت حوادثها تحت راية الدين وفى ركاب الآلهة . وقصص الأسرائيليين عن حروبهم قد لبست كلها أثوابا دينية براقة .

فلاعجب بعد ذلك أن تثير الرواية عجاج هذه الحروب المصرية تحت راية الدين ، وأن تدفع بها فى ركاب « آمون » وهو يومئذ صاحب طيبة ومعبود الأسرة الحاكمة فيها . ثم تصور لنا « أبو فيس » ملك الهكسوس وقد جعل من معبوده « ست بعل » أله الآلهة ورب الأرباب يعكف على عبادته ويحرم على الناس عبادة ما عداه . ثم يدعو الملك المصرى الى عبادته والانصراف عن آمون ، بينما يحرص ذلك الأخير على

---

(١) Manetho : Unger, Chronologie des Manetho Berlin 1867

أن يكون «آمون» رب الأرباب واله الآلهة • وهكذا يتنافس الملكان تنافسا دينيا خالصا ، فما يكاد أحدهما يظفر بصاحبه ، وما كاد أحدهما يبلغ بمعبوده ما يريد • ثم ينتهى الأمر الى تلك الحرب التى أدت الى مصرع أمير طيبة •

ولست أريد أن أنكر أثر الدين فى أثارة الحروب • فقد يكون فى ذلك شيء من الحقيقة ، وقد تقوم الحروب من أجل الدين واعلاء كلمته أحيانا• على أن الغالب أن ألوية الدين لا ترفع فى الحروب الا لتذكى نارها وتؤجج وقودها • وانما تختفى أغراض المجاهدين وأطماعهم السياسية أبدا وراء ألوية الدين •

ونحن نذكر قصة « رمسيس الأكبر » فى موقعة قادش • عندما أحيط به ، وتفرق من حوله عسكره • فوقف وحيدا فريدا ينادى ربه وأباه « آمون » ، ويستغيث به ، ويستمد منه المعونة على الشدة ، والنصر على العدو • ولما استبطأ معونته أنكر منه ذلك ، وأخذ يناجيه بذلك العتاب الشديد اللين فى آن واحد •

ونحن نذكر عام الفيل ، وقصة الحرب بين اليمنيين والقرشيين ، وكيف أن حوادث الحرب قد جرت كلها تحت راية الدين • بينما اختفت من ورائها ألوية السياسة ، والطمع فى الثراء المادى والسلطان الواسع والجاه العريض• ونذكر ما كان من أمر القرشيين وهلعهم عندما أدركتهم جيوش اليمنيين تحت امرة أبرهة • ثم التجائهم الى عبد المطلب وهو يومئذ كاهن البيت وزعيم قريش • يدفعون به الى أبرهة ليرجوه أن يكف عدوانه عن البيت • ثم ينظرون فاذا عبد المطلب يسرع الى أبرهة فلا يكلمه فى أمر البيت ، وانما يسأله أن يرد عليه ابلا له كان قد سلبها أثناء زحفه على أرباض مكة • ويندهش أبرهة من أمر الرجل فيستصغر من شأنه• ويقول له « قد كنت أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى • أتكلمنى فى مائتى بعير قد أصبتها لك• وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمنى فيه» • فيجيب عبد المطلب «انى أنا رب الابل وان للبيت ربا سيمنعه » •

فالكفاح كما نرى لايكون من أجل الدين ، ولا من أجل الآلهة . وانما يكون الكفاح — مهما تلون — من أجل العيش والحرص على البقاء . فلم تكن حروب المسلمين فى عصر الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من أجل الدين ونشر دعوته واعلاء كلمته فحسب . وانما كان داعيها التوسع فى الفتح من أجل العيش الخفيض . والثراء المادى والطمع فى السيادة والسلطان العريض .

ولم تكن حروب الصليب كذلك من أجل صاحب الصليب والدفاع عن دينه . ولا من أجل محمد والحرص على عقيدته ، وانما هى حرب بين الشرق والغرب ونزاع على السيادة والسلطان . تذرع لها أصحاب المسيح من أهل الغرب بأسباب دينية يستطيع التاريخ أن يبرىء ذمته منها براءة الذئب من دم ابن يعقوب كما يقولون .

وهكذا كانت الحرب بين المصريين والهكسوس . فلقد قام المصريون يدفعون الأذى عن نفوسهم ، ويطلبون الحرية لحياتهم ، ويسعون لتخليص وطنهم من الذل والرق ، ويستردون لأنفسهم حق الحياة الحرة فى هذا الوطن . واستعان بطلهم « سقنن رع » بأوليائه من بيوت الصعيد ومن ناحية أدفو بنوع خاص . وكانت له فى جهاده شريكة وسند قوى : هى زوجه الملكة «اياح حتب» التى وجد قبرها فى جبانة طيبة وهى أم خليفتيه وبطلى الجهاد من بعده « كاموسى » و « أحموسى » .

ونعود الآن الى البطل ومصرعه . فلقد بقيت جثته فى قبره بجبانة طيبة أجيالا طوالا . ثم نبش اللصوص قبره ونقلوا جثته الى ذلك المخبأ الذى أشرنا اليه فى الدير البحرى . ولما كان عام ١٨٧٥ . وقع عليها لصوص من سكان طيبة فى هذا العصر الحديث . ثم كشف أمرهم حوالى عام ١٨٨١ . حيث نقلت جثة بطلنا مع غيرها من جثث الفراعنة الى متحف القاهرة . ولما هيأت الدولة قبر «سعد» وأعدته لرفاته ، فكرت الحكومة القائمة وقتئذ فى نقل جثث الفراعنة واعادة دفنها الى جوار سعد . على

أن شيئا من ذلك لم يتم • لأن زعماء البلاد كانوا يختلفون فى ذلك الوقت • ولم يزل خلافهم قائما حتى يومنا هذا • ويقينى أن دفن جثث الفراعنة التى احتارت بين أيام الزمن فلا تكاد تستقر ، أهون على الأيام من اتفاق زعمائنا المصريين ألف مرة ومرة •

وكان العلم قد اتخذ سبيله الى أجداث الفراعنة منذ نقلها الى المتحف فقدرت أعمارهم ، وعرفت الأسباب التى أدت الى موتهم ، وفحصت جثة بطل الثورة فاذا سنه يوم مصرعه لا تكاد تعدو أربعين عاما • ومن المرجح أن مصرعه قد كان فى ميدان القتال وبين عراك الأسنة • وجائز أن يكون موته نتيجة لمؤامرة سياسية دبرها العدو ومن والاه من الخونة المصريين •

ومن آثار مقتله طعنات ثلاث فى فكه الأيسر • سقط بعدها فاقد الوعى ، حيث أهوى عليه القاتل بطعنتين آخريين ، أصابت أحداهما ما فوق الحاجب الأيسر ، بينما شقت الأخرى عظام رأسه ولما استيقن أعوانه من موته ، أسرعوا اليه فلفوه بلفائف من كتان ، ثم وضعوه فى صندوق من خشب مموه بالذهب وأودعوه قبره فى جبانة طيبة •

وظاهر من جثته أنه كان طويلا فى غير اسراف ، معتدل القامة ، ممشوق القد • ولم يكن له فى وجهة جمال ممتاز ، مستقيم الأنف عريض أصله ، بارز عظام الخدين ، صغير الفم مستديرة ، وفى لحيته وعوارضه أصول من الشعر تشير الى أن الأقدار قد زينته للقاء ربه فمن المرجح أن يكون قد حلق شعره فى صبيحة يوم مصرعه • ومهما يكن من شيء، فالأمر الذى لاشك فيه مطلقا هو أن ذلك البطل قد لقى حتفه فى سبيل هذا الوطن • فاستحق من بعد ذلك تقدير الوطن ، واحتل من سجل التاريخ صفحة من ذهب لا يستحقها غير أمثاله من أبطال الوطنية فى هذه الدنيا • والواقع أن أيسر النظر فى حياة ذلك الرجل تظهرنا على أنه كان علما من أمجد أعلام زمانه ، علما وطنيا رائعا قل أن تعرف الدنيا

نظيره ، بناه الله أكرم بناء ، ثم صنع له أخـلاقه من نسيج طيب ، كله وجدان واقدام وايمان وفداء ، فلاينال منه عصف الريح وطالما اشتدعصفها فى أيامه ، ولم تنل منه حفيظة عدو ، وما كان أكثر أعدائه فى هذا الوادى ، ولا مقالة حاسد وقد كان حساده يقفون له بالمرصاد ، ويتربصون به الدوائر ، ويحاولون أن يثيروه ، ويخرجوه من عرينه ليفسدوا عليه حياته ويهدموا عليه بنيانه . ولكن هيهات فان فيه سرا علويا يكفل له ولأمثاله العزة والكرامة فى هذه الدنيا . هيهات وهو الذى وهب نفسه لحياة الجهاد والتضحية والايثار . ثم كفل لاسمه الخلود فى ضمائر الأيام وقلوب الأجيال . وكفانا منه أنه ورث الأجيال من بعده مثلا نبيلا ، وأثرا جليلا ، ثم علمهم كيف يهون الصعب فى سبيل الوطن ، وتبذل الحياة فى سبيل الخلود . وقد كان يستطيع كغيره من الحكام المصريين الذين والوا الهكسوس أن يجيب داعى المستعمر ، فيخلد الى حياة الطمأنينة والدعة والعيش الخفيض . ولو قد فعل لأغدق عليه الزمن من أسباب الرفاهية والرخاء المادى مالا يحصى ولا يوصف ، ولجنب نفسه وأسرته شرور الحروب وأهوالها ، وتجنب ذلك الصدام العنيف الذى أودى بحياته وهو فى ريعان الصبا وشرخ الشباب . ولكن الرجـل خلق ليكون بطلا مجاهدا بل ليكون مثلا رفيعا فى جهاده ، فى مرحلة كانت البلاد فيها أحوج ما تكون الى التضحية . والى تجديد المثل العليا بعد نومة طال أمدها فامتد خمسة أجيال كاملة . وكانت مشيئة الله قد أرادت لهـذا الوطن المصرى ، بل للشرق العربى كله ، نشورا بعد طول خمول ، ونشاطا بعد طول انكماش . ولم تكن صيحة الرجل فى قلب طيبة ولا ماشهده الزمن من احداث جسام تلعبها الأيام على مسرح هذا الشرق العربى ، غير نداء لداعى الشرق المستغيث تهدده خطوات ذلك الخطر الداهم تدفعـه الأيام فى ركاب الحيثيين فى زحفـه الماكر الخـادع على المطمئن الوادع ، وصـولة الباطل المسـلح على الحق الأعزل ، بل صـولة

القوى الجبار الواسع الحيلة والبطش على شعوب أضعفها اختلاف الزعماء وكثرة الشيع والأحزاب . كانت عواصف الخطر تهب على أقاليم الشرق من بعد قريب . وكان حكام الهكسوس يحاولون السيطرة على أقاليم الشرق ، فيرهقونها ولا يكادون يبلغون من أمرهم شيئا . واذا الله يسطر بيده الكريمة فى أفق هذا الشرق العربى بحروف من نور آيات من نصر جعل أولاها جميعا لذلك البطل المصرى . فيها العزة والنجاة للشرق . وفيها المجد الرائع لمصر الخالدة . واذا نظام يسود الشرق العربى كله من وراء ذلك تحت لواء مصر ، أشبه ما يكون بتلك الوحدة العربية التى نادت بها أقاليم الشرق وعقدت لواءها لمصر فى ذلك العصر الحديث .

وكتب الله لذلك البطل المصرى أن يضع فى بناء تلك النهضة حجر الأساس بحياته الغالية ، وأن يسجل على أعلامها أروع آيات البطولة والتضحية بدمه الزكى الكريم . وأصبح من الحق على أبناء الشرق جميعا أن يفخروا بسيرة ذلك البطل العظيم ، وأن ينظروا فيها كلما جدالجد وتحرج الأمر . وبعد فانى أشعر أنه من الحق على وأنا أسجل تاريخ مصر أن أوفى شخصية ذلك البطل حقها من الدرس ، ولكنى أعترف بأننى لم أرزق من قوة الوصف وبيان المنطق والقدرة على دراسة الناس وتحليل شخصياتهم ما يمكننى من ذلك . فأنا أرى فى نهاية الأمر أن شخصية الرجل أكرم وأرفع من أن يبلغها الوصف أو يجليها الدرس .

بطل الثورة الثانى

اذا مات منا سيد قام آخر .·. قؤول لما قال الكرام فعول

وما أكاد أجرى قلمى لاستئناف الحديث عن الثورة، حتى يحضرنى ذلك الشعر العربى فأسجله فخورا بموقف أولئك الأبطال من أجدادنا . لأنه ينطبق تماما على حال المصريين يومئذ . وكأن الشاعر العربى لم ينطق بهذا الشعر

الا ليرسم به صورة من شعور المصريين واحساسهم فى ذلك الوقت البعيد من عهود مصر . فلقد حمل «كاموسى» لواء الثورة بعد سلفه ، وقصة ذلك معروفة على أثر من آثار المصريين يتمثل فى لوح من ألواح أبناء المدارس[1] . يعرف فى كتب التاريخ «بلوح كارنارفون»[2] . تشير أخباره الى أن الملك كاموسى قد ضاق بنفوذ الهكسوس فى مصر ، وكان خطرهم يهدد ملكه من ناحية الشمال . وضاق أيضا بتقدم النوبيين ، وكان خطرهم يهدد ملكه من ناحية الجنوب ، وآية ذلك أن يشتد به الضيق حتى يقلق باله ويقض مضجعه . فيدعو رجال بلاطه وأمراء جنده ليشاورهم فى الأمر . وأقبل الملأ من أولئك وهؤلاء مهللين ومكبرين يملؤون ساحة العرش من حول مليكهم ، ويرددون الدعاء له والاشادة بمجده . ويتغنون بشجاعته ، ويفاخرون ببأسه وقوته ، ويمجدون سلطانه الواسع ، ونفوذه العريض . واذا هو يقطع عليهم صلاتهم ، وكانت كلها ملقا ونفاقا فيقول : « وددت لو أعرف ماذا تجدى على شجاعتى[3] . فهذا أمير يجلس فى أواريس . وهذا آخر يجلس فى النوبة . وها أنا قد أحصرت بين اسيوى ونوبى ، وقد أخذ كلاهما يقاسمنى أرض مصر . وهؤلاء البدو

---

(١) يرجع هذا الأثر إلى مابعد أيام الهكسوس . وأكبر الظن أن سيرة البطل قد احتلت بين الآداب المصرية مكاناً رفيعاً ، وأصبح لزاما على الأجيال أن تدرسها فى مدارس البلاد المختلفة. انظر :

Gardiner, A. & Gunn B. The Defeat of the Hyksos bei Kamose, The Carnarvon Tablet, No. I in journal of Egyptian Archeology III. (1916) p. 95; & V. (1918) 36. ff.

(٢) سمى اللوح بهذا الاسم لأنه آل إلى مجموعة يملكها اللورد كارنارفون . وكان من هواة الآثار المصرية . وهو الذى تولى الانفاق على تلك البعثة التى نقبت أعواماً طويلة فى جبانة طيبة واهتدت أخيراً إلى الكشف عن قبر توت عنخ آمون عام ١٩٢٢

(٣) كان الملك كامس شجاعاً ما فى ذلك شك . ولعل فى حديثه هذا وإقدامه على استئناف الجهاد ضد الهكسوس ما ينهض دليلا واضحاً لذلك . ولقد يظهر أنه كان يعرف ذلك لنفسه فهو قد سجل الإشارة إلى ذلك على بعض سلاحه فكان يضع أمام صوره سبعاً يشير إلى بطشه وشجاعته .

(الهكسوس) قد توغلوا فى البلاد وما كنت أقدر أن يصلوا الى منف ولكنهم أدركوا الأشمونين » .

وظاهر من رد القوم أنهم كانوا يكرهون الحرب ، ويؤثرون العافية . لأنهم زعموا للملك أن سلطان العدو وان امتد الى القوصية (ما بين أشمونين وأسيوط) لا يؤذى سلطانه ولا يعكر عليهم مافى حياتهم من صفو . فبلادهم ما زالت آمنة ورخاء العيش مازال يغمرهم . وأنعامهم ما زالت طليقة ترعى فى أرض الدلتا . والعلف ما زال يصل الى مواشيهم من محاصيل الشمال . فليبق العدو فى حل من شمال البلاد حيث يقيم . وللمصريين بعد ذلك ملك مصر (١)

على أن الملك قد ضاق بهذا القول ، وسخط من رأى أصحابه ، وكره منهم ذلك الضعف المنكر ، وأقسم ليخرجن الى العدو فيبقرن بطنه . لأنه يريد أن يحرر مصر ويضرب الهكسوس . ثم يؤيد عزمه هذا بذلك النداء الحار :

« ألا فليعلم أهل طيبة أن كاموسى سوف ينقذ مصر ، ويحفظها من مهاوى الهلاك . لسوف أخرج الى العدو بأمر آمون ، فهو وحده الهادى سبيل الرشاد » .

خرج كاموسى يحمل لواء الجهاد بعد أن جمع جيشه من خيرة أبناء الصعيد ، وضم اليهم بعض عساكر الحدود من رجال النوبة ، وأخذ يمون جيشه على الطريق من البلاد الواقعة على شواطىء النيل . ثم أخذ طريقه نحو الشمال ، حتى اذا بلغ نفروسى (٢) حاصر أميرها المدعو « تتى بن بى » وكان من أولياء الهكسوس . فما زال به حتى غلبه على أمره ثم خرب مدينته ونهب أرزاقها (٣) . ثم غادرها نحو الشمال . وغالب الظن أن

---

(١) هكذا ورد خبر ذلك فى لوح كارنارفون Journal O.E.A. III & V.

(٢) نفروسى : بلدة كانت تقع فى شمال أسيوط ولا يمكن تحديد مكانها تماما .

(٣) هنا ينقطع الحديث لأن الأثر لم يستطع ادخار بقيته .

يكون قد بلغ فى زحفه حدود الأقاليم الوسطى من ناحية الشمال ثم خلصها جميعا من حكم الهكسوس .

ولما بلغ ذلك ، فكر فى أقاليم الجنوب ورأى خطر النوبيين يهددها . فسار الى أقاليم النوبة ، وأخضع الثائرين من أهلها . وسجل ذلك على صخور تشقا (ما بين الدر وأبو سنبل)[1]

وبعد فتلك سيرة البطل الثانى من أبطال الثورة المصرية كما سجلتها آثار المصريين . تكاد حوادثها تملأ الوادى فخرا منذ قومة البطل الى يومنا هذا . ولست أخفى على القارىء أننى لاأكاد أغادر تلك السيرة دون أن أتذوق لحوادثها بعض المرارة ، ودون أن أتصور ما نزل بنفس ذلك البطل الكريم من آلام محرقة ملأت قلبه فآذته وأضنته ، ولعلها عجلت بوفاته فودع الدنيا ولما يبلغ من آماله بعض ما أراد.فليس أبغض الى نفس الكريم من أن يجود بنفسه فيخذله الناس ، وليس آلم لنفس الحر من أن يقدمها ضحية وقربانا لوطنه ولا يسمع فى نفوس أنصاره لذلك صدى أو يحس له أثرا .

بمثل هذه الروح السامية يتوجع ملك مصر من حال البلاد وما أصابها من شرور الاستعمار وهوان المذلة . وبمثل هذه النفس الكبيرة الأبية يأبى ذلك الحاكم الشجاع أن يعيش وطنه تحت راية الاستعمار . وبمثل هذه الديموقراطية الصحيحة المحبوبة يدعو ملك مصر من دعا من أمراء جنده ورجال بلاطه ليسترشد برأيهم ويهتدى بهديهم . وليتدبر معهم أمر البلاد وتخليصها من عار الضعف وهوان المذلة .

وبمثل تلك النفوس القانعة الضعيفة الذليلة يخذل الناس مليكهم فى أشد المواقف وأعظمها خطرا على حياة الأمة المصرية . بمثل هذا الضعف

---

(١) وجد اسمه على صخرة هناك فوق اسم أخيه وخليفته أحمس . على أننا لا نكاد نحقق اخوة الملكين تحقيقاً يبعد عن الشك .

المخجل يرضى رجال البلاط عن حياة الذل ، ويكتفون منها بذلك الرخاء المادى الذى جنى على نفوس المصريين فأذلها واستعبدها • ويا طالما أذلها واستعبدها فى مختلف عصور التاريخ • استعبدت أوروبا هذا الوطن المصرى بعد أن اشترى ساستها ومرابوها وزراء الدولة بالمال على عهد اسماعيل • وليس عصر الذهب المسموم من أيام كرومر ببعيد • وليس بين المصريين من لايذكر ذلك العهد البغيض الذى نكب فيه الاستعمار الأمة المصريةفقتلها أو كاد • وأصاب العقل المصرى فأضعفه وأذله ، وأصاب النفس المصرية فحطمها وجعلها ترضى بصغائر الأمور •

وبعد فانى أعتذر الى القارىء الكريم حين أتنقل به هذه النقلة البعيدة • فأنا لاأكاد أصور مأســاة البلاد قبل ٣٧ قرنا دون أن أتمثل مأساتها الحديثة قبل ستين عاما • فما زالت ذكرى الاحتلال المرذول من أواخر القرن الماضى تطالعنا بمثل تلك الشخصيات القانعة الذليلة الحقيرة • وما أظن أحدا من أبناء هذا الجيل قد نسى أولئك الذين مهدوا السبيل للمحتلين، وأعانوهم بعدذلك على رفع راية الاحتلال، فاستحقوا بذلك تقدير الانجليز ، وأصبحوا لهم عمالا مأجورين وخداما غير مشكورين • وأغدقت عليهم الثروات الضخمة ، وفازوا بأعلى الرتب والمناصب • ونسى الشعب المصرى كل هذا ، لأن الدولة لاتتيح له التفكير فى مثل هذه الأمور ، بعد أن سلطت عليه جيوش الفقر والمرض والجهل ، فأحاطت به وضيقت عليه فما يكاد يفر منها الا الى الموت •

ونعود الآن الى بطلنا الثــانى لنسمع حديثه عن الحرب اذ يقول : « واتخذت طريقى الى الشمال على متن النهر لأرد الاسيويين بأمر آمون واندفع من أمامى جيشى الشجاع اندفاع اللهب من سعير النار ودارت رحى الحرب حول نفروسى من مدائن مصر الوسطى ، وعليها حاكم من أولياء الهكسوس • فلم أترك له فرصة الافلات ولم أزل حتى رددت العدو وأمضيت ليلتى مغتبطا على احدى سفائنى • ولما كان اليوم الثانى حومت فوق عدوى كالصقر ، وما كاد وقت الصباح يتولى حتى كنت قد هدمت

أسواره وحصونه • وقتلت رجاله ، ثم سقت زوجه أسيرة الى الشاطى • وعاد عساكرى كالأسود ، فرحين بما غنموا من رجال وأنعام وأدهان وعسل وأخذوا بعد ذلك يقسمون بينهم الغنائم » •

والى هذا الحد ينقطع حديث الملك لأن الأثر لم يستطع ادخار ما بقى منه • على أنه لا يستبعد مطلقا أن يكون «كاموسى» قد استمر فى زحفه حتى طهر الأقاليم الوسطى من شمال أسيوط حتى منف • ونستطيع بعد ذلك أن نقدر أن الهكسوس قد ارتدوا الى الشمال واعتصموا بحاضرة ملكهم « أورايس » ومن حولها كانت خواتيم تلك الحروب على أرض هذا الوادى ، التى انتهت باخراج الهكسوس • الا أن كاموسى لم يشهد من ذلك شيئا ، لأن المنيــة قد عاجلته ولمــا يبلغ من تحقيق آماله كل ما أراد •

أحمس الأول ونصيبه من الجهاد

رأينا فى سيرة الملك كاموسى • كيف أنه كان عظيم الأمل فى النصر ، صادق العزم على مواصلة الجهاد ، قوى الايمان بذلك الظفر الذى يحقق أمله فى الحرية والاستقلال • على أن الله قد شاء — فيما يظهر — أن يقسم آيات النصر والبطولة بين أفراد البيت جميعا ، وأن يوزع الشرف بينهم توزيعا عادلا ، راعى فيه أمراء البيت رجالا ونساء • فكان من نصيب أولهم أن رفع راية الجهاد ثم سقط فى فجره بعــد أن رسم له الطريق السوى بدمه الغــالى • وكان من نصيب الثــانى أن يحمل الراية بعد سلفه ، ثم يمضى وجهه بعزمة البطل وايمان النبى • وظل يقاتل حتى رد الهكسوس الى وكرهم فى أطراف الشمال من أرض الوادى ، ولم يبق أمامه بعد ذلك الا أن يسوق العدو من وراء الحدود المصرية الى أرض الميعاد • ولكن جاء أجله فكتب الله ذلك لأخيه الصغير ، وخليفته من بعده : الملك أحمس الأول • فسطر فى سجل الجهاد خاتمة الكتاب ، وضرب

العدو ضربة تركته من بعدها صريعا يعانى آلام الاحتضار ليودع على أثرها دنيا الحكم والسياسة والحرب والنصر والهزيمة الى يوم القيامة. وسهمت أميرة هذا البيت الملكة «اياح حتب» فى كل ذلك . فهى قد جاهدت مع زوجها ، وجاهدت الى جانب خليفتيه من بعده كاموسى وأحموسى . وليس يكفى التاريخ أن يجعل منها أم بطلى الجهاد من بيت طيبة ، بل من الحق عليه أن يجعل منها أم المصريين جميعا . تسلم أحموسى زمام الحرب بعد وفاة سلفه . وحمل لواءها مندفعا نحو الشمال ، وأخبار القتال فى أيامه معروفة ؛ دونها أحد رجاله ويدعى أحموسى أيضا فى قبر له بجبانة الكاب . وكان أحموسى هذا أميرا لاحدى سفائن أسطول النقل الحربى فى ذلك العهد ، ورث ميله الى أعمال الحرب والقتال عن أبيه الذى كان جنديا أيام الملك «سقنن رع» .وورث منصب أبيه فى أمارة سفينة يقال لها «الفحل البرى» . حدثنا ذلك القائد أنه اشترك فى حروب المصريين ضد الهكسوس . وأن الملك قد أعجب به وأظهر من شجاعته وحسن تصويبه ، فرقاه الى أمارة سفينة تدعى « المشرق فى منف » ؛ حارب فيها على المياه المحيطة بأواريس والقريبة منها. فقتل وغنم مما حمل الملك على مكافأته بالذهب[1] أكثر من مرة . ثم يحدثنا عن سقوط « أواريس » وهى آخر ملاجىء الهكسوس فى هذا الوادى .والظاهر أن القتال لم يشتد بين المصريين والهكسوس . وانما اضطرت قوات الهكسوس الى مغادرة أواريس بعد تضييق الحصار عليها . فاتخذوا طريقهم فى الصحراء الشرقية ، باحثين عمن يمكن محالفتهم من أمراء آسيا . على أن الملك أحموسى قد تبعهم بجيشه حتى لحق بهم عند

---

(١) كان ملوك مصر يكافئون الابطال من أمراء عساكرهم بالذهب ، وكانوا يسمونه «ذهب البطولة » تارة على هيئة حلقات عريضة مستديرة . وأخرى على هيئة الذباب . وأكبر ظنى أن المصريين قد عاينوا ما فى الذباب من طبيعة الإلحاح، فهو لا يطرد حتى يعود . والغالب أن يكون الناس فى تلك العهود قد كانوا يتمنون لعساكرهم أن يرزقوا طبيعة الإلحاح فلا يحملون على فرار حتى يعودوا الى الكر .

حصن فى جنوب فلسطين يقال له « شاروهين » كانوا قد لجأوا اليه ، وتحصنوا به . فضيق عليهم الحصار ثلاثة أعوام كاملة حتى اضطروا الى الجلاء عن الحصن . وشتت الله شملهم فى أقاليم الشرق .

هذا وبين أخبار « مانتون » التى نقلها الكاتب اليهودى يوسف مايحدثنا عن اخراج الهكسوس من مصر . واذا كان من الحق علينا أن ننظر فى أخبار ذلك الكاتب ، فمن حقنا أيضا أن ننظر فيها بعين الشك والريبة . فهو كأكثر كتاب زمانه لم يتحر الصدق والواقع . وكان فوق ذلك يهوديا ، وقف يدافع عن اليهود ، ويدفع عنهم ما رماهم به « أبيون » النحو السكندرى . فاتخذ من حطام « مانتون » تكئة للدفاع عن جنسه . ثم حرف ما نقل لحاجة فى نفسه . وأكبر الظن أنه حاول أن يخلط بين الهكسوس واليهود ، ليجعل من قومه أبطالا فاتحين لاعراة لاجئين . وجعل انتصار المصريين على الهكسوس وجلاء هؤلاء عن مصر على أيدى التحامسة . وعد من رجال الجيش المصرى الذين ضربوا الحصار حول حاضرة الهكسوس مائتين وأربعين ألف (٢٤٠٠٠٠) محارب . وحاول أن يصور عجزهم عن اقتحام حصون الهكسوس . ثم أجرى بين المصريين والهكسوس مناورات ومشاورات انتهت بعقد معاهدة بين الفريقين ، يغادر الهكسوس بمقتضاها مصر دون أن يمسوا بسوء ، لينزلوا حيث يشاءون من أقاليم الشرق القريب . وهكذا غادر الهكسوس مصر الى سوريا عن طريق الصحراء بعتادهم وقواتهم التى لا تقل فى رأيه عن مائتين وأربعين ألف نسمة .

ومهما يكن من شىء ، فالأمر الذى لا شك فيه مطلقا هو أن الهكسوس قد غادروا مصر فى عهد « أحموسى الأول » الذى يعده التاريخ رأس الأسرة الثامنة عشرة من ناحية ، وواضع حجر الأساس فى بناء الامبراطورية المصرية من ناحية أخرى .

ولم يكد أحموسى ينتهى من أمر الهكسوس ، حتى دعاه داعى الحرب

الى جنوب الوادى . فكر راجعا الى أقاليم النوبة وكان أهلها قد استغلوا محنة المصريين أيام الهكسوس فانسلخوا من بناء الدولة المصرية وانشقوا على المصريين ، وخربوا حصونهم ومنازلهم فى أقاليم النوبة .

حدثنا أحموسى أمير البحر . أنه رافق الملك فى حملته على بلاد النوبة ثم عن ضرب المارقين من زعمائها ، وعن اشتركه فى القتال وحسن بلائه فيه ، مما جعل الملك يكافئه بالذهب والعبيد مرة أخرى .

ولما انتهى الملك من حروب النوبة عاد الى مصر عالى الرأس مرفوع الجبين وبيده لواء الحرية فرفعه على هام طيبة ، واتخذ عرشه فى قلبها ، وجعل منها عاصمة للدولة المصرية . وهكذا أشرقت عليها الشمس من جديد . وتطلعت طيبة الى الأفق البعيد ترقب حظها تحدوه الأيام فى ركاب المجد من بعد قريب .

صدى حكم الهكسوس فى سمع الزمن

وأثره فى توجيه سياسة الدنيا على ضفاف النيل

وفى أقاليم الشرق القريب

سقطت حكومة الهكسوس ، وغاب سلطانهم من عالم الوجود ، بعد أن خيم فى مصر قرنا ونصف قرن ، متخذا من شمال الدلتا الشرقى قاعدة لعرشهم . ولقد كان سلطانهم — أكبر الظن — واسعا عظيما . فهم قد جعلوا حاضرته من مصر فى شرق الدلتا ، مابين الصحراء والوادى ، ليكونوا من صحراء العرب — وهى طريقهم الى بقية أملاكهم فى الشرق الأدنى — على بعد يسير .

ولعل شأنهم فى ذلك أن يكون كشأن العرب عندما فتحوا مصر ، فأقاموا حاضرتهم على شاطىء النيل الأيسر [1] من تجاه منف . وفى المكان

---

(١) قد يبدو ذلك التعبير غريباً فى عين القارىء ، لأنى جعلت الفسطاط على شاطىء =

المعروف باسم الفسطاط • والواقع أن العرب لم يمدوا أنفسهم الى مصر ، الا بعد أن اتسع ملكهم فى الشرق • واتجهت أيامهم فى ركب التاريخ الذى أخذ يسير بالدولة العربية مسرعا فيحدوها الى عرش الامبراطورية الاسلامية •

ومن المرجح أن يكون الهكسوس قد سيطروا على كثير من أقطار الشرق القريب قبل أن يمتد سلطانهم فيغمر هذا الوادى المصرى ، وان ملكهم فى أول عهدهم بالحكم والسلطان قد كان واسع المدى عريض الآفاق ، ولن يبدو ذلك غريبا ولا عسيرا أيضا اذا ماذكرنا حال أقاليم الشرق واضطرابها بالفتن الداخلية والخارجية من جراء هجرة الشعوب الآرية التى وهنت عزيمة الشرق ، وتصورنا دفعة الهكسوس بخيولهم وأسلحتهم وسط أقاليم الشرق المضطربة •

وبين ألقاب حكام الهكسوس ما يشير الى اتساع ملكهم ، ولعل سلطانهم أن يكون قد بلغ مداه أيام مليكهم « خيان » • فلقد تعدت شهرته وادى النيل ، ووجدت آثاره فى سوريا وفلسطين وبابل وبعض جزائر بحر الروم • معنى ذلك أن نفوذ الهكسوس أو امتيازهم السياسى على الأقل، قد أظل الشرق وأظل معه جزائر البحر • فان اسم مليكهم خيان قد وجد على قطعة من رخام فى جدار أحد القصور من «كنوسوس» عاصمة جزيرة كريت •

كيف توثقت العلاقات بين مصر وكريت

ويستطيع المؤرخ بعد ذلك أن يدرك السر فى تلك الصلات التى اشتدت أواصرها وتوثقت عراها بين أهل كريت وبين أبطال الحرية

= النيل الأيسر . وأنا إنما قلمت ذلك جرياً على عادة السلف من سكان هذا الوادى . فهم قد نظروا إلى منبع النيل وهو معين البر وخالق الحياة المصرية جميعاً . فوقع الغرب على يمينهم فأسموه « يمين » وغدا الشرق بعد ذلك شاطىء الوادى الأيسر .

من أمراء طيبة ، ابان ثورة الاستقلال التى أشعلوا نارها حول ملك الهكسوس • وليس عجيبا فى حوادث التاريخ بعد ذلك أن يقوم أهل جزائر البحر بامداد المصريين برجال الحرب وسلاحها عندما أخذوا يديرون رحاها على عرش الرعاة •

كذلك لن يصبح من نسج الخيال وصرفه ، مافكر فيه بعض المؤرخين من أن الملكة « أياح حتب » روح ثورة الاستقلال ، وزوجة بطلها الأول ، وأم بطليها الأخيرين ، بل أم المصريين جميعا ، قد تزوجت من ملك جزيرة كريت • فأصحاب هذا الرأى انما يعتمدون فى زعمهم على أن تلك الملكة قد كانت تدعى « ربة الجزائر » • وهى لن تكون فى نظرهم خليقة بهذا اللقب الا اذا كانت تحت من يقوم على حكم الجزائر • على أننى لا أكاد أرى فى حكم المروءةولا فى حكم الانسانية ، والاعتراف بالجميل ، وتمجيد البطولة والاعجاب بالأبطال ، بل ولا فى حكم سياسة الزمن يومئذ ، ما يمنع من أن تحمل بطلة كهذه لقب «ربة الجزائر» دون أن تكون زوجا «لرب الجزائر» . بل اننى لا أستبعد مطلقا أن يكون أهل الجزائر أنفسهم هم الذين خلعوا على تلك البطلة ذلك اللقب مخلصين معجبين • ولا غرابة فى ذلك فهم ولاشك قد كرهوا حكم الهكسوس وضاقوا به كما ضاق به المصريون • وهم قد كانوا ولا شك تواقين الى الحرية ، نزاعين الى الاستقلال ، وكانوا والمصريين سواء فى نكبة الاستعمار وهو ان المذلة • ثم وجدوا فى المصريين أقوى معين على الخلاص من رق الاحتلال • فسهموا بالرجال والسلاح فى كسر شوكة الهكسوس والافلات من قيودهم الثقيلة ، ورأوا جهود بطلة المصريين موفقة فى هذه السبيل ، وعرفوا قدرها فى نفوس المصريين ، ومكانها فى المجتمع المصرى ، وتقديس الشعب لذاتها الكريمة ، فاذا غدا من حقها بعد ذلك أن تحمل كل صفات البطولة وألقاب الشريف والتعظيم ، فقد أصبح من دواعى التقدير والاعتراف بالفضل أن يخلعوا عليها ذلك اللقب دون أن تكون زوجا لأميرهم •

ولاء المصريين لبطل الاستقلال

سكر المصريون بنشوة الظفر بعد عناء الجهاد ، وتذوقوا حلاوة الحرية بعد مرارة الذل . وفازوا بنعمة الاستقلال وجلاله بعد أن أمسكتهم قيود الاستعمار خمسة أجيال كاملة . فأخذوا يشيدون بمفاخر ذلك البطل الذى رزقهم نعمة الحرية ، ورد عليهم جلال الاستقلال ، وألقى عليهم وعلى وطنهم أردية من العزة والكرامة ، وباتوا يحفظون لبطل استقلالهم أصدق الشكر وأجمل الولاء ، ويدخرون له ولاهل بيته من أبطال الحرية أحسن الذكر . ومن المرجح أن يكونوا قد رددوا فى ذلك كله صدى ذلك التقدير عند أهل الجزائر أيضا .

ولعل حال مصر وماجاورها من الأقاليم أيام الهكسوس قد كانت أشبه شىء بحال مصر ومن جاورها من شعوب البحر الأبيض أيام سلطان الرومان . ولعل نظرة جيران مصر الى أبطال الحرية من أمراء المصريين قد كانت أشبه شىء بنظرة المصريين ومن جاورهم الى العرب الذين خلصوا الناس من حكم الطاغوت الرومانى . وأشعروهم برحمة الانسانية وبرها .

ازدياد الصلة بين مصر وكريت وأثر كل منهما فى حياة الأخرى

وتزداد الصلة بين مصر وكريت ، وتتأثر كل منهما بالأخرى ، ويبدو ذلك الأثر واضحا قويا فى بعض نواحى الحضارة والفنون المختلفة ، وأمثلة ذلك ظاهرة فى بعض صناعة السلاح والحلى من أيام «أحموسى وكاموسى» وأمهما الملكة « أياح حتب » ابان الثورة على الهكسوس .

فهذا خنجر للملك أحموسى ، يحمل اسمه بحروف من ذهب ، ومن حول ذلك رسوم تمثل بعض طوائف الوحش فى طبيعة جبلية على نحو ما تمثل الوحوش فى فنون جزيرة كريت ، وعلى نحو ماوجد على بعض السلاح فى تلك البقاع .

والشيء الذى لاشك فيه هو أن خنجر الملك قد صنع فى مصر ، وصاغه صانع مصرى . ولكنه نحا فى صياغته نحوا لم يكن مألوفا فى مصر من قبل ذلك العهد . وفى ذلك من غير شك أثر من ارتباط سكان جزائر البحر بالمصريين ارتباطا أقل مايمكن أن يقال فيه أنه كان وثيقا . فسلاح الجزائر قد انتشر فى مصر إبان ثورة الاستقلال . وشواهد تأثر الفنون المصرية بفنون جزائر البحر لم تقتصر على ما قدمنا من مثل، وانما تعدته الى أمثلة أخرى . وكما تأثر الصـــانع المصرى بفنون جزائر البحر ، بدا أثر الفن المصرى واضحا كذلك فى فنون تلك البقاع .

فلقد وجد فى قبر أمير من أمراء الجزائر مقبض لخنجر ، صاغه صانع من أهـــل الجزائر ، ونحا فى صياغته نحوا مصريا واضحا . فمثل فى رسومه بعض نواحى الطبيعة فى وادى النيل ؛ مثل فيه أسماك النهر وما ينبت على شاطئيه من نبات البردى وأحراشه . وصور فى تلك الأحراش ما كان يأوى اليها من هرر برية وهى تطارد فيه بعض الطير .

فراعنة الوادى يستخدمون جنودا من جزائر البحر

وتأخذ الصلة بين البلدين فى الزيادة ، فما نكاد نبلغ أيام « أمنوفيس الثالث » من ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، حتى تحدثنا بعض الوثائق التاريخية من رسائل العمارنة عن استخدام جنـــود من الشردانين فى احتلال بعض الأقاليم السورية . وما تجيء أيام «رمسيس الثانى» من ملوك الأسرة التاسعة عشرة حتى يصبح استخدام أولئك الجنود فى الجيش المصرى أمرا عاديا .

وأكبر الظن أن يكون استخدام الجنود من جزائر البحر قد عرف منذ حرب الاستقلال وقومة الامبراطورية المصرية من أوائل أيام الدولة الحديثة . بل ليس يستبعد أن يكون بطل الاستقلال قد استخدم بعضهم فى حروبه ضد الهكسوس . فيكون مثله فى ذلك مثل «أبسماتيك» عندما

استعان بجنود من الأيونين ، أرسلهم اليه ملك ليديا أيام تحرير البلاد من نير الاشوريين • وكان أولئك الجنود من جزائر البحر • وكان سلاحهم الخنجر ، بينما كان سلاح المشاة من عساكر المصريين الرمح والفاس • وكانت دروع جند الجزائر مستديرة • وعلى رؤوسهم خوذات ذات قرون تشبه الأهلة • وكانوا مردا ذوى وجوه مستطيلة وتقاطيع حادة وقامات مديدة • وكان موطنهم جزائر بحر ايجه • وغالب الظن أن يكونوا من جزيرة سردينيا •

أثر الهكسوس فى نهضة مصر أيام الدولة الحديثة

من رأى المؤرخ الألمانى العظيم « ادوارد ماير » ، أن حكام الهكسوس قد هاجروا من سوريا الى وادى النيل ليتخذوا من شماله قاعدة لحكمهم حينما ضاقت عليهم الأرض فى أقاليم الشرق القريب بسبب هجرة الآريين التى وقعت فى القرن الثامن عشر قبل مولد المسيح • ولعل رأيه فى ذلك أن يكون أصدق آراء المؤرخين جميعا • ولقد كان لهجرة تلك القبائل الآرية أثرها الخطير فى توجيه سياسة الأقاليم الاسيوية فى بلاد الشرق الأدنى من ناحية وفى تغيير وجه الدنيا على ضفاف النيل من ناحية أخرى • ولعل أخطر آثار تلك الهجرة أنها غيرت مجرى السياسة فى الشرق • وغيرت فوق ذلك مستقبل الحرب يومئذ فى هذه الدنيا • فهى قد ساقت الخيل فى ركاب المهاجرين الى بلاد الشرق • ومن المرجح أن يكون البابليون قد عرفوا استخدام الخيل فى القرن التاسع عشر قبل مولد المسيح أو بعد ذلك بوقت قصير • ثم شاع استخدامها على أثر ذلك فى الأقاليم السورية تقليدا للآريين والحيثيين • ثم بلغت الخيل مصر من وراء ذلك بعد أن شاع استخدامها بين قبائل البادية من الأعراب • ويكاد اسم الحصان على غرابة أصله واشتقاقه أن يكون واحدا فى أقاليم الشرق المختلفة • فلا يكاد يختلف الا بمقدار مايقوم بين لهجات القبائل والأقاليم المختلفة من فروق

يسيرة • فاسمه فى لغات بابل وآشور « سيسو » وفى لغة كنعان والعبرانيين « صوص » وفى لغة المصريين « سسمة » •

وظلت شعوب الشرق قرونا طويلة لاتعرف ركوب الخيل على نحو ما نركبها اليوم الا فى حالات نادرة جدا • وانما كانت تستخدم فى جر عجلات الحرب • وغالب الظن أن يكون الآريون هم أول من استخدم تلك العجلات ، وعنهم أخذ الاسيويون من شعوب الشرق القريب • ومن تلك الأقاليم دخل بها الهكسوس الى مصر عند ما أغاروا عليها حوالى عام ١٧٣٠ قبل مولد المسيح • فاذا الله يدخر من ذلك السلاح الذى طعنت به الأيام مصر على أيدى الرعاة ، أقوى معين على اخراجهم منها بعد قرن ونصف قرن • لا ليقيموا عرشهم فى اقليم آخر من هذه الدنيا • وانما ليزول سلطانهم تماما من عالم الوجود ، كما شاء الله أن يجعل من ذلك السلاح أقوى عامل فى بناء الامبراطورية المصرية التى امتد نورها الى أطراف الدنيا جميعا • أثر ذلك السلاح الجديد فى تقدم الحرب ؛ فكان الراكب يطوى به الأرض طيا سريعا ؛ حين الزحف وعند الهجوم • وينهى به الكفاح فى أقصر وقت ممكن • ومناظر الحرب على جدران المعابد المصرية ؛ تصور لنا هول الزحف والغارة ، وروعة الهجوم بعجلات الحرب تكاد جياد الخيل أن تطير بها من فوق الأرض ومن فوقها الفوارس من نبلاء الوادى وأمرائه يتقدمهم فرعون تكاد الأرض من تحته أن تزلزل زلزالها •

ولقد أثرت سرعة الحرب وسهولة الهجوم والزحف فى سياسة الدنيا وفى أحوالها الاقتصادية • وكان من جراء ظهور عجلات الحرب أن تخلف عسكر المشاة ، وأصبح للخيالة المقام الأول فى دنيا الحرب والغارة • وتقدمت صناعة السهام • وراجت أسواق الرماة • وكثر اقبال الأمراء والنبلاء ووجوه الأقاليم فى مصر وما جاورها من أقطار الدنيا على ممارسة الرياضة العسكرية ، والتمرن على قيادة الخيل وترويضها وفهم طبيعتها اقبالا عجيبا • وكانت الروح العسكرية فى مصر

قد انتعشت انتعاشا لم تسمع به الدنيا من قبل . ونهضت مصر نهضتها الحربية والسياسية فى آن واحد . وأصابها التوفيق فى بناء الامبراطورية المصرية على أساس التوسع فى الفتح والغـارة وتأمين الحدود المصرية وضمان سلامتها ، ثم فى انشاء ذلك الحلف بينها وبين أقطار الشرق اتقاء لخطر الحيثيين . وانتشرت فى مصر صناعات الحرب المختلفة . وكانت منف عاصمة الديار الحـربية طوال أيام الامبراطـورية أقوى دعامة فى هيكل الامبراطورية جميعـا . واندفع الناس من جميع الطبقـات فى خدمة الجيش وفى مقدمتهم أمراء البلاد ونبلاؤها وأعيانها اندفاعا أزعج أصحاب الآداب والعلوم والفنون المختلفة . وأكثرت الحكومة من ترغيب الشعب فى الخدمة العسكرية بكثرة ما أعطت البارعين منهم من منح الأرض والذهب وألقاب التشريف والبطولة . وسمت روح المصريين المعنـوية سموا عجيبا . وامتلأت نفوسهم بتلك الكبرياء المحبوبة التى تملأ عادة نفوس النبلاء من قواد الجيوش وأمرائها ، وبات المصريون يشعرون بأنهم سادة الدنيا وأمراؤها ، وأصبح لمصر أدب حربى رائع زاد فى ثروة البلاد الأدبية .

ثم أثرت الحرب فى عقيدة المصريين وثقافتهم الدينية ، فخلعوا على كثير من أرباب البلاد ألوانا عجيبة من صفات أبطال الحرب والغارة . وفى مقدمتها آمون سيد طيبة ورب أرباب الأقاليم المصرية جميعـا . كما أصبح «منتو» رب طيبة اله للحرب عند المصريين ، وكانت الدنيا قد هيأته لذلك من قبل[1] . كذلك جعل المصريين من معبودهم القـديم « ست » اله للحرب بعد ما كان من أمر مساواته بأله الساميين « بعل » . ودفعت النهضة الحربية الجديدة فراعنة مصر الى الاقبال على تمجيد آلهة الحرب الاسيوية فأقبـلوا على رعايتها ونقـلوا عبـادتها الى مصر ، وأقاموا لها دور العبـادة فى عواصم الوادى . وعرفت مصر من ذلك الوقت عشتارة وعناة ورشب .

أحمد بدوى

(١) أعنى منذ ان انتصر تحت رايته ملوك الأسرة الحـادية عشرة ، فأعادوا على مصر حكومتها المتحدة .

موقف ألمانيا إزاء المسألة المصرية

١٨٧٦ — ١٩١٤

مقدمة :—

هذا البحث مبنى الى حد كبير على الوثائق السياسية الألمانية التى نشرتها الحكومة الألمانية فى مجموعة Grosse Politik der Europaïschen Kabinette وذلك عقب انتهاء الحرب الكبرى الأولى .

ولقد خصصت فصول من هذه المجموعة للمسألة المصرية ، وقيمة هذه الفصول كبيرة دون ريب اذ أنها تستعرض موقف الحكومة الألمانية بازاء المسـألة المصرية بصفة عامة وحيال العلاقات الانجليزية المصرية بصفة خاصة . وتكثر الوثائق بطبيعة الحال فى الأوقات التى ثارت فيها مسألة مصر بحيث أصبحت محط أنظار الدول ، وذلك حين هاجت المسألة الشرقية وحين احتدمت الأزمة الاستعمارية .

ولا يوجد فى هـذه الوثائق بصفة عامة تعارض مع وثائق وزارة الخارجية الانجليزية المودعة فى ألPublic Record Office الى سنة ١٨٨٦ ولا مع ما نشرته الحكومة الانجليزية من كتب زرق Blue Books ، ولا مع ما نشرته الحكومة الفرنسية من وثائق (عقب الحرب الكبرى الأولى) فى مجموعة Documents Diplomatiques Français

ولذا فقيمة هذه الوثائق الألمانية جوهرية فى كل الدراسات التاريخية والسياسية التى تتعلق بموقف ألمانيا وموقف الدول العظمى نحو مصر عقب سنة ١٨٧٥ . ولا ريب فى أن الوثائق الدبلوماسية التى نشرتها

الحكومتان الانجليزية والفرنسية تكمل هذه الوثائق فيما يختص بهذا الموضوع ، ولذا فليس للباحث غنى عنها .

كما أن هناك بعض كتب وبحوث حديثة فى التاريخ الأوربى المعاصر لا معدى للباحث عن الرجوع اليها وقد أشير اليها فى ذلك البحث .

لقد كانت مسألة مصر فى أول الأمر مرتبطة فى ذهن المستشار الألمانى بزمرك (Bismarck) بمسألة بقاء الدولة العثمانية ومصيرها ، ولم تكن سياسة بزمرك فى السنوات العشر التى تلت سنة ١٨٧٠ سياسة المحافظة على كيان هذه الدولة أو سلامتها ، فلقد صرح مرارا فى أحاديث متعددة له حين ثارت المسألة الشرقية ثورتها العنيفة فى سنة ١٨٧٦ بأن ليس للحكومة الألمانية مصالح مهمة تدعوها للتدخل فى شئون الدولة العثمانية ، وأنه لايرثى لحال مسيحي هذه الدولة أو مسلميها على السواء ، فمصير الدولة العثمانية كما قال مرة متهكما لا يدعوه لأن يبذل فى سبيله دم جندى بروسى واحد ، وأن كل ما يهمه فى هذه الأزمة المستحكمة المعقدة المصاعب هو أن يضع نفوذه العظيم فى خدمة أصدقائه وليست الدولة العثمانية واحدا منهم .(١)

وبزمرك هو الذى دعا الانجليز لأخذ مصر ، وهو الذى عمل على تثبيت أقدامهم فيها ، وعضد سياسة الاحتلال فى سنة ١٨٨٢ ، فأيد انجلترا تأييدا لا تشوبه شائبة ، ونصرها نصرا مبينا ، وجعل من مسألة مصر وسيلة قوية لربط انجلترا بدول التحالف الثلاثى ، ذلك التحالف الذى كونه من ألمانيا والنمسا والمجر وايطاليا للمحافظة على مركز ألمانيا المتفوق فى أوربا .

ولقد اتبع هذه السياسة بصفة عامة خلفاؤه كابريفى (Caprivi) ومارشال (Marshall) .

اهتمت الحكومة الامبراطورية الألمانية لأول مرة بالمسألة المصرية حين

---

(١) الوثائق الألمانية بيلوف Bülow وزير الخارجية الألمانية إلى منستر Münster السفير الألمانى فى لندن ٤ يناير سنة ١٨٧٦

ثارت المشكلة الشرقيــة فى أوائل الربع الأخـير للقرن التاسع عشر ، فالمستشار الألمانى يرى أن مسألة مصر جزء من هذه المسألة لا ينفصل عنها ، وهو يهتم بالمسألة المصرية لالقيمتها فى ذاتها ، أو لمصالح ألمانيا فيها، وانما هو يهتم بأمور مصر كوسيلة يسترضى بها الحكومة الانجليزية التى مابرحت تنظر الى ألمانيا بعين الحسد والحقد وتخاف شوكتها فى أوربا ، ولذا فهو فى أول فرصة ينعى على الحكومة الانجليزية عدم استغلالها لهذه الأزمة الشرقية ، لهذه الفرصة الثمينة فى نظره ، ويرى أنه ينبغى لها الآن أن تفكر جديا فى أخذ نصيبها من الأسلاب التى تجمعت نتيجة لتــدهور الدولة العثمانية وضعفها المتزايد ، ويرى أن خير مكان وأنسب بقعة تستطيع أن انجلترا أن تذهب اليها هى وادى النيل .

فهو قــد اقتنع تماما بضرورة تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بين أصدقائه من الدول الكبرى ، ورأى فى هذا التقسيم خير طريق للمحافظة على السلام فى أوربا وعلى السيطرة الألمانية فيها ، فتأخذ صديقته النمسا والمجر البوسنة والهرسك ، أى تسيطر على غربى البلقان تقريبا ، وتهيمن روسيا على شرقيه ، وتنفذ بنفوذها الى المضايق البوسفور والدردنيل ، وتضم انجلترا مصر بالاتفاق مع فرنسا . فمصر بموقعها الجغرافى الممتاز ومواردها الغنية كافية لأن تعوض انجلترا عما تقطعه روسيا من ممتلكات الدولة العثمانية فى البلقان . ولم يكن المستشار الألمانى يهدف الى خلق سوء تفاهم من فرنسا وانجلترا من أجل مصر ، وليس صحيحا من الناحيــة التاريخية ما يزعمه الأستاذ سيتون واطسون Seton-Watson ، أستاذ الدراسات الصقلبية فى جامعة لندن ، من أن بزمرك أراد من وراء هذه السياسة أن يصيب عصفورين بحجر واحد : ارضاء انجلترا من ناحية ؛ وافساد العلاقات الانجليزية الفرنسية من ناحية أخرى[1]، فسيظهر من خلال ذلك البحث أن بزمرك فى ذلك الوقت (من سنة ١٨٧٧ الى سنة ١٨٨١) كان مخلصا فى العرض الذى قدمه للحكومة الانجليزية ، وأنه فى نفس

(١) فى كتابه Disraeli and Gladstone and The Eastern Question ص ٣٠٩

الوقت كان يعمل على خلق جو من التعاون السياسى بين الدولتين الغربيتين خارج حدود القارة الأوربية .

حرص بزمرك حرصا كبيرا على أن يوجه نظر الحكومة البريطانية الى انتهاز هذه الفرصة ، فرصة قيام المسألة الشرقية ، ففى مذكرات له سطرها لوزارة الخارجية الألمانية فى خريف سنة ١٨٧٦ يرى أنه اذا استشير فيما يجب أن تكون عليه سياسة انجلترا الخارجية فانه يقترح أن تنتهج بريطانيا العظمى نفس السنن الذى تنتهجه روسيا ، فاذا كانت روسيا تريد أن تستحوذ على النقط الاستراتيجية اللازمة لها بالسيطرة على المضايق البوسفور والدردنيل والاشراف على الاستانة ، فعلى الحكومة الانجليزية أن تقابل ذلك بالسيطرة على مصر وقناة السويس ، فهو اذن يرى أن يكون موقف انجلترا فى وادى النيل موقفا مشابها لموقف النمسا على الأقل بازاء الولايتين العثمانيتين المتاخمتين لها : البوسنة والهرسك ، ويرى فى هذا الحل حلا سليما للمشكلة الشرقية معقولا ومقبولا وينطوى على جانب كبير من الحكمة السياسية ، حلا خيرا فى نظره من معارضة انجلترا لروسيا فى البلقان وقيام حرب شعواء بينهما قد تتحول الى حرب أوربية عامة طاحنة تعصف بما لألمانيا من مركز متفوق ، فكما يقول « انه من الخير لبريطانيا أن تأخذ قناة السويس والاسكندرية بدلا من أن تعلن الحرب على روسيا ، وبذلك وحده تتوثق عرى السلم فى أوربا » . (١)

وهو يرى أنه اذا خشيت الحكومة الانجليزية من اتباع مثل هذه السياسة مناوءة فرنسا وعداءها ، فما عليها الا أن تبحث مع الفرنسيين أمر تقسيم الشرق الأدنى الى مناطق نفوذ ، فتوافق فرنسا على تفوق النفوذ الانجليزى فى مصر نظير موافقة الانجليز على تفوق النفوذ الفرنسى فى سوريا ، وبذا ترضى فرنسا . وكان بزمرك يرى أن الغلبة فى النهاية

(١) الوثائق الألمانية .

ستكون للدولة الممتازة من الناحية البحرية والأكثر مرونة فى الاستعمار [1] .

ولم يقتصر بزمرك على عرض هذه الفكرية على حكومة ديزريلى Disraeli المحافظة ، بل أرسل الى سفيره فى روسيا شفينش Schwiniz يطلب منه أن يعرض على الحكومة القيصرية الروسية فكرة أخذ الانجليز لمصر ليعرف ماذا يكون موقف روسيا[2] فهو يعتقد أن من الضرورى أن توافق على هذه الفكرة اذا أرادت ألا تقاوم انجلترا رغبة الروس فى السيطرة على القسطنطينية والمضايق البوسفور والدردنيل .

ولذا فليس من العجيب أن يجد بزمرك فى زيارة نوبار باشا للندن فى ربيع سنة ١٨٧٧ لتمهيد الطريق لبسط حماية انجليزية على مصر أمراً طبيعيا [3] . ويكرر بزمرك بأنه ينصح وما أنفك ينصح لبريطانيا العظمى بأخذ مصر . وأن هذه الخطوة مباركة فى نظره ، فهى أجل خدمة تستطيع انجلترا تقديمها للسلام فى أوربا ، فالمستشار الألمانى يخشى قيام حرب بين روسيا وانجلترا تجد الدولة الألمانية نفسها مرغمة على الدخول فى غمارها .

ولكن الحكومة الانجليزية حكومة المحافظين ما كانت تقبل بسهولة مثل هذا المقترح ، فرئيسها لورد بيكونز فيلدBeaconsfield بالرغم من أنه هو الذى عقد صفقة قناة السويس ، فاشترى أسهم الخديو فيها ، وبالرغم من تعلقه الكبير بالشرق ، وبالرغم من أنه زار مصر فبهره جمالها وأبهتها وسحرته حضارتها القديمة وضخامة آثارها ، وبهاء نيلها ونخيلها وكثرة خيراتها [4] الا أنه كان فى ذلك الوقت لايرى فى احتلال الانجليز لمصر

---

(١) نفس المصدر السابق ٢٠ أكتوبر سنة١٨٧٦

(٢) نفس المصدر بيلوف إلى شفينش .

(٣) كما يعلق على رسالة أرسلها له سفيره فى لندن بتاريخ ٤ أبريل سنة ١٨٧٧ ، وكان نوبار قد قام بهذه المهمة دون أن يكون الخديو اسماعيل على علم بها ، الوثائق الألمانية .

(٤) أنظر Monypenny and Buckle : Life of Disraeli الجزء الأول الفصل الخاص برحلة ديزريلى إلى الشرق ومصر ، لقد زار ديزريلى مصر فى أيام شبابه وتنقل فيها من رشيد إلى الشلال .

وسيلة ناجعة لدرء الخطر الروسى عن الشرق الأدنى ، فهو يقول اذا أخذ الروس الآســتانة فانه يمكنهم فى أى وقت أن يجوسوا بجيوشهم خلال سوريا ويصلوا الى مصب النيل ، وعند ذلك ماذا تكون فائدة أخذالانجليز لمصر ، « وحتى قواتنا البحرية لا تستطيع أن تعزز مركزنا فى مثل ذلك الموقف ، وان الناس الذين يتكلمون بهذه الطريقة يجهلون الجغرافيا تماما ، والآستانة لامصر ولا قناة السويس هى مفتاح الطريق الى الهند » (١) ، ولقد أبدى بيكونز فيلد عجبه والشك الذى خالج نفسه من كثرة عروض بزمرك ، وذكر أنه يفضل أن تستولى انجلترا على آسيا الصغرى ذاتها (٢) .

على أن الحكومة الانجليزية اذا كانت راغبة عن احتلال مصر فى ذلك الوقت الا أنها كانت حريصة على ألا تمتد اليها يد الحرب التى ثارت ثائرتها فى البلقان ، فلقد انتشرت الاشاعات فى ذلك الوقت التى تقول بأن روسيا تنوى ادخــال مصر فى غمرة الحرب ، فهى تنوى محاصرة الشواطىء المصرية بأسطول البحر الأبيض المتوسط ، أو هى تنوى أخذ ارمينية ، وأرمينية مفتاح سوريا وسوريا مفتاح مصر ومصر مفتــاح افريقية !!! ولذا قدم داربى Derby وزير الخارجيــة الانجليزية الى شوفالوف Shuvalov السفير الروسى فى لندن مذكرة تقول بأن مصالح انجلترا سوف تضطرها لاتخاذ خطة الدفاع اذا مس خطر حرية الملاحة فى قناة السويس أو اذا قامت روسيا بهجوم على مصر . واستفسرت الحكومة الانجليزية فوق ذلك من روسيا عما اذا كانت عازمة على محاصرة مصر أم لا ، وبينت فى نفس الوقت أن أى عمل حربى يهدد سلامة مصر أو قناة السويس ستعتبره انجلترا عملا عدوانيا اعتدائيا موجها ضدها .

(١) المرجع السابق جزء ٤ ص٨٤ عن Seton Watson: Disraeli and Gladstone. ص٩٨

(٢) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ١٠٩

(٣) الوثائق السياسية الفرنسية Srie. Documents Diplomatiques Français جزء ٢ رقم١٧١ دكاز Decazes وزير الخارجية الفرنسية إلى الجنرال لفلو Le Flô سفيره فى بطرسبرج ٢١ مايو ١٨٧٧

ولم يهدأ بال انجلترا ولم تطمئن الا حين علمت أن هذه الاشاعات هى محض اختلاق (١) . وفى أثناء الحرب الروسية التركية أعلنت روسيا عن رغبتها فى ارضاء انجلترا بأنها لن تتعرض لمصر ولا لقناة السويس ، فليست لها المصلحة ولا الرغبة ولا الوسائل للقيام بمثل هذا العمل (٢) .

وفى الواقع أن انجلترا كانت فى ذلك الوقت أى فى سنة ١٨٧٧ تخاف عواقب اتباع السياسة التى يقترحها بزمرك ، وتخشى بصفة عامة عداوة فرنسا ، لا سيما وأن الرأى العام الانجليزى كان يعتقد تماما فى هـذه السنة أن المستشار الألمانى غير مخلص فى ذلك العرض فدوافعه غير بريئة ، فهو يريد أن يدفع بانجلترا الى مصر لكى تؤيده فى الاستيلاء على هولندا ، وحتى الملكة فكتوريا نفسها ملكة انجلترا كانت مصدقة للاشاعات التى تملأ الجو السياسى فى أوربا برغبة ألمانيا فى الاستحواذ على هولندا ، مما اضطر السفير الألمانى فى لندن الى أن يؤكد للحكومة الانجليزية بأن ما يشاع عن رغبة الألمان فى ضم هولندا محض افتراء لا صدق فيه ولا غناء (٣)

على أن المستشار الألمانى لم ييأس ولم يكترث لمثل هذه الأراجيف ، فهو يدون فى مذكرة له أنشأها فى كسنجين Kissingen فى صيف سنة ١٨٧٧ لوزارة الخارجية الألمانية : « لقد رغبت فى حث الانجليز على أخذ مصر اذا كانوا لا يزالون يطمعون فيها ، لأنى أعتقد أن من مصلحتنا ولخير مستقبلنا العمل على تقابل الانجليز والروس فى منتصف الطريق ، فاذا استطاعت انجلترا وروسيا الوصول الى اتفاقية : بها تسيطر روسيا على البحر الأسود وانجلترا على مصر كان ذلك خدمة جليلة للسلام فى أوربا » ، ولكن ما العمل اذا كان الانجليز لا يرون فى أخذ مصر حلا كافيا

---

(١) Sumner: Russia and The Balkans. صفحات ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٦١٨ ، Seton-Watson Disraeli Gladstone ص ١٧٢

(٢) Set-Watson Disraeli and Gladstone ص ١٩٣

(٣) الوثائق الألمانيـة مذكرة لبزمرك كتبها لوزارة الخارجية الألمانيـة بتاريخ ١٥ يونيه سنة ١٨٧٧ ، ومنستر إلى بيلوف ٦ يونيه سنة ١٨٧٧

لمشكلة المضايق ، فملكة انجلترا ووزراؤها ليست عندهم ذرة ثقة فى روسيا (١) •

ثم ان لورد داربى وزير الخارجية فى وزارة المحافظين فى ذلك الوقت لم يكن ميالا بطبيعته الى اتباع سياسة خاصة نشيطة ، فهو لم يتحمس حتى لصفقة قناة السويس ، وكانت تنقصه فعلا الارادة القوية والعزم الصادق مما جعل السفير الألمانى فى لندن يعتقد « أن الساسة الانجليز يعيشون من يوم الى يوم » ، ولا يفكرون فى المستقبل ، ويرى أن على انجلترا اذا كانت تريد المحافظة عى مركزها فى أوربا اما المحافظة على الممتلكات العثمانية بقوة السلاح كما فعلت فى حرب القرم أو تقسيم ممتلكاتها ، ونعى عليها موقفها فى ذلك الوقت ، فهو فى نظره موقف الضعف والتردد اذ لا هى جندت جنودها للدفاع عن تركيا ولا هى أنشبت أظفارها فى مصر كجزء من الغنيمة (٢) •

فروسيا ما برحت مصرة على السيطرة على البحر الأسود ، فيجب اذن على الانجليز — كما ترى السياسة الخارجية الألمانية — المحافظة على مصالحهم فى البحر الأبيض المتوسط ، ولن يصلوا الى هذه الغاية الا باحتلال مصر •

وربما كان هناك رأى فى لندن ، ويصح أن يكون رأى بيكونز فيلد نفسه وهو أن تشترى انجلترا مصر من الباب العالى وأن تعوض السلطان عن الجزية التى تقوم مصر بدفعها سنويا • ولقد أبلغ ديزريلى الملكة فكتوريا يوما بأن ليس لدى الباب العالى مانع من بيع سيادته على مصر وكريت وقبرص (٣) • ويظهر أن جلادستون كان على علم بهذه الحركة وانتقدها انتقادا لاذعا ، كما انتقد شراء ديزريلى لأسهم الخديو فى قناة السويس من قبل • ولقد انتشرت اشاعات عن هذه الحركة الى درجة

(١) المصدر السابق وروس Reuss السفير الألمانى فى فينا الى بزمرك ١٠ يوليو سنة ١٨٧٧
(٢) المصدر السابق الى بزمرك ٢٨ يونيو ١٨٧٨
(٣) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone صفحات ٢٢٥ ، ٣٠٩

أن اضطر رئيس الحكومة الانجليزية الى أن يطمئن فرنسا من هـذه الناحية [1] ، وأهملت هذه الفكرة اهمالا تاما بعد ذلك .

ويعلم الساسة الألمان جد العلم أنه اذا احتلت انجلترا وادى النيل فسيكون لذلك بلاريب أعمق الأثر وآلمه فى فرنسا . ولذا فالحكومة الفرنسية لن تتنازل عن مطالبها وعمالها من نفـوذ فى البحر الأبيض المتوسط الا اذا ضمن لها الانجليز زيادة نفوذها فى بحر الشمال ، وذلك بأن توافق الحكومة البريطانية على ضم بلجيكا لفرنسا وتعويض ألمانيا بهولندا لحفظ التوازن الدولى فى أوربا ، وهذا مالم تكن حكومة لندن تستطيع أن تقبله بأى حال من الأحوال .

ولقد وجد من رجال الدبلوماسية الانجليزية من يعضد وجهة النظر الألمانيـة فالسفير الانجليزى فى برلين لورد رسـل Odo Russell يحبذ أخذ الانجليز لمصر ، ويرى فى ذلك حلا طبيعيا وسلميا ومريحا للمسألة الشرقية ، ولاريب فى أن الرأى العام الانجليزى فى سنة ١٨٧٨ كان قد تحول الى تعضيد هذا الرأى ، وكان فريق من أفراد العائلة المالكة الانجليزية يرى من بداية الأمر انتهاز هذه الفرصة ، فرصة اشتعال المسألة الشرقية لامتلاك مصر فلقد كتبت أل Crown Princess الى الملكة فكتوريا فى ١١ يوليو سنة ١٨٧٧ رسالة تقول فيها : « ان كل من يحب انجلترا يرى ضرورة اغتنام هذه الفرصة ، ووضع أقدامنا فى مصر » [2] على أن أودو رسل كان يشكو دائما من أنه لا يوجد عضو واحد فى الوزارة الانجليزية يأخذ بفكرته أو يرى قريبا منها ، وذلك خشية عداوة فرنسا .

فلقد كان موقف وادنجتون Waddington وزير الخارجية الفرنسية فى

---

(١) كان أول من كشف عن هـذه الحركة الأستاذ سيتون واطسون ، كشفها فى الوثائق الروسـية ، ويذكر الأستاذ أن اتهامات جلاد ستون غير صحيحة لأن زميله فى حزب الأحرار لورد جرانفل يعلم جيدا أن ديزريلى لم يحاول إجراء صفقة شراء مصر ، أنظر المصدر السابق وصفحات ٣٩٠ ، ٣١٠ منه

(٢) الوثائق الألمانية هو هنلوة إلى بزمرك ١٥ مارس سنة ١٧٧٨

ربيع سنة ١٨٧٨ صلبا لا يتغير فى هذه المسألة . فالركن الأول فى أساس سياسته هو منع الانجليز من احتلال مصر بأى ثمن . ولذا فقد أعلن اعلانا لا يشوبه غموض ، وذلك عند دخوله الوزارة بأنه لن يقبل أبدا احتلال الانجليز لوادى النيل . وكما يقول السفير الألمانى فى باريس برنس هوهنلوه Hohenlohe ان جانبا كبيرا من الرأى العام الفرنسى كان يعضد وادنجتون فى هذه المسألة بالذات ، ولو أن حملة الأسهم الفرنسيين ربما كانوا يفضلون احتلال الانجليز لمصر ، ويرون فى ذلك الاحتلال خير ضمان لحقوقهم (١) . ولقد اتبع الوزير الفرنسى بدقة السياسة التى أعلنها ، ولم ينحرف عنها فلم يقبل اشتراك الحكومة الفرنسية فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ الا اذا اقتصر عمل المؤتمر ومناقشاته على معالجة الموقف السياسى الذى نشأ عن معاهدة سان استفانو بين الباب العالى وروسيا ، وأصر على ضرورة موافقة الدول العظمى على ألا تعرض مسألة مصر وتونس وسوريا على بساط البحث فى المؤتمر بأى حال ، وفعلا وجدت الفكرة موافقة تامة من كل الدول (٢) .

ولكن منستر السفير الألمانى فى لندن ظل يردد الفكرة الألمانية على اسماع لورد بيكونز فيلد ووزرائه ، وخاصة على وزير الخارجية الجديد سولسبرى Salisbury لأن منستر كان يعلم جد العلم أن الوزير الجديد من أكبر دعائم الامبراطورية منذ كان وزيرا لشئون الهند ، وأن له همة ونشاطا ليسا لسابقه لورد داربى الذى استقال عقب نزاع شديد ثار بينه وبين رئيس الوزارة ، وأن للوزير الجديد رأيه الخاص فى مسألة بقاء الدولة العثمانية ومصيرها ، فهو عديم الثقة بها ميال الى تقسيمها والعمل على انحلالها ، ويرى سولسبرى أن بقاءها مهزلة من مهازل السياسة لا ينبغى استمرارها ، ويعتقد أن السياسة البريطانية القديمة فى المحافظة على

---

(١) نفس المصدر بيلوف إلى منستر ١٧ مارس سنة ١٨٧٨ ، بيلوف إلى هو هنلوه ١٧ مارس سنة ١٨٧٨ ، Documents Diplomatiques Français. الجزء الثانى .

ببقاء الدولة العثمانية وكيانها سياسة عديمة الجدوى ، لا غناء فيها ، ولا تتفق والوقت ، وهو يحرص على الاتفاق مع روسيا أكثر مما يميل الى الحرب معها . ولقد كان سولسبرى منذ توليه الشئون الهندية دائم التفكير فى المحافظة على مصالح انجلترا لا بحماية تركيا من الخطـر الروسى ، وانما بالاستيلاء على بعض ممتلكات الدولة العثمانية التى تضمن لانجلترا سلامة امبراطوريتها وسلامة مواصلاتها الى الهند ، فهو كما يقول للورد لتون Lytton « ان سياستنا الخارجية تنقصها الجرأة والخطة المرسومة » ، وأن المحافظة على الطريق الى الهند لا تكون الا بأخذ مصر وكريت وبالاشتراك فى القضاء المبرم على تركيا (١) .

ولذا فموضوع مصر من المسائل التى يشوق سولسبرى التفكير فيه والمناقشة مع السفير الألمانى ، ولكنه حين كان يخلو الى بقية أعضاء الوزارة كان دائما يجدهم غير ميالين الى أخذ مصر ، فكما يقول منستر ان هناك مسألتين تمنع زملاءه من التفكير جديا فى مسألة أخذ مصر : أولاهما التعقيدات والتضحيات المالية ، وثانيهما عدواة فرنسا ، ولكن السفير الألمانى كان قـد تكهن بما يدور فى خلد الوزارة الانجليزية ، ولذا فهو يجيب بأن هذه المصاعب مبالغ فى تقـديرها دون ريب ، فموارد مصر المالية متى أديرت ادارة حسنة تحت رعاية انجلترا وتحت اشراف موظفين انجليز فانها تستطيع القيام بكل التعهدات المالية التى ارتبطت مصر بها . وأن الدائنين الفرنسيين يهمهم قبل كل شىء أن تسدد ديونهم وتدفع فوائدها ، ولا يأبهون كثيرا لذكريات فرنسا التاريخية أو لما تدعيه من أعمال مجيدة فى مصر ، ثم ما الذى يجعل الانجليز يظنون أن هدف فرنسا هو مصر ، فهدف فرنسا الحقيقى هو تونس لكى تستطيع حماية مصالحها فى الجزائر . ثم بعد ذلك ما الذى تستطيعه عداوة فرنسا ، فهل تستطع فرنسا فى الوقت الحاضر اعلان الحرب على انجلترا من أجل مصر ؟

---

(١) Seton-Watson: Disraeli and Gladstone ص ٢١٩

ولما وجد سولسبرى عدم اتفاق زملائه فى الوزارة على مسألة احتلال مصر اضطر غير راض الى ترك هذا المشروع ثم من ناحية ثانية سولسبرى نفسه كان دائما كبير الاهتمام بصداقة فرنسا ، وخاصة فى الوقت الذى تخلت فيه ايطاليا عن مساعدة انجلترا فى المسألة الشرقية ضد روسيا [1] ، فسولسبرى يؤمن بضرورة تعاون الدولتين الغربيتين فى كل ما يختص بمسائل البحر الأبيض المتوسط ، بل لقد أصبح ذلك التعاون أمرا حيويا بالنسبة لانجلترا ، طالما كانت تبغى ألا تنضم فرنسا الى المعسكر الروسى . ومن الأسباب الأساسية التى جعلت الحكومة الانجليزية لا تأخذ بالعرض الألمانى هو تشككها فى سياسة بزمرك ، فكانت تخشى دائما أن يكون المستشار الألمانى قد عرض مصر على فرنسا لتعويضها عن الألزاس واللورين فى نفس الوقت الذى عرضها على انجلترا .

وظل موقف ألمانيا بالنسبة لانجلترا فى هذه المسألة كما هو ، ظل موقف الصداقة والتأييد ، ولذا حين تعقدت الظروف بعض الشىء بين فرنسا وانجلترا أعلن بزمرك السفير الانجليزى لورد أودورسل بأنه مستعد لتأييد بريطانيا العظمى « لأنه من مصلحة ألمانيا أن يتفوق نفوذ انجلترا على نفوذ فرنسا فى مصر » ، وهو مع ذلك ماض فى تأييده للتعاون بين الدولتين[2]. وحين أرادت الحكومة النمسوية المجرية استغلال صداقة ألمانيا ، فطالبت بأن تشترك مع الحكومتين الفرنسية والانجليزية فى الاشراف على شئون مصر، أشار اليها بزمرك بأدب بأن مصالح انجلترا وفرنسا أضعاف مصالح ألمانيا والنمسا ، وأن هذه المصالح تبرر فى نظره مركزهما المفضل فى مصر ونفوذهما الممتاز ، وأنه يفضل أن يوكل الى انجلترا وفرنسا أمر

---

(١) لما استفحل الخطر الروسى فى أوائل سنة ١٨٧٨ فكرت إنجلترا فى إنشاء عصبة من دول البحر الأبيض المتوسط تكون غايتها منع امتداد النفوذ الروسى إلى ذلك البحر ، وعرضت الفكرة على ايطاليا فرحبت الحكومة الايطالية فى أول الأمر بالمشروع ثم نكصت على عقبيها . أنظر للمؤلف Tunis and the Great Powers الفصل الخاص بالعلاقات الانجليزية الايطالية .

(٢) Winfred Taff Ambassador to Bismarck, Lord Odo Russell ص ٣٠٦

حماية مصالح رعاياه فى مصر ، على شرط أن تقوم هاتان الدولتان بحماية مصالح الدول الأخرى على قدم المساواة مع مصالحهما وبنفس الاهتمام[1] .

ولقد أيد المستشار الألمانى انجلترا وفرنسا تأييدا لايعتريه خور ولا وهن فى موقفهما ضد الخديو اسماعيل فى أوائل سنة ١٨٧٩ حين تحدى أوربا وأراد التخلص من العنصر الأجنبى ، فأرسل انذارا الى مصر زلزل مركز الخديو ، ووافق على فكرة الدولتين فى طلب عزل الخديو بالرغم من أن كلا من روسيا وايطاليا كان يعترض على حق الدولتين فرنسا وانجلترا فى طلب تخلى الخديو عن عرشه ، فهذا تدخل صريح فى شئون مصر لايتفق والعرف الدولى ، ولكن تأييد بزمرك وعدم اكتراثه بما لاسماعيل من حقوق جعل معارضة روسيا وايطاليا لاقيمة لها ، فغادر الخديو اسماعيل مصر حزينا ، وتولى شئونها الخديو توفيق .

وتعقدت المسألة المصرية من الناحية الدولية فى أوائل عهد الخديو توفيق ، وأنذرت الثورة العرابية بخطر مستطير ، فثبتت ألمانيا على موقفها فى أن ليس لها مصالح مهمة فى وادى النيل تدعوها للتدخل مباشرة وظلت متمسكة برأيها فى الاعتراف بمركز انجلترا وفرنسا الممتاز فى وادى النيل[2]. فكما يقول لورد أودو رسل عن بزمرك « انه (أى بزمرك) راغب فى منح تأييده لأية سياسة تتفق عليها انجلترا وفرنسا فى مصر ، لأنه يرى فى ذلك الاتفاق الفرنسى الانجليزى أساسا للسلام والنظام فى أوربا ، ويرى فوق ذلك أن تنضم ألمانيا الى جانب ذلك الاتفاق بتأييده وتعضيده »[3] .

---

(١) الوثائق الألمانية دكتور بوش Busch فى وزارة الخارجية الألمانية إلى ولى عهد ألمانيا ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢

(٢) نفس المصدر بزمرك الى رادوفيتس Radowitz ٢٣ نوفمبر سنة ١٨٧٩

(٣) وكان الأتراك بعد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ قد لجأوا الى ألمانيا ابتغاء النصح والحماية وقابلت برلين ذلك الود بمثله وأجابت بعض طلبات الاتراك الخاصة بإرسال بعض الموظفين =

وحين لجأت وزارة الأحرار وعلى رأسها جلادستون الى ألمانيا لتتعرف موقفها ازاء الثورة العرابية كان رد بزمرك بأن انجلترا أعلم بما يجب أن يكون عليه موقفها ازاء ذلك التعقيد فى المسألة المصرية ، لكنه بين فى نفس الوقت أن سياسته كسياسة انجلترا ، فمن مصلحة الدول جميعا — كما يعترف هو — المحافظـة على الموقف السياسى الراهن فى مصر وتعضيد سلطة الخديو . فيبين جرانفل Granville وزير الخارجية أن الحالة فى مصر خطرة ، فوفقا لتقارير قنصل انجلترا الجنرال فى القاهرة الخديو متشائم من سير الأمور الداخلية ، وأنه يائس جدا من استقامة الأحوال ، ولذا فالحكومة الانجليزية مصممة على تقوية مركزه وشد أزره بأن تعلن الدول الكبرى جميعا له فى صراحة وجـلاء تام عن رغبتها فى المحافظة على الحالة السياسية الموجودة ، ولذا فقد أصدرت الحكومتان الفرنسية والانجليزية الى قنصليهما الجنراليين فى مصر بأن يبينا للخديو عن هذه الرغبة بمذكرة يناير المشهورة ، وذكر جرانفل أن فرنسا قد تعاونت مخلصة مع انجلترا فى هذه المسألة ، ولما وضح هربرت بزمرك أن ألمانيا لن تعترض على ما حدث ولكنها ترغب فى أن يوكل الى الاتراك أصحاب السيادة أمر المحافظة على النظام فى مصر (١) ، أجاب جرانفل اجابة قلقة مضطربة تدل على أحد شيئين : اما أنه يريد اخفاء خطة استنتها انجلترا ، واما أن الوزارة الانجليزية لاتزال غير متفقة فيما بينها على السياسة التى يجب اتخاذها حيال مسألة مصر ، ولذا فهو يردد بأنه مافتىء يعتقد أن اعادة النظام الى مصر على يد الأتراك هو خير الحلول الممكنة ، وأنه شر

= الألمان إلى الاستانة مما دعا الى تخوف السفير الانجليزى فيكتب الى جرانفل يقول :

"It is evident that the exchange of compliments. of presents, of diamonds and of assurances, of mutual respect and admiration has practically led to a state of real intimacy between Germany and Turkey which has never before existed and which gives the Sultan a welcome excuse for leaving his ways numended". March 22/1882.

Taffs: An Ambassador to Bismarck in J.O. 64. 1005. No. 102. عن ص ٣٥٨

(١) أنظر الصور السابق .

لابد منه ، على أن جرانفل لم ينس أن يذكر لابن بزمرك ومبعوثه فى لندن بأن ما صرح به هو رأيه الشخصى وأنه لا يزال لا يدرى اذا كان اخوانه فىالوزارة يشاطرونه هذا الرأى ، ثم أضاف بأنقيام انجلترا بالعمل وحدها فى وادى النيل ضرب من المحال ، وأن من المغامرة تعاون فرنسا وانجلترا فى القيام بعمل وحدهما ، وأن ترك الأتراك يتدخلون وحدهم لحفظ النظام والأمن فى مصر قد يؤدى الى صعوبة التخلص منهم فيما بعد • ولكن ميزة تدخل الأتراك وحدهم هو عدم وقوع التشاحن بين الدول الأوربية الكبرى من جراء مسألة مصر (١) •

ولقد لاحظ المبعوث الألمانى هربرت بزمرك تضارب أقوال جرانفل مما لايبشر فى نظره باستقرار الحكومة الانجليزية على رأى فى مسألة مصر • فهى حانقة غاضبة على الباب العالى لعدم قيامه بتنفيذ شروط معاهدة برلين كما يجب ، وهى فى حيرة من أمرها فيما يختص بمصر ، على أن ما كان يخشاه جرانفل قبل كل شىء هو أن تصبح مسألة مصر مسألة دولية ، هو تدخل الدول الكبرى فى مسألة مصر ، ولذا فهو يبين لألمانيا أن مثل ذلك التدخل ليس فى صالح السلام فى أوربا •

ولما كانت الحكومة الانجليزية ترى من المهم أن تتعاون فرنسا معها فى مسألة مصر ، هذا قوى من فكرة المستشار الألمانى بأن سياسة انجلترا الخارجية لا تزال تنقصها الحكمة وبعد النظر « بدرجة لا يوجد لها مثيل فى تاريخ انجلترا » ، فانجلترا كما يرى أصبحت مقيدة بسياسة فرنسا الخارجية ، فهى لا تفكر الا فى التعاون مع فرنسا والا فى صداقة فرنسا ، وهاله أن يرى « وزارة جلادستون تندفع من مغامرة لأخرى » ، فاذا كانت الحكومة البريطانية قد اتفقت مع الحكومة الفرنسية على أن تكونا فى عزلة عن بقية دول أوربا بتدخلهما وحدهما فى مسألة مصر ، فان علاقات بريطانيا العظمى مع الدول الأوربية الأخرى التى لها مصالح فى الشرق لابد وأن تتأثر تأثيرا سيئا ، « وخاصة اذا حدث وساءت علاقة

---

(١) الوثائق الألمانية • هربرت بزمرك إلى ٧ يناير سنة ١٨٨٢

انجلترا بفرنسا لتباين مصالحهما » ، ولذا ففى آخر الأمر « فان انجلترا ستجد نفسها وحيدة منفردة فى أوربا لسياستها الحائرة المترددة » [1] .

وما كان بزمرك يثق فى حسن فهم جلادستون لشئون السياسة الخارجية ، وما كان يستطيع أن تقيم وزنا كبيرا لتصريحات جرانفل أو لآرائه الشخصية ، نظرا لضعفه وتردده وقلة حيلته . كما كان الشك يساوره دائما فى سياسة وزارة جمبتا الفرنسية ، ولذا فهو سياسته العامة الأوربية معتمد على الدول الامبراطورية النمسوية المجرية والروسية . أما فى مسألة مصر فهو لم يحد عن سياسته التقليدية التى تنطوى على عدم اثارة العراقيل فى وجه السياسة الانجليزية ، وان كان لا يروقه أن يرى الحكومة الانجليزية تتبع ظل الحكومة الفرنسية .

ولكنه كان حريصا وخاصة بعد سقوط وزارة جمبتا الفرنسية فى أول شهر فبراير سنة ١٨٨٢ على أن يؤيد الخطوات التى تقوم بها الدولتان الغربيتان ، على شرط أن تحوز هذه الخطوات موافقته ، وان كان بفضل المحافظة على الحالة السياسية الراهنة فى مصر ، وكان يعضد وجهة النظر هذه الدول الشمالية الروسيا والنمسا ، فهو لذلك ينصح بتدخل السلطان وحده ولكنه بين مع ذلك أنه لن يعارض اذا تدخلت الدول الأوربية الكبرى جميعها متعاونة ، وأسر الى الانجليز فى فترات بأنه سيحاول ارضاءهم بقدر المستطاع بالرغم من ارتباطه مع الدول الشمالية ، ولذا يبعث أودورسل السفير الانجليزى فى برلين بوثيقة سرية الى حكومته مؤرخة ٢٠ مايو سنة ١٨٨٢ يقول فيها :

Dr. Busch has told me "privately and confidentially" that although Prince Bismarck had not felt at liberty to separate himself officially and depart from the attitude assumed by Count Kalnoky and M. Giers in regard to sending instructions to their representatives at Constantinople, His Highness has nevertheless instructed him

---

(١) نفس المصدر هاتسفلت Hatzfeldt فى برلين إلى رويس السفير الألمانى فى فينا ١٥ يناير سنة ١٨٨٢

to speak privately to the Turkish Ambassador Sadoullah Pasha in the sense desired by your lordship and that he had already done so, and recommended him to advice his government not to exaggerate the effect of the naval demonstration but to abstain from interference and confide implicitly in the policy and good intentions of England and France. (1).

ولقد اطلع بزمرك حلفاء على وجهة النظر هذه ، وأيد ابحار أسطون الدولتين للمحافظة على الأمن والنظام فى مصر وتعضيد سلطة الخديوى على حسب الفرمانات التى اعترفت بها دول أوربا [٢] .

ولم يكن بزمرك مرتاحا الى رغبة الحكومة الانجليزية فى أن تطلب من الباب العالى ارسال جنوده الى مصر لاعادة الهدوء اليها . فلم يكن يعضد فكرة اصدار أوامرها للحكومة العثمانية ، فهو يرى فى ذلك انتقاصا كبيرا لحقوقها وتحديدا لسلطتها لا مبرر له ، ولقد أبدى السفير الانجليزى فى برلين أسفه لذلك الموقف الذى ربما سبب كثيرا من المتاعب لما لألمانيا من كلمة مسموعة لدى كثير من الدول الأخرى ، ولقد أجاب هاتسفلت على ذلك ، وكان قائما بأمور وزارة الخارجية الألمانية ، بأن فرنسا لا تؤيد انجلترا فى مطلبها الخاص بارسال الباب العالى لجنوده الى مصر ، وأسر الى السفير الانجليزى بأن بزمرك لن يقبل الاشتراك مع الانجليز فى الانتقاص من حقوق السلطان أو من سيادته ، ويرى أن الحل الوحيد للصعوبة الحالية هو ترك السلطان يفصل فيها بطريقته الخاصة ، فالأتراك لهم وسائل ناجعة فى تسوية مثل هذه المشاكل .

---

(١) F.O. 64. 1006. No. 169. عن Taffs: Ambassador to Bismarck صفحات ٣١٠، ٣١١ . دكتور بوش كان من كبار موظفى وزارة الخارجية . كونت كالنكى وزير الخارجية للامبراطورية النمسوية المجرية .

مسيو دى جيرز وزير الخارجية الروسية . ما يقصد بالمظاهرة البحرية المظاهرة البحرية التى قامت بها انجلترا وفرنسا فى ميناء الاسكندرية .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٩١ رسل إلى جرانفل ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ F.O. 64. 1006. No. 188.

"The Turks had a way of their own of pacifying their coreligionists they gave their agents a sword in one hand, and a bag full of decorations in the other, money in every pocket and told them to make the best of their chances. (١)

ولما سأل رسل ، السفير الانجليزى ، عن الوسائل التى يمكن بهـا التخلص من الأتراك بعد ذلك ، أجاب هاتسفلت بأن هذه المسألة موكولة للمستقبل ، وأن قناصل روسيا وألمانيا والنمسا وايطاليا قد سجلوا فى تقاريرهم أن هذه الطريقة هى خير الطرق التى يجب الأخذ بها لحل المشكلة المصرية ، لأن التدخل الحربى حتى ولو كان عثمانيا سيؤدى فى آخر الأمر الى كوارث ، وأضاف الى ذلك قائلا ان كل مايهم ألمانيا هو السلام وعدم وقوع حرب من أجل مسألة مصر ، « وان البرنس بزمرك يكون سعيدا لو استطاع نفض يديه من كل المسائل الشرقية ، ولكنه كعضو فى التآلف الأوربى مضطر الى تأييد الدول التى يهمها ذلك الموضوع فى الوقت الذى تجد نفسها متفقة فيه ، فسياسته هى عدم توسيع شقة الخلاف بين الدولتين انجلترا وفرنسا ، وانما هى العمل على تعاونهما والتوفيق بينهما لأنه يرى السلام والمصلحة فى ذلك » .

"Prince Bismarck had always agreed that a difference of opinion with regard to Egypt was inevitable and his earnest wish was not to foster such differences, when they sprang up, by favouring one Government more than the other, but on the contrary to contribute as far as was in his power towards the continuance of the Anglo-French Alliance, which he has always welcomed as a guarantee of peace in Europe. (٢)

وعلى أى حال قبل بزمرك الاشتراك فى مؤتمر الاستانة الذى انعقد من الدول الكبرى لمناقشة المسألة المصرية ومعالجتها ، ولو أنه كان لايؤمن كثيرا باستطاعة المؤتمرات حل المشاكل الدولية مالم تتفق الدول صاحبة الشأن على حل هذه المشاكل من قبل . ولذا لم يكن كبير الأمل فى نجاح

---

(١) J. O. 64. 1006. No. 212 رسل الى جرانفل ١٧ يونيو سنة ١٨٨٢

(٢) F.O. 64. 1006 No. 212. رسل إلى جرانفل ١٧ يونيو سنة ١٨٨٢

ذلك المؤتمر • وجدت الحكومة الألمانية أن فرنسا لم تكن بكبيرة الرغبة فى نجاح ذلك المؤتمر لأن فكرته الأساسية لم تلق ترحيبا فى باريس ، فالحكومة الفرنسية كانت عاقدة العزم على مناهضة كل مبدأ يقول بتدخل الأتراك الحربى فى مصر خشية ازدياد قوة الاسلام فى شمالى افريقية ، الأمر الذى يعمل دون شك على اضعاف مركزها فى الجزائر وفى البحر الأبيض المتوسط ، وأيقنت ألمانيا أن المؤتمر سيفشل فى خطواته ، لأنها أى ألمانيا لم تكن مستعدة لانتداب الدولتين الغربيتين انجلترا فرنسا لحل مسألة مصر وانتقاص ما للسلطان من حقوق فى هذه البلاد ، وان لم تكن تعارض فى قيام — الدولتين اذا أرادتا — بارجاع النظام الى مصر على مسئوليتهما الخاصة ، فألمانيا لم ترد أخذ دور ايجابى فى المسألة المصرية • وكانت ألمانيا ترى أن ارسال الدولتين لأسطولهما الى مياه الاسكندرية كان سببا فى حدوث المذبحة المشهورة وفى اثارة العسكريين المصريين الى اقامة التحصينات والى الاستعداد للحرب ، ولكن ألمانيا بالرغم من ذلك لم تقم باثارة عراقيل فى وجه الانجليز ، ولم تقتصر على ذلك بل لقد عملت على الوقوف أمام محاولة روسيا تكوين حلف من بعض دول أوربا للاحتجاج على سلوك انجلترا فى مصر ، وذلك بعد ضرب الأسطول الانجليزى لمدينة الاسكندرية ، وهنأت الانجليز على نجاح عملياتهم الحربية •

ولما احتلت انجلترا قناة السويس فأثارت جانبا من الرأى العالمى ضدها ، كان موقف ألمانيا الصريح فى تأييد انجلترا عاملا على تهدئة الخواطر فى أوربا نحو بريطانيا وخفوت صوت المحتجين • ولما كانت مصالح ألمانيا فى قناة السويس تجارية قبل كل شىء وليست سياسية ، لم تعارض السياسة الانجليزية ، وان كانت لم توافق على طلب الحكومة الانجليزية الاشتراك معها فى ضمان حرية الملاحة فى القناة • ولم تناصر ألمانيا الجهود التى قامت بها بعض الدول الكبرى لتطلب من انجلترا تفسير أعمالها وتوضيح موقفها ، بل لقد اقتصرت على ارسال هربرت بزمرك الى لندن ليقف على سياسة انجلترا الجديدة ازاء المسألة المصرية •

ولما جاء أمر تنظيم انجلترا لشئون مصر أعلن بزمرك للورد جرانفل أن الحكومة الألمانية لن تثير صعوبات أو متاعب أمام انجلترا فى هــذه الناحية • ولما ثارت المناقشة بعد ذلك فى أمر مصير مصر ساء بزمرك أن يجد الوزراء الانجليز غير متفقين فيما بينهم على السياسة التى يجب أن تتبع مضطربى الأعصاب قلقين كلما ذكرت دولة أجنبية اسم مصر • ولكن المستشار الألمانى ظل على ولائه لسياسته القديمة التقليدية • ولم يخلف على الحكومة الانجليزية المترددة أنه على استعداد الى حد للموافقة على ضم مصر الى الممتلكات البريطانية اذا أراد الانجليز ذلك ، وان كان ينصح بأن من الخير لهم لو وطدوا أقدامهم فى مصر تحت سيادة تركيا ، وبذا لا يضعف مركز السلطان فى العالم الاسلامى ، ولا ينال تركيا الهزال والانحلال ، وبذا لا تجعل انجلترا من السلطان عدوا مبينا لها فتنفتح الباب واسعا أمام دسائس الدول الأوربية المعادية لها ، أما اذا اتبعت انجـلترا سياستها التقليدية القديمة ، سياسة التحالف مع السلطان ، فانها تعزز مركزها فى مصر وتركيا ، وتحكم مصر من القاهرة والأستانة معا ، ويكون انتفاعها أكبر ، بل سيكون هذا عاملا على تيسير الأمور لبريطانيا فى البحر الأبيض المتوسط ، ولعل بزمرك كان يرمى من وراء ذلك عدم اعطاء روسيا فرصة للاتفاق مع فرنسا على محاربة نفوذ انجلترا فى مصر والشرق الأدنى • كما أنه لم يكن يرمى الى تمهيـد الطريق أمام الباب العـالى للانضمام الى جانب فرنسا •

اقترح المستشار الألمـانى اذن ابقاء مصر تحت السيادة العثمانية ، ولكنه اقترح بجانب ذلك أن يجعل الانجليز من وظيفة قنصلهم الجنرال فى مصر وظيفة مشابهة لوظيفة المقيم العام الفرنسى فى تونس • ولعله كان يبغى أن يعرف من وراء ذلك الاقتراح مدى رغبة الانجليز فى التسلط على مصر ومدى رغبتهم فى محاكاة الوسائل الفرنسية فى الحكم الامبراطورى الاستعمارى • ووافق جرانفل على الفكرة الأولى بابقاء مصر تحت السيادة العثمانية بالرغم من وجود جيش الاحتلال ، لأن الفكرة وجدت هوى فى

نفسه ، لأنها صادرة من ألمانيا ، ولن تستطيع انجلترا فى ذلك الوقت القضاء على السيادة العثمانية دون أن تستهدف لغضب ألمانيا وسخط الدول الأخرى • فلقد نجحت تركيا فى التقرب من ألمانيا الى حد أن المستشار الألمانى وافق على ارسال بعثة حربية الى الآستانة لتنظيم الجيش العثمانى ، ومن ناحية ثالثة سيثير القضاء على السيادة العثمانية مشاكل لاعداد لها ، وربما فتح باب المسألة الشرقية كلها من جديد •

ولكن جرانفل اعترض على الفكرة الثانية « بأن انجلترا لن تذهب إلى هذا الحد ، ولن تستطيع تطبيق وسائل فرنسا فى تونس على مصر وقناة السويس » [1] • ولم يبين جرانفل أى نظام ستتبع انجلترا فى مصر ، ولكنه ذكر أن انجلترا ستجعل المرور فى القناة حرا لجميع الدول فى وقت السلم والحرب ، فانجلترا لن تفرض « نظام الحماية على مصر » ، ولكن وزير الخارجية الانجليزية أحب أن يتحسس رأى بزمرك فى أمر مصير مصر ، فقال المستشار الألمانى « انه ترك أيدى الانجليز حرة فى وادى النيل » يفعلون ما شاءوا •

ولما أشار جرانفل الى موقف فرنسا العدائى ومناهضتها لسياسة انجلترا ، مما قد يكون له كبير خطر على مركز الانجليز ، كان بزمرك يهون من خطر الموقف ، ويذكر للحكومة الانجليزية أنه طالما كانت ألمانيا قوية مهيبة الجانب ، وطالما كانت صديقة لانجلترا ، فلن تستطيع الجمهورية الفرنسية التحرش جديا بانجلترا ، ولن تستطيع أن تذهب الى حد اعلان الحرب عليها ، فدستورها وحالتها الحربية لاتسمحان لها بذلك ، وخاصة وأن ألمانيا واقفة لها بالمرصاد ورقيب على حركاتها عتيد •

ولقد أرادت الحكومة الانجليزية أن تتقرب من ألمانيا فى مسألة تقرير حرية المرور فى القناة ، لأن هذا هو كل ما يهم ألمانيا فى نظر انجلترا ، وطلبت كذلك اشتراك ألمانيا فى ضمان حرية الملاحة فى هذه القناة ، ولكن المستشار الألمانى ما كان يريد التورط فى مسألة مصر أو القناة ، فيبين

---

(١) الوثائق الألمانية مذكرة سياسية لهربرت بزمرك فى (لندن) أكتوبر سنة ١٨٨٢

لانجلترا أن ألمانيا كدولة تجارية ترحب بلاشك بمبدأ حرية المرور فى القناة ، ولكنها غير مستعدة للذهاب الى حد الاشتراك فى ذلك الضمان ، لأنه ربما اعترضت على هذا المبدأ احدى الدول البحرية الكبرى ، وألمانيا غير مستعدة للدخول فى حرب من أجل مصر أو القناة (١) •

وقدرت انجلترا حق التقدير موقف التأييد العظيم الذى وقفته ألمانيا فى المسألة المصرية ابان اشتداد أزمتها • فشكر وزير الخارجية البريطانية الحكومة الألمانية ، وكرر زملاءه ذلك الشكر أكثر من مرة ، فلقد أعلن هاركورت Harcourt أحد أعضاء الوزارة « بأنه الى ألمانيا وحدها يرجع الفضل فى جعل يد الانجليز حرة فى مصر ، فلقد كان فى وسع بزمرك أن يقلب العربة بانجلترا » (٢) •

ولقد ظل موقف ألمانيا فى سنة ١٨٨٣ واحدا لايتغير ، ولكن الظروف السياسية تغيرت تغيرا واضحا فى سنة ١٨٨٤ ، ففى هذه السنة تكونت الجمعية الاستعمارية الألمانية وتأسست الصحيفة الاستعمارية

لم تكن للدولة الألمانية سياسة استعمارية فى السنوات التى سبقت هذه السنة ، فلقد كان بزمرك راغبا عن الاستعمار ، ويرى أن الوقت غير مناسب ، وأن جهود ألمانيا السياسية يجب أن توجه الى توطيد دعائم وحدتها السياسية والى بناء مركز متفوق لها فى أوربا • كان يرى أن نشاط ألمانيا يجب أن يتركز فى أوربا وعلى حدود ألمانيا الغربية بصفة خاصة طالما لم تنس الحكومات الفرنسية الرغبة فى الانتقام واسترداد الولايتين المفقودتين الالزاس واللورين ، واطمأن بزمرك الى مركز ألمانيا فى أوربا بعد توطيد علاقاته مع امبراطورية النمسا والمجر نهائيا فى سنة ١٨٧٩ ، ومع روسيا فى ربيع سنة ١٨٨١ ، ومع ايطاليا فى ربيع السنة التالية ، فلا خوف اذن على تفوق الدولة الألمانية فى أوربا •

---

(١) الوثائق الألمانية شتوم Stum قائم بالأعمال فى لندن إلى هربرت بزمرك ٣١ أكتوبر سنة ١٨٨٢

(٢) نفس المصدر هربرت بزمرك الى بزمرك ١٤ يناير سنة ١٨٨٣

فظهر حينئذ عامل جديد فى السياسة الخارجية الألمانية ، وخاصة بعد أن نمت الصناعة الألمانية وأخذ الانتاج الكبير يلعب دوره ، وتبع تقدم الصناعة الألمانية نمو التجارة بسرعة هائلة ، وظهر تجار من برمن وهمبرج على شواطىء أفريقية والمحيط الهادى ، وانتشرت البعثات الدينية الألمانية فى أرجاء العالم ، وزاد الحماس واشتد التمسك بالقومية الألمانية بعد انتصاراتها الباهرة فى سادوا وسيدان ، وبعد تفوقها السياسى فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ ، فالاعتزاز بالقومية الألمانية كان من العوامل التى دفعت بالألمان الى الاستعمار ، وتفوق مركز ألمانيا السياسى فى سنة ١٨٨٢ هو الذى جعل بزمرك يعيد النظر فى موقفه ازاء الأمبريالزم ، ووجد التجار الألمان من الشجاعة والمصلحة أن يستقروا فى المحطات التى أنشأوها فى جنوب أفريقية والمحيط الهادى ، وأصبح المستشار الألمانى يجد ألا غنى لألمانيا عن الاستعمار ، وازداد اهتمامه به حتى اعتبره مسألة حيوية بالنسبة لألمانيا ، ولذا كان على قدم الاستعداد لأن يجعل من مسألة الاستعمار محكا لعلاقاته بالدول الأوربية الكبرى ولا سيما الاستعمارية منها ، ولذا فهو مستعد لتضحية علاقاته الودية بانجلترا اذا قاومت مشاريعه الاستعمارية ، وهذا يفسر لنا موقفه ازاء انجلترا فى مصر سنة ١٨٨٤ ٠

لقد خشى الانجليز أن تفكر ألمانيا تفكيرا جديا فى الاستعمار ، وهالها تقدم التجار الألمان والبعثات الدينية الألمانية ، وأصبحت ترى فى الألمان منافسا خطيرا قويا ، فأخذت وزارة جلادستون التى كانت لا تزال تتولى الحكم فى انجلترا فى أوائل هذه السنة فى وضع العراقيل أمام المستعمرين الألمان فى غربى أفريقية وجزائر فيجى وساموا ، وهاجمت الصحافة الانجليزية بعنف السياسة الألمانية الاستعمارية ، فثارت لذلك ثائرة الامبرياليين من الألمان ، بل هاج الرأى العام الألمانى ، وأخذت الصحافة الألمانية تهاجم فى مقالات قوية السياسة الانجليزية والصحافة الانجليزية ، وغضب بزمرك غضبا شديدا ، واتخذ من مسألة مصر ذريعة يهدد بها انجلترا ٠

وبعث الى منستر سفيره فى لندن فى ٤ ابريل سنة ١٨٨٤ ، يطلب منه أن يذكر الانجليز بموقف ألمانيا نحوهم فى مسألة مصر فى سنة ١٨٨٢ ، وأن يبين لهم كيف لم تحتج ألمانيا على ضرب الأسطول الانجليزى لمدينة الاسكندرية ، وكيف لم تقف الحكومة الألمانية حجر عثرة فى سبيل احتلالهم لمصر ، وكيف لم تناقش مركز انجلترا الممتاز فى وادى النيل والشرق الأدنى الاسلامى ، وكيف لم تثر صعوبات أمام ما اتخذته الحكومة الانجليزية فى مصر من خطط ، وكيف أن الحكومة الانجليزية شكرت الحكومة الألمانية شكرا جما على موقف التأييد هذا المنقطع النظير .

ولذا فألمانيا لها الحق فى أن تنتظر رد الجميل ، وأن تنتظر من الانجليز ألا يقفوا حائلا أمام حقوق الرعايا الألمان فى فيجى ، ولوح بزمرك بالتهديد والوعيد اذا عرقلت انجلترا تحقيق المطامع الألمانية فان الحكومة الألمانية ستدرس موقفها من جديد ازاء وزارة جلادستون وخاصة ازاء السياسة الانجليزية فى مصر [1] .

ولقد ذكر بزمرك الانجليز بمركزهم المتزعزع فى أوربا ، وبين لهم ألا خوف على انجلترا فى هذه القارة الا من فرنسا ، وفى آسيا الا من روسيا . ولن يكون عداء فرنسا ذا قيمة أو خطرا على انجلترا الا اذا ضمنت فرنسا حياد ألمانيا ، وأن الحكومة الألمانية مستعدة من ناحيتها للثبات على سياستها الودية حيال انجلترا فى مصر ، كما أنه ليس من الصعب على ألمانيا أن تحسن علاقاتها بأعداء انجلترا [2] . وأن انجلترا يجب أن توقن بأنها لا تستطيع الاعتماد على صداقة الحكومة الألمانية أو حيادها أو تأييدها فى حالة اعتداء فرنسا أو روسيا عليها الا اذا أرضت المطامع الألمانية كاملة .

ومضى بزمرك يعلن للانجليز بأنهم اذا ناقشوا حق ألمانيا فى الاستعمار

---

(١) الوثائق الألمانية بزمرك إلى منستر ٤ أبريل سنة ١٨٨٤

(٢) نفس المصدر بزمرك الى منستر ٥ مايو سنة ١٨٨٤

فان من حق ألمانيا أن تناقش انجلترا فى حقها فى مصر ، ونعت سياسة انجلترا بأنها سياسة أنانية ساذجة naïve egoism ، وقال انه اذا استمرت الحكومة الانجليزية سادرة فى غلوائها كان ذلك « امتهانا لشعورنا القومى » ، وانتقد تصرفات وزارة جلادستون وعملها على اثارة المستعمرات الانجليزية فى أفريقية على السياسة الألمانية ، وبين أن انجلترا تتمحل الأعذار لكى ترى أن المعارضة لم تأت من جانبها ، ولكن من جانب المستعمرات ، وقال ان استقلال المستعمرات فى تدبير شئونها الخارجية مهزلة لا تصدق .

وكانت المسألة فى نظره خطيرة ، فلقد كانت الانتخابات القادمة فى ألمانيا تحتم عليه أن يبين رأى الحكومة صراحة فى الاستعمار اذا كانت تريد تأييد نواب الشعب الألمانى لها .

ولما ثارت مسألة مصر من جديد ، وخاصة حين لم تصل المفاوضات الانجليزية الفرنسية بشأن الاصلاح المالى الى نجاح ، أيدت ألمانيا بحماس وجهة النظر الفرنسية ، وأكد هربرت بزمرك مبعوث المستشار الألمانى فى لندن لوزير الخارجية الانجليزية بأن لألمانيا مصالح مهمة فى مصر تصل الى مائة مليون مارك ، وحين أبدى جرانفل دهشته من هذه الملاحظة ، وقال ان الحكومة الألمانية قد قررت منذ زمن قريب بأن ليس لها مصالح مهمة فى مصر ، أجاب المبعوث الألمانى بأن الأوقات قد تغيرت ! وأخذت الصحافة الألمانية تنتقد بشدة سياسة انجلترا فى مصر ، وتدحض ماتدعيه انجلترا من حقوق فى هذه البلاد وفى احتلالها ، وكان بزمرك نفسه يمد الصحافة بالمقالات العنيفة ضد انجلترا [1] .

وكان موقف بزمرك فى مسألة مصر داعيا لأن تعيد الحكومة الانجليزية التفكير فى موقفها ازاء الاستعمار الألمانى ، وكما يظهر لم يكن كل أعضاء الوزارة الانجليزية يشاركون جرانفل رأيه فى عرقلة المشاريع الألمانية .

---

(١) نفس المصدر هربرت بزمرك الى بزمرك ١٦ يونيو سنة ١٤٨٨

ومن بين هؤلاء شخصية فذة سيكون لها أثر عظيم فى توجيه الاستعمار الانجليزى وجهته المعاصرة ، وهى شخصية جوزف تشمبرلن Joseph Chamberlain . نبغ تشمبرلن فى وزارة الأحرار وأصبح له فيها نفوذ كبير بالرغم من أن الوزارة التى كان يتولى شئونها ، وهى وزارة التجارة ، لم تكن وزارة كبيرة . لم يكن تشمبرلن فى ذلك الوقت (١٨٨٤) بكبير الحب لفرنسا ، وكان من القائلين بشراء الصداقة الألمانية ، وكان يعضده فى ذلك الرأى لورد هاردنجتن Hartington وسير تشارلز ديلك Charles Dilke والبرنس أوف ويلز ولى عهد انجلترا .

على أنه فى هذه الأثناء مات لورد امتهل Ampthill (لورد أودو رسل) ، وكان سفيرا لانجلترا فى برلين مدة سنوات عديدة عمل فيها على توثيق الصلات بين ألمانيا وانجلترا ، فكان لموته أثر سيىء على العلاقات الانجليزية الألمانية ، فلقد عرضت الحكومة الانجليزية تعيين سير روبرت موريير Robert Morier خلفا له ، فرفض بزمرك لأنه لم يكن ترقه شخصية ذلك الرجل ولا آراؤه السياسية ، فأسرعت الحكومة الانجليزية الى تعيين سير ادوارد مالت Edward Malet قنصلها الجنرال السابق فى مصر سفيرا لها فى برلين ، وهو رجل برز فى ناحية السياسة والدبلوماسية . وفى هذه الأثناء أيضا كان بزمرك قد هدد انجلترا بأنه اذا استمرت الحكومة الانجليزية فى موقفها العدائى ازاء المشاريع الألمانية الاستعمارية فسيقطع نهائيا الصلات الطيبة معها ، وسيعمل على التقريب ما بين وجهات النظر الألمانية والفرنسية ، وعمل فعلا على اثارة صعوبات لا يستهان بها لانجلترا فى مصر وخاصة فى مسألة صندوق الدين [1] . بل وذكر الحكومة الانجليزية بلهجة حاسمة بضرورة احترام المعاهدات التى عقدتها مصر قبل الاحتلال مع الدول الأوربية . وكانت انجلترا قد فكرت فعلا فى تغيير بعضها [2] .

(١) الوثائق الألمانية إلى هربرت بزمرك ٩ يوليو سنة ١٨٨٤
(٢) نفس المصدر مذكرة وليم بزمرك السياسية بتاريخ ٢٣ أغسطس سنة ١٨٨٤

فلا عجب اذن اذا رأت وزارة جلادستون أن تطاطىء الرأس أمام ألمانيا ، وكان جرانفل وزير الخارجية الانجليزية فى نظر الألمان قد كبر سنه وفقد ذاكرته واضمحلت أعصابه ، وكان هو ووزير المستعمرات لورد داربى مصدر قلق كبير لألمانيا « فلورد داربى شخصية لايمكن الاعتماد عليها كثير الشك يرى مصيدة فى كل شىء »[١] .

تراجعت الحكومة الانجليزية حين وجدت أن الأمور قد تحرجت عليها فى مصر نتيجة لموقف ألمانيا العدائى . وظهر ذلك التراجع فى التصريحات التى أدلى بها سيرتشارلز ديلك لهربرت بزمرك المبعوث الألمانى فى لندن . فلقد حمل ديلك بعنف على سياسة جرانفل نحو ألمانيا ونعى عليه اضطرابه فى سياسته واعوجاجه وقصر نظره فى المسائل الاستعمارية ، وأن من حق الحكومة الألمانية أن تحتج على سلوكه الغبى ، وأن الخطأ بلا ريب هو خطأ انجلترا ، فقرر هربرت بزمرك أن الصحف الانجليزية أيا كان لونها الحزبى قد هاجمت ألمانيا ، وحاولت افساد العلاقات الألمانية الفرنسية ، وأن انجلترا يجب أن تعرف أن المنازعات بين ألمانيا وفرنسا ليست قيدا فى أرجل ألمانيا تستغله الدول الأخرى ، وأن لورد جرانفل « قد قدر صداقة ألمانيا لانجلترا كصداقة الدنمارك أو اليونان ، وأنه لعله الآن يعرف من التجارب مدى قوة ألمانيا وقيمة صداقتها حين تعقدت أمور مصر » .

حينئذ كرر ديلك اعتذاره وقال ان سياسته كانت ولا تزال دائما التعاون التام مع ألمانيا ، « فانكم لن تذهبوا الى حد اعلان الحرب علينا من أجل مصر ، ولكن فرنسا قد تفعل ذلك ... وما يجب علينا أن ننظر اليه دائما هو موقف فرنسا نحو الأعمال التى نجد أنفسنا مضطرين الى اتخاذها فى مصر »[٢] .

---

(١) نفس المصدر هربرت بزمرك إلى بزمرك ١ أكتوبر سنة ١٨٨٤ .

(٢) الوثائق الألمانية مذكرة سياسية لهربرت بزمرك ٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤

كان بزمرك لا يرى فى مسألة مصر أمرا حيويا بالنسبة لألمانيا ، وأن المسألة الاستعمارية مسألة حيوية بالنسبة لهـا ، لارضاء المستعمرين الألمان من ناحية ، واستصلاح الرأى العـام وتدعيم موقف الحكومة الداخلى ، وكان يعلم أن الموقف الذى وقفه فى مسألة مصر كان نتيجة طبيعية لوقوف انجلترا أمام أمانى ألمانيا الاستعمارية ، فكما يقول « ان أقل ركن فى غينيا الجديدة أو افريقية الغربية حتى ولو لم تكن له قيمة فى ذاته هو أهم فى نظرنا وفى سياستنا من كل مصر ومستقبلها » [١] . فالرأى العام الألمانى لا يهتم بأمور مصر ، والمستعمرون الألمان قد وجهوا عنايتهم الى مناطق بكر جـديدة لم تكن مصر ، المثقلة بالديون والتى وقفت معظم مواردها على خدمة الدين ، واحدة منها . ولقد اتهم المستشار الألمانى انجلترا بالعمل على ايقاع الشحناء بينه وبين فرنسا وروسيا ، فانجلترا ، كما يقول ، تعمل على اثارة الأمور فى أوربا ضد ألمانيا حتى تستطيع أن تنفذ بنجاح سياستها الاستعمارية فى مصر وفى افريقيـة والشرق .

ولذا حين خطب جرانفل فى البرلمان الانجليزى فى ١٧ فبراير سنة ١٨٨٥ ، وأراد أن يورط ألمانيا أمام الرأى العام ، فقرر أن ألمانيا تعطف دائما على مركز انجلترا فى مصر ، وتؤيدها فى سياستها تأييدا تاما ، صحح بزمرك مركز ألمانيا ، وأكد أن تصريحات جرانفل غير دقيقة وغير صحيحة ولا تطابق ما حدث فعلا ، « وأن بزمرك عمل على المحافظة على حقوق السلطان فى مصر » ، « وأنه لم يكن عنده مانع من أن تعمل انجلترا على بسط نفوذها فى مصر بمفاوضات ودية مع السلطان وبتعاون السلطان ، وأن ألمانيا ليست لها مصالح مباشرة فى مصر تجعلها تثير عقبات جدية فى وجه انجلترا » [٢] .

---

(١) نفس المصدر بزمرك إلى منستر ٢٥ يناير سنة ١٨٨٥

(٢) الوثائق الانجليزية المنشورة فى الكتاب الأزرق الانجليزى Blue Book لسـنة ١٨٨ صحيفة Nôrd Deutsche Allgemeine Zeitung ٢ مارس ١٨٨٥

لقد كان جو المحادثات بين انجلترا وألمانيا عاصفا ، وكان جرانفل كثيرا ما تثور ثائرته ويغضب ، ولكن موقف ألمانيا بالنسبة لمصر أرغمه على التراجع والتسليم بمطالب الألمان جميعها . وجاء جلادستون نفسه الى هربرت بزمرك يعلن له أنه يشجع ألمانيا فى سياستها الاستعمارية ، وأنه مبتهج لآمالها الحضارية . ولعل السبب المهم الذى جعل الانجليز يتراجعون هو احتمال تعاون ألمانيا وفرنسا البحرى ، فبحرية ألمانيا وفرنسا مجتمعتين متفوقة فى ذلك الوقت على البحرية الانجليزية ، ولما كان التقارب قويا بين بزمرك وجيل فرى Jules Ferry رئيس الحكومة الفرنسية ، فبزمرك يؤيد مطالب الفرنسيين الاستعمارية وموقفهم فى المسألة المالية المصرية ، وفرى يؤيد ألمانيا ، استطاع التحالف الجديد تحقيق أغراض الطرفين فى مؤتمر برلين سنة ١٨٨٥ . على أن بزمرك لم يشأ أن يتحدى انجلترا أكثر من هذا ، فهو لا يثق تماما بفرنسا ، وانجلترا من ناحيتها فى أشد الحاجة الى صداقة بزمرك ، فالحالة فى السودان كانت سيئة للغاية ومنذرة بشر مستطير ، ففى أول سنة ١٨٨٥ سقطت الخرطوم فى يد المهديين ، وقتل جوردون Gordon ، وضاع ما كان لانجلترا من مركز فى الشرق بأكمله ، واقتحمت الجيوش الروسية حدود الأفغان وهددت الهند ، وتجمعت المتاعب والأزمات على انجلترا فى افريقية وآسيا بشكل خطير .

صفا الجو أخيرا بين ألمانيا وانجلترا بتراجع وزارة الأحرار ، وزاد الجو صفاء سقوط هذه الوزارة ، فلم تعد ألمانيا تحرك مسألة مصر من جديد ، اذ كانت سياسة المحافظين التقليدية المحافظة على صداقة ألمانيا . فعاد بزمرك الى تأييد سياسة انجلترا فى وادى النيل ، ويظهر هذا حين وجدت الحكومة الانجليزية نفسها مضطرة الى الاتصال بألمانيا لتتعرف رأيها فى أمر مصير مصر ، وذلك فى سنة ١٨٨٦ حين أثار لورد راندلف تشرشل Rundolph Churchill مسألة مصر أمام السفير الألمانى فى لندن .

وأبدى قلقه الشديد من أن احدى الدول الكبرى عازمة على تهديد مركز الانجليز فى مصر ، باثارة موضوع جلاء الانجليز عن وادى النيل مرة أخرى ، وطلب معرفة موقف ألمانيا ازاء هذه الحالة المملوءة بالنذر وقال : « ان فى يد ألمانيا الآن اضعاف مركز المحافظين على مسألة مصر » ، فرد هاتسفلت Hatzfeldt السفير الألمانى فى لندن بأن المسألة لن تثور بشكل جدى فى الوقت الحاضر ، نظرا للعلاقات الطيبة بين ألمانيا وانجلترا ، وعقب بزمرك فى برلين بأن ألمانيا لن تشترك مع أى دولة أخرى فى أى مطلب يتعلق بموقف الانجليز فى مصر . أما اذا لم تتعاون انجلترا مع ألمانيا فى المسائل الاستعمارية فالموقف لابد متغير [١] . ولقد بالغ تشرشل فى شكر الألمان ، وبين أن الموقف الألمانى سيجعل الحكومة الانجليزية مطمئنة الى وضع مشاريعها الخاصة بالمالية المصرية ، فلن تخشى الآن شيئا من فرنسا [٢] .

وكان شك بزمرك المريب فى سياسة فرنسا الخارجية هو الذى حمله على أن يمضى فى سياسته القائمة على صداقة انجلترا وتأييد سياستها فى مصر ، فهو يصرح لحكومة سولسبرى « نحن لا نستطيع أن نعتمد على الفرنسيين كحلفاء لنا حتى فى وقت الدفاع ، فالعداء بيننا وبينهم قديم وسيظل باقيا وليس أمامنا سوى الانضمام الى جانب انجلترا » [٣] .

زال بزمرك من مسرح السياسة الأوربية فى سنة ١٨٩٠ ، ولم تختلف سياسة القيصر الألمانى فلهلم الثانى أو المستشار الجديد كابريفى عن سياسة بزمرك فيما يختص بمصر وان اختلفت دوافعهما الى حد ما عن دوافعه . وكان الدافع لهما على انتهاج خطة بزمرك هو التقارب الجديد بين فرنسا وروسيا الذى تم بعقد التحالف بين الدولتين . فكان من الطبيعى

---

(١) الوثائق الألمانية هاتسفلت إلى بزمرك ٢٠ سبتمبر ١٨٨٦ وبرقية بزمرك إلى هاتسفلت ٢٤ سبتمبر ١٨٨٦

(٢) نفس المصدر هاتسفلت إلى بزمرك ٢٤ سبتمبر ١٨٨٦

(٣) نفس المصدر رقم ٧٠٢ عن Langer: European Allianees.

أن تتجه ألمانيا شطر انجلترا وأن تهتم بقدر المستطاع بالمحافظة على صداقتها بتأييدها . فأوربا قد انقسمت الى معسكرين المعسكر الألمانى ، والمعسكر الفرنسى الروسى فكان هدف ألمانيا الطبيعى ضم انجلترا إلى المعسكر الألمانى ، ووجدت ألمانيا فى التحالف الثلاثى بينها وبين النمسا وايطاليا خير وسيلة لارضاء الحكومة الانجليزية سواء أكانت حكومة سولسبرى أو جلادستون . فكما يكتب وزير الخارجية الألمانية مارشال Marshall الى سفيره فى لندن هاتسفلت ، وذلك فى سنة ١٨٩٣ « انا سنستمر فى تأييد انجلترا طالما كانت لها سياسة مستقرة فى مصر والشرق الأدنى » .

«ومن اللحظة التى نعتقد فيها أن انجلترا غير قائمة بذلك ، أو نالها الوهن أمام روسيا وفرنسا ، يجب أن نبحث وسائل أخرى لوقف أى اعتداء من جانب التحالف الفرنسى الروسى » [1] ، فألمانيا اذن مستعدة للأخذ بناصر انجلترا طالما وقفت انجلترا حاجزا قويا أمام مطامع فرنسا وروسيا .

فلا غرابة اذن اذا ناصرت الحكومة الألمانية وزارة سولسبرى نصرا مؤزرا ، واذا أيدت وزارة روزبرى من بعده تأييدا قويا ، فكلاهما الى حد كبير كان ميالا الى الانضمام الى التحالف الثلاثى معضدا لسياسته . وهذا يفسر لنا تأييد ألمانيا لانجلترا فى مشاريعها المتعلقة بالدين والقضاء ومحاولاتها اصلاح الحالة فى مصر ، كما يفسر لنا جهود ألمانيا فى تهدئة روع الباب العالى من ناحية مركز الانجليز فى مصر ، والتقريب ما بين وجهتى النظر العثمانية والانجليزية فيما يختص بمصر ، ومحاربة جهود فرنسا المستمرة فى اثارة الباب العالى للاحتجاج ضد انجلترا أو عرض مسألة مصر من جديد على الدول الكبرى .

ولما جاءت وزارة روزبرى التى تعين فيها لورد كمبرلى Kimberley وزير الخارجية ظلت ألمانيا على موقفها لا تثير صعوبات أمام انجلترا طالما لم تمس المصالح الألمانية بضرر وطالما كان لورد كمبرلى مخلصا فى

---

(١) الوثائق الألمانية ٩ يوليو سنة ١٨٩٣

تنفيذ آراء رئيسه روزبرى . ولذا لما أعوج كمبرلى قليلا عن السنن الذى اختطه رئيسه ، وهدد بالتقرب من فرنسا وذلك حين أبدت الحكومة الألمانية بعض المعارضة للسياسة الانجليزية فى مصر فى سنة ٨٩٤ ، بينت الحكومة الألمانية له بأنه مخطىء فى اتباع مثل هذه السياسة ، وأنه سينجم عن ذلك لانجلترا متاعب لا قبل لها بها ، وأن الحكومة الألمانية تعلم أن السفير الفرنسى قد هدد انجلترا بالتقرب من ألمانيا نهائيا والتفاهم على مسألة الالزاس واللورين ، وأنها أى الحكومة الألمانية تستطيع تهديد انجلترا واثارة مشاكل معقدة لها بتأييد سياسة فرنسا فى مصر وتستطيع بعد ذلك التفاهم مع الفرنسيين فيما يختص بحدود الرين . فما كان أمام وزير الخارجية الانجليزية الا الاسراع الى التراجع ، واضطر لورد كمبرلى الى تغيير موقفه وتحسين لهجته مع ألمانيا ، وشكرها على موقفها العام ازاء انجلترا فى مصر (١) ، ونتيجة لذلك أصدرت الحكومة الألمانية الى قنصلها العام فى مصر بارون فون هايكنج Von Heyking بتعليمات توجه نظره فيها بألا يعارض سياسة انجلترا وألا ينضم الى أعدائها فى المستقبل الا اذا جاءته أوامر من حكومته تفيد ذلك .

وكان يهم ألمانيا فى ذلك الوقت بقاء مسألة مصر معلقة ومعقدة وموضع تنازع شديد بين انجلترا وفرنسا حتى ترى الحكومات الانجليزية ضرورة المحافظة دائما على صداقة ألمانيا ، كما كان يهم ألمانيا ألا تؤيد سياسة انجلترا على طول الخط حتى لاتعتبر انجلترا ذلك واجبا يجب أن تؤديه ألمانيا باستمرار نحوها ، ولكن ينبغى أن تكون سياسة ألمانيا نحو مصر — كما يرى الساسة الألمان من القيصر الى المستشار كابريفى الى وزير الخارجية مارشال — يجب أن تكون سياسة ألمانيا بصفة عامة مبهمة لاتعرف انجلترا حدودها ولا منتهاها ولا مقاصدها ، وأن تقوم بتأييد السياسة الانجليزية فى المناسبات المختلفة حسب ما تملى المصالح الألمانية

---

(١) نفس المصدر مارشال إلى هاتسفلت ٢ مايو سنة ١٨٩٤

ومصالح التحالف الثلاثى [١] . وأن تتخذ ألمانيا من مسألة مصر وسيلة لتسوية حسابها مع انجلترا فى المسائل الأوروبية والمسائل الأخرى التى تهمها .

ولهذا لم يتورع القيصر الألمانى عن تهديد انجلترا بمعارضة سياستها فى مصر اذا لم تحل مسألة الكنغو حلا مرضيا لألمانيا ، وتم للقيصر ما أراد ، « فمصر كما يقول بارون فون روتنهام فى وزارة الخارجية الألمانيـة ، كبلغاريا بالنسبة لنا ، ليست غاية سياسية فى حد ذاتها ، ولكنها وسيلة لتنظيم علاقات ألمانيا مع الدول الأوربية (وخاصـة انجلترا) بطريق تنفق والمصالح الألمانية » . ولذا لايهم ألمانيا القيصرية فى ذلك الوقت أن يشتجر الخديو عباس الثانى فى نزاع مستمر مع لورد كرومر ، ولا يهمها من يكون المنتصر منهما ، ولا يهمها اذا كان الرأى العـام المصرى قد نما شعوره بالقومية ان تعارض هذا مع المصالح الألمانية ؛ وانما يهم ألمانيا قبل كل شىء أن تكون صديقة لانجلترا ، وأن تقوم مشاكل معقدة فى مصر لاتستطيع انجلترا حلها وحدها ، فتضطر الى طلب المعونة من ألمانيا والانصراف عن الوفاق الثنائى الفرنسى الروسى [٢] .

وحين قررت الحكومتان المصرية والانجليزية استرجاع السـودان والقضاء نهائيا على ثورة المهديين الدراويش وانتهز القيصر هذه الفرصة لتأييد سياسة انجلترا تأييدا تاما ضد فرنسا ، هددت فرنسا ، وثار الرأى العـام الفرنسى وأنذرت الحكومة الفرنسية بالحرب . ولكن التـأييد الألمـانى قوى من مركز انجلترا بدرجة جعلتها تتحدى فرنسا ، وتقوم بتنفيذ أغراضها ، وترسـل الحملة المصرية آمنة مطمئنة . وافق القيصر الألمانى أولا على أن تقوم المالية المصرية بنفقات الحملة الى دنقلة الا أنه

---

(١) نفس المصدر Rothenham فى وزارة الخارجية الألمانية إلى بارون فون هايكنج ٥ يوليو سنة ١٨٩٤

(٢) الوثائق الالمانية بارون فون روتنهام إلى بارون فون هايكنج ٥ يوليو سنة ١٨٩٤

رفض رفضا باتا مشروع سولسبرى الذى يرمى الى تقسيم الدولة العثمانية والانفراد بمصر ، فالقيصر صديق الدولة العثمانية ولا يبغى انحلالها فى ذلك الوقت ، كما أن القيصر الألمانى أيد وزارة سولسبرى فى مسألة استرجاع السودان لأنه كان يعمل على ازالة الأثر السيىء الذى أحدثته برقية كروجر فى انجلترا ، هذه البرقية التى أثارت الحكومة الانجليزية والرأى العام الانجليزى ضد ألمانيا ، ولذا فقد كان يخشى أنه اذا لم تؤيد الحكومة الألمانية انجلترا فى مسألة السودان ربما دعا ذلك الموقف انجلترا الى التفكير فى تغيير سياستها نحو ألمانيا وتعضيد الفريق الانجليزى القائل بضرورة اصلاح العلاقات الفرنسية الانجليزية والانضمام الى الوفاق الثنائى الفرنسى الروسى . لاسيما وأنه أى القيصر كان يعلم جد العلم أن لورد سولسبرى ولو أنه ميال الى مجاملة ألمانيا والى تأييد سياستها الأوربية والاستعمارية الا أنه غير ميال الى تجديد اتفاقية البحر الأبيض مع صديقة ألمانيا وهى ايطاليا الاتفاقية التى عقدت فى سنة ١٨٨٧ هذه الاتفاقية التى كانت ضمانا كبيرا لنفوذ دول التحالف الثلاثى فى البحر الأبيض ، كما كان يعلم أن سولسبرى يود لو استطاع تحسين علاقاته بفرنسا والاتفاق معها على المسائل المختلف عليها بينهما .

وكان تأييد ألمانيا لانجلترا فى نظر القيصر الألمانى ضروريا جدا من ناحية أخرى ، وذلك لخدمة أصدقائه الايطاليين الذين انهزموا انهزاما منكرا أمام الأحباش فى موقعة عدوه ، فلقد كان القيصر دائم الاتصال بانجلترا يحاول اقناعها بضرورة اغاثة الايطاليين خلفائه . ولذا حاولت وزارة سولسبرى تبرير الحملة المصرية الى السودان أمام دول التحالف الثلاثى ألمانيا والنمسا وايطاليا برغبة انجلترا فى نصرة الايطاليين الحبشة .

وبالرغم من الاتفاق الودى الذى تم بين انجلترا وفرنسا فى سنة ١٩٠٤ بشأن مصر ومراكش ، ذلك الاتفاق الذى أطلق يد الانجليز حرة فى مصر ،

واعترفت فيه فرنسا بالاحتلال الانجليزى ، ولم تعد انجلترا فى كبير حاجة الى تأييد ألمانيا السياسى — بالرغم من ذلك فقد ظلت العلاقات الانجليزية الألمانية بالنسبة لمصر بصفة عامة جيدة ، فلم تعمل ألمانيا من جانبها على احراج مركز الانجليز فى مصر ، وذلك خشية زيادة توثق العلاقات الفرنسية الانجليزية ، فلقد كانت السياسة الألمانية ترمى الى الفصل بين الدولتين بكل الطرق الممكنة . كذلك لم تبد ألمانيا حماسا كبيرا لمشاريع الانجليز فى مصر . ومن ناحية ثالثة كان اهتمام ألمانيا منصرفا عن مسألة مصر وموجها الى السياسة العالمية سياسة الـ Weltpolitk ، الى المسائل التى تهم ألمانيا مباشرة ، مسائل آسيا الصغرى والعراق حيث كانت ألمانيا تعمل على مد نفوذها الى بغداد والخليج الفارسى ، الى مسائل الشرق الأقصى ، وخاصة بعد الحرب الروسية اليابانية التى اندحرت فيها روسيا والتى أخذت بعدها اليابان تتزعم شرقى آسيا . وهناك مشاكل البلقان التى أخذت تنذر باصطدام خطير بين دوله الناشئة ، وبنزاع خطير بين حليفة ألمانيا وهى النمسا وبين روسيا .

وظل موقف ألمانيا بالنسبة لمصر لم يتغير حتى قامت الحرب الكبرى الأولى بين انجلترا وألمانيا ، وأعلنت انجلترا زوال سيادة تركيا وبسطت حمايتها على مصر ، فكان من الطبيعى ألا تعترف ألمانيا بذلك التغيير فى مركز مصر ولا فى مركز الانجليز فى مصر ، وبعد ذلك فتركيا التى كانت لها السيادة فى مصر حليفة لألمانيا ، ولذا ظلت ألمانيا على رأيها بأن مصر جزء من الدولة العثمانية ، وأيدت الأتراك فى محاولتهم اليائسة غزو مصر من الشرق وطرد الانجليز منها . الا أن انهماك الألمان فى الحرب واضطرارهم الى قبول معاهدة فرساى أرغمهم على الاعتراف بالحماية الانجليزية على مصر . ولما أعلنت انجلترا انتهاء الحماية وتصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ كانت ألمانيا من الدول التى اعترفت بالمركز الجديد لمصر ، وتبادلت التمثيل السياسى معها .

محمد مصطفى صفوت

مكانة مصر فى كتاب توينبي

(دراسة للتاريخ)

> هذا المقال خلاصة للتاريخ المصرى كما أفاد منه الأستاذ توينبى ، واجمال للنتائج التى خلص اليها فى دراسته له ، وقد روعى فيه ، على قدر الاستطاعة ، استعمال العبارات التى وردت فى معرض تفكيره وتدليله فى الأجزاء الستة التى تم نشرها من كتابه الضخم « دراسة للتاريخ » . ويشتمل التذييل على المراجع التى استند اليها فى هذه الدراسة الخاصة للتاريخ لمصرى ، وهى دراسة لاغنى عنها لنظريته بأسرها .

ان كتاب « دراسة للتاريخ » للأستاذ توينبى ، بأى المقاييس قسته ، هو مأثرة من مآثر هذا القرن العشرين . فهو لا يبارى ضخامة ، اذ تشتمل أجزاؤه الستة التى تم نشرها على أكثر من مليونى كلمة ، وهو اذن علامة على هذا العصر الذى يتعشق الضخامة لذاتها . ولكنه الى ذلك استجابة فعالة ، من عالم فرد ، يستجيب بها لهذه الحضارة المنحلة . فعلى النقيض من أولئك الذين لا يجدون فى التاريخ اتساقا ولا نظاما ولا وحدة ، ترى توينبى يؤكد أن للتاريخ هدفا روحيا ، وأن ادراكنا كفاح الانسان صعدا يضفى على التاريخ معنى ودلالة بدونهما يكون سجلا للمعارك الدامية ليس الا ، وهو ينكر قطعا ما ساد فى القرن التاسع عشر من بدع جعلت للدول والحضارات كيانا روحيا ، واعتبرتها أشياء لها ذاتية ، ويقيم فلسفته على هذا الرأى : وهو أن الحضارات انما تمثل الصلات القائمة بين ناس يعيشون فى مجتمع مافى وقت ما . وهو ينتقض كذلك على ما كان يدين به القرن التاسع عشر من عقيدة سهلة هينة ، وتلك هى أن التقدم أمر محتوم ، وأن التاريخ بجملته ليس الا تجهيزا

وتمهيدا للحاضر • وهو متفق مع الفلكيين على بيان تفاهة الانسان ، بل ربما تفاهة الحضارة الانسانية أيضا ، ولكنه يؤكد فى الوقت نفسه أن هذه التفاهة درجية لا نوعية •

ولقد فشت بين الناس عقيدة تذهب الى أن حضارة خاصة من بين الحضارات تعين بلوغ التاريخ الانسانى حد الكمال • تشبث بهذه العقيدة بناة الأهرام قديما كما يتشبث بها اليوم أعظم أقطاب الصناعة الحديثة فلاحا ، وواصل ترديدها دعاة الاحياء من ملوك الأسرة السادسة والعشرين ، وورثتها طائفة الكهنة المصريين التى ظلت طوال عهد الفرس والبطالمة والرومان تحافظ على سنة ثقافة مصرية كان قد عراها التحجر والجمود منذ أمد طويل ، وذلك على الرغم من اتصال هؤلاء الكهنة بشعوب أخر ، لو فاضل المنزهون من الأغراب بينها وبين مصر لآثروا على حضارة مصرحضارة هذه الشعوب • ويمكن أن يشبه كشف المجتمع المصرى حضارة البابليين والحثيين فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أثناء هجمات المصريين المضادة على الهكسوس عبر صحراء سينا ، بكشف الصينيين حضارة الغرب منذ عهد قريب • وليس فى عرف توينبى شىء اسمه وحدة حضارة ، فما هذا الا وهم خلقته أنانية الشعوب • وانما الحضارات أنواع ، فلا حضارة فذة لا نظير لها ، ولا يحتمل أن تكون حضارة من الحضارات سائرة على خط الارتقاء الرئيسى •

ولم يك بد من أن يحارب المؤلف ، وهو يلفت النظر الى هذه الحقائق ، الآراء التى يدين بها دعاة « مذهب انتشار الحضارة » من علماء الأنثروبولوجيا البريطانيين • فهم يذهبون الى أن المصريين القدماء فى عصر بناة الأهرام هم « الشعب المختار » الذى تفرد بالمواهب والقدرة على الأبداع ، وأنهم هم الذين اخترعوا الحضارة التى طافت من ثم فى أرجاء الأرض ، فالحضارة المصرية اذن نسيج وحدها لأن مصر هى فى عرفهم البلد الأوحد ، على ظهر البسيطة ، الذى نبت فيه شىء اسمه

الحضارة ، مستقلا عن أية معونة خارجية ، وكل ما عداها من أنواع الحضارات مشتق منها .

وليس من العسير تفنيد هذه الدعوى (أولا) لقلة ما يؤيدها من أدلة ، خصوصاً اذا ذكرنا المجتمعات الصينية والمكسيكية والأندية . (ثانيا) لأنه من الجلى ، على ما يظهر ، أن تركيب مخ الانسان يتيح للعقول أن تصل الى نفس الأفكار والكشوف والنتائج فى وقت واحد فى أمكنة تبعد أميالا كثيرة عن بعضها البعض . يؤيد هذا الرأى أمثلة عديدة جادت بها الكشوف العلمية الحديثة ، فقد كشف الناس عدة مرات فى التاريخ مبدأ العقود والقباب ، والنظم السياسية تتكرر تكرارا متصلا مع تغيير طفيف ، أضف الى ذلك أن معظم الحضارات المستقلة من صنع أقوام مخلطى الأصول . وأنت تلحظ عناصر أجناس أربعة على الأقل فى الشعب المصرى ، أقدمها جميعا سكان البحر المتوسط الأولون ، اتحدت بهم عناصر زنجية من الجنوب ، ثم تدفقت عليهم أفواج جديدة من سكان البحر المتوسط أقبلت من الشمال الغربى ، وجموع من الألبيين الأرمن قدمت من الشمال الشرقى . ولا يسع المرء ، أمام هذا الاختلاط ، أن يسلم بأن ابتكار الحضارات وظيفة جنسية خاصة تفردت بها فروع معينة من الدوحة الانسانية ، ولو أنه من المسلم به أن الجنس الزنجى لم يساهم البتة بقسط غالب فى حضارة حية الى الآن .

وكتاب « دراسة للتاريخ » حافل بالصور الرائعة . فأنت ترى جبلا سحيقا قائم الانحدار يبدو من ثنايا الضباب وتتوارى خلف السحب قمته ، وعلى جوانب الجبل القائمة كثير من المتسلقين ، منهم من هوى فلقى حتفه وظل محطما لا حراك به ، ومنهم من تشبث بالجبل بأطراف أصابعه وقد تحرج موقفه لأنه أسرف تصعيدا ، وقليل منهم من ظل قائما يشق طريقه قدما وصعدا . على أن هذه الجروف التى تبدو للعيان لا تمثل من الزمن الا برهة وجيزة ، فهذه الستة آلاف سنة من الأضواء والأطياف

التى تمثل التاريخ المكتوب ، تقوم على ٣٠٠٫٠٠٠ سنة من الظلام .

ومن بين الأشباح القائمة على جوانب الجبل ستة وعشرون يتعرف عليهم المؤلف ، ويفاضل بينهم ، وعليهم يقيم نظرياته ، وهو عليم بأنه قد يكون هناك عدد أكثر من هذا العدد جدير بالتعرف عليه ، ولكن نتائج البحث التاريخى الذى يتولاه العلماء الغربيون تتوقف على ما لديهم من المصادر والمراجع ، كما يتحكم مقـدار الخامات وتوزيعهـا فى حياة الانسان وتوجيه نشاطه . فالمعلومات الوافرة التى جادت بها برديات الصعيد الكثيرة تتيح لنا أن نؤلف سجلا يوميا للحياة فى عصر البطالمة . على أن هذا التلاقح بين حضارة الأغارقة والمصريين لم يكن مثمرا اذا قيس بما بلغته دولة أخرى من الدول الوريثة لدولة الاسكندر الأكبر ، وتلك هى دولة السلوقيين التى رسخت أقدامها فى آسيا ، والتى أزوجت أرضها حضارة الأغارقة بحضارة السوريين ، فقدمت الى العالم فكرة الملوكية الالهية كمبدأ يربط بين دول المدن (التى كانت النموذج الأول الذى على غراره أتت الدولة الرومانية) ، وكانت التربة التى عجلت بنضج الأربعة الأديان التوفيقية الكبرى ، وهى المثرية والمسيحية والمانكية والاسلام . ولكن ما معلوماتنا عن دولة السلوقيين ؟ ضئيلة جدا فى الحق ، وهذا القدر الضئيل ركبت أشتاته من الشواهد القليلة التى تشهد بها الآثار والنقود القديمة . وهكذا « أصبح الفخارى عبدا تتحكم فيه طينته » كما يقولون .

وهناك خمس حضارات يفرزها توينبى من بين الستة والعشرين التى يستطيع بصعوبة أن يراها على جوانب الجبـل ، ومن بين الاحدى والعشرين التى أعقبت . وهذه الحضارات الخمس لا تزال تكافح وتناضل فى شىء من القوة ، ولو أن أربعا منها — وهى الحضـارة المسيحية الأرثوذكسية (فى الروسيا والجنـوب الشرقى لأوربا) والحضـارة

الاسلامية والحضارة الهندية وحضارة الشرق الأقصى (فى الصين وكوريا واليابان) — تبدو عليها علامات الانحلال الوشيك ، أما الخامسة وهى الحضارة الغربية (فى أوربا الغربية والامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية) فهى تتنفس فى جهد وعناء على الرغم من أنها بسبيل تحويل غيرها من الحضارات أو استغراقه • ويرى توينبى شبحا راقدا على جرف يعلو فوق الضباب ، شبح حضارة مجيدة فى تاريخها ، ممتازة بجلائل أعمالها ، طموحة فى أهدافها ، عمرت فى الأرض أكثر مما عمر غيرها من الحضارات ، ولها سجل للحوادث عظيم القيمة فى تدعيم نظريته • فقد استغرق التاريخ المصرى أكثر من أربعة آلاف عام ، وعمرت هذه الحضارة — وهى الوحيدة الممثلة لنوعها — أطول من أية حضارة اتصل بها علمنا ، وهذا على الرغم من أنها على مايبدو احدى الحضارتين الوحيدتين اللتين لاتمتان الى غيرهما من الحضارات بسبب[1] • وتاريخها من الألف الرابع قبل الميلاد الى القرن الخامس الميلادى يمتد فترة تربو على أضعاف عمر الحضارة الغربية • ولا يمثلها فى العالم اليوم ورثة ولا قيمون ، وليست لها بقايا حفرية ولا جماعة انسانية تمت لها بقرابة أونسب ، « ولقد ظفرت أعظم الظفر فى الخلود الذى نشدته فوجدته فى الحجر » ، فمن المحتمل أن تعمر الأهرام التى سلخت فى الأرض أربعة أو خمسة آلاف عام ، مائة ألف عام أخر ، بل قد تظل حية بعد أن يفنى النوع الانسانى كله « فتقوم حينئذ شاهدا على المجتمع المصرى الذى شادها ، فى عالم قد خلا من الحواس الانسانية التى تتلقى شهادتها ، ومن العقول البشرية التى تفهمها » •

ونظرية توينبى فى التاريخ نظرية منطقية ، فهو يجد فى عمليات «التحدى والاستجابة » مغزى يرتب عليه تفسير التاريخ • فالقوى الخارجية

---

(١) الحضارة الثانية هى الأندية •

تتحدى جماعات الناس ، فاذا حالفها النجاح فى الاستجابة انطوى هذا النجاح على ألوان جديدة من التحدى والاستجابة ، واذا باءت بالفشل أطلق تصدع الجماعة ، الذى يعقب الفشل ، عقال قوى مبدعة جديدة على مستوى أرفع من مستواها فى النضال السابق • وليس النجاح مرة دلالة مطمئنة على المستقبل ، فقد يصيب الجماعة أحيانا غلو فى الثقة بنفسها • وكل الحضارات التى عالجها المؤلف درسا عطبت أو ظهرت عليها بوادر العطب ، ونفس الأسباب التى حدت بتوينبى الى تناول هذا البحث اطلاقا قد حفظته من التورط فى ذلك الخيال الذى يتوهم أن الحضارة الغربية هى الغاية التى ينتهى عندها خط الارتقاء الرئيسى •

ويرى المؤلف فى كل حضارة أقلية مبدعة يمكن أن تعد على التقريب ، الطبقة الحاكمة • فاذا فقدت هذه الأقلية قدرتها على الابداع دخلت الدولة فى « فترة اضطرابات » يثيرها « المحرومون » من الداخل أو من الخارج ، وهو يستعمل كلمة « المحرومين » Proletariate بمعناها الأصلى هنا ، نعتا لأولئك الذين يعيشون فى جماعة ولكنهم ليسوا منها ، لامصلحة لهم فى المجتمع ولا يساهمون فيه الا بأعقابهم • و « فترة الاضطرابات » يتلوها أو يتخللها مجهود للم الشعث تقيم به كل حضارة « دولة عامة » تكفل للناس استتباب الأمن والنظام مرة أخرى • وفى غالب الأحايين يكون الانهيار الذى يعقب ذلك انهيارا لارجعة فيه ، ولو أنه قد تقوم جهود صغيرة أشبه بصحوة الموت • والضربة القاضية يسددها شعب واحد يقيم بها نوعا من الدولة العامة • فقد أصبحت روما — بعد أن صرعت قرطاجنة ومقدونيا — الدولة العامة للحضارة الاغريقية • والدولة العامة المصرية تأسست سنة ٢٠٧٠/٦٠ ق•م على يد فرعون الأسرة الحادية عشرة ، الذى خلد عمله الجليل بتلقيبه نفسه « موحد الأرضين » ، وبعد العصر الذهبى الذى تمتعت به مصر تحت حكم الأسرة

الثانية عشرة انتهت الدولة الوسطى بفترة الفوضى التى انتصرت فيها البربرية بغزوة الهكسوس •

والدول العامة التى تبدو قوية هى احدى خدع التاريخ العظمى ، فهى فى أغلب الأحايين دليل على أن الحضارة فى طريق الاضمحلال ، وهذا الاضمحلال ترافقه على العموم ظاهرة أخرى هى ظهور كنيسة (أو ديانة) عالمية بين جماهير النـــاس • فالمسيحية كانت الديانة العالمية للحضـــارة الاغريقية ، والاسلام للحضارة السورية ، والبوذية للحضارة الصينية • وقد وجدت جماهير المحرومين المضطهدين فى المجتمع المصرى المتفكك ، اشباعا لما يضطرم فى صدورهم من موجدة ، ورجاء قويا ، فى عبـــادة أوزيريس ، فانصرف العامة عن آلهة مصر القومية ، تلك الآلهة العاتية القاسية ، التى سمحت للأقلية الحاكمة ، بقرابينها الفخمة التى بلغت الذروة فى الأهرام ، أن تشترى الرضا الالهى بثمن هو الاستغلال الصارم لجميع الناس خلا الصفوة المميزة ، واتجهوا صوب اله آخر ، عله ، وقد ذاق مرارة الموت ، أن يمنحهم الخلود بثمن أقل من الثمن الفادح الذى كان رع — الاله الشمس — يقتضيه الفراعنة لقاء منحهم هذا الخلود •

ويتصف سقوط الدولة العامة بـ « تصدع فى جسم المجتمع » يعكس « تصدعا روحيا » غير ملحوظ ، ومن ثم نرى العـلامات الخارجيـة المنظورة للتصدع الروحى البـاطن • وعلى الرغم من ظهور المنقذين وتوقف الانحلال برهة من الزمان ، فان القضـاء لايرحم أحدا • وقد لا يحدث هذا دائما ، ذلك لأن القوى الفاصلة فى التاريخ ليست هى العوامل المادية ، بل النفسية والروحية • والمسرحية الحقيقية يجرى تمثيلها داخل عقل الانسان ، وتقررها الاستجابات لتحدى الحياة ، وما دامت المقدرة على الاستجابة تتفاوت تفاوتا هائلا ، اذن فلا حضارة مقضى عليها بالفناء قضاء مبرما •

ولقـد فسر توينبى هذه النظرية بالأمثلة والمقـارنات يستقيها من

الحضارات المعروفة التى تناولها بالدرس ، ولكن دراساته كلها تقوم على أساس من البحث والاستقصاء فى تاريخ مصر . فقد ولدت الحضارة المصرية — كما ولدت الحضارة السومرية — استجابة لتغير فى المناخ يظن أنه عرا أفريقا وآسيا بعد زوال العصر المطير (وهو ما يقابل العصر الثلجى فى أوربا) . ولما كانت الأحوال المناخية لاتستقر على حال ، فقد غاضت مياه النهر الذى كان يجرى صنوا لنهر السند ، واستحالت المراعى العشبية التى كانت تشرف على وادى النيل الأدنى الى صحراء هى الصحراء الليبية . فتغلغل الرواد الأجرياء فى مستنقعات وادى النيل وأدغاله التى لم تطأها قدم انسان من قبل ، كما تغلغل اخوانهم فى الوادى الأدنى للدجلة والفرات ، « تحدوهم الجرأة أو المغامرة اليائسة » واستطاعت جهود الانسان أن تتحكم فى خصوبة الطبيعة المسرفة . وكان الاقليم متوحشا خلوا من السكان أشبه الأشياء فى منظره باقليم السدود فى بحرى الجبل والزراف . وكان لزاما على أهل مصر أن ينتقلوا ، لأن موطنهم الذى كان غنيا بالمرعى الطيب كان يتحول الى صحراء جرداء ، ولكن محنة الانتقال هذه ، وهى محنة لم يسبق لها نظير فى هذا الاقليم ، كانت الزخم الذى قذف بالحضارة المصرية الى النور . وثمة « متحف حى » لأشكال المصريين القدماء ، تراه اليوم متحفرا فى قبائل الشلوك والدنكا الذين يعيشون على مقربة من بحر الجبل ، وهو متحف « غير حى » لمصر القديمة . وعظمة الاستجابة التى استجاب بها المصريون لصرامة التحدى هى التى تضفى على التاريخ المصرى دلالته الحقيقية .

ولقد كانت هناك عوامل عديدة يحتمل أنها تضافرت على تحقيق النجاح . فلا بد أن جفاف الصحراء خفف من رطوبة وادى النهر وجعل الحياة فى البيئة الجديدة أيسر . ثم ان الأحوال فى اقليم المراعى لم تكن من الصرامة والشدة بحيث تخلق حضارة جديدة ، فلا بد اذن من الاستعانة هنا بالمبدأ القائل بأن « خير الأمور الوسط » . والاستجابة

هامة كمثل أهمية التحدى ، وقد أبدى المصريون القـدماء من الهمة ما فاق همة سكان وادى الأردن ، وهو صورة مصغرة من وادى النيل أو وادى الدجلة والفرات • ولم تثر وديان الأنهار الأمريكية الكثيرة المماثلة استجابة كهذه ، اذن فالبيئة ليست السبب الوحيد الذى تتولد عنه الحضارة • على أنه قد يكون مما عوض المصريين من صرامة التحدى أنهم ، وهم يغيرون من معـالم هذه المستنقعات التى تزخر بالأدغال ، لم يكن لزاما عليهم أن يشتغلوا بيد ويمسكوا السيف بالأخرى • كما كان لزاما على اليهود وهم يبنون أسوار أورشليم •

تطلب هذا الانتصار الذى أحرزته ارادة الانسان على الطبيعة ، فوق ماتطلب من شجاعة فردية متصلة ، تعاونا مستمرا ترك طابعه على التنظيم الداخلى لهذا المجتمع الناشىء وعلى تفاعل هذا المجتمع مع بيئته الخارجية • واستلزم التعاون تدريبا على الطاعة والنظام ، وقد تحقق هذا التدريب بثمن هو اخضاع ارادة عامة الشعب لارادة نفر قليل من القادة البارزين • وفى عهد الدولة القديمة كانت الفوارق بين الأقلية الحاكمة والأغلبية المحكومة أعظم بكثير مما كانت فى أى عهد من عهود الاقطاع فى أوربا • وتمتع ملك الأرضين وطبقة الحكام والفنانين والكهنة بسلطان عظيم على عقول الشعب وارادتهم ، لا يقل شأنا عن سلطانهم على أرض مصر ونيلها • وقد استعمل ملوك الأسرتين الأولى والثانية سلطتهم عن جدارة ، ولكن بمجىء الأسرتين الثالثة والرابعة أتى على مصر العهد الذى فيــه « خلدت الأهرام هؤلاء الحكام المستبدين ، لا بوصفهم آلهة يعيشون سرمدا ، بل طغاة يطأون هام فقراء الشعب ، ولا تمحى ذكرى جورهم » • ولقد أتيح لجماهير الفلاحين فى النهاية أن تثأر لنفسها من خوفو وخفرع ، لأنهم أسلموا الى الأجيال المتعاقبة نبأ سمعتهما السيئة حتى وجد النبأ سبيله الى الأدب الاغريقى فى مؤلفات هيرودوت الخالدة ، وهو الذى كتب يقول « ان هذه الأهرام التى لا تفنى مازالت تقوم شاهدا على

احتمال الفلاحين الذين شيدوها ، وعلى جور الملوك الذين أمروا بتشييدها » •

كان بناء الأهرام نكبة على الحضارة المصرية تكاد تكون شاملة ، فقد تحطمت روح الشعب وغدا الفلاحون فعلة زراعيين تخيم عليهم الكآبة ، أما الأقلية التى بيدها مقاليد الأمور والتى كانت تحكم بالقهر والضغط فقد فقدت فن القيادة وفقدت معه قوة الابتكار والأصالة فى شتى فروع النشاط • وهكذا قبضت يد الموت البادرة على هذه الحضارة الناشئة ، فى الوقت الذى انتقل فيه تحديها من الميدان الخارجى الى الميدان الداخلى •

واذا كان التحدى الأول فى تاريخ مصر ، ذلك الذى أخرج الحضارة المصرية الى الوجود ، هو تحدى البيئة ، فان التحدى الثانى كان تحديا للحاكم المصرى ليثبت كيف يتصرف فى سلطانه الهائل على حياة اخوته من البشر الذين ألقى اليه زمامهم ، فيخلق من حياة الغابة مصرا متحضرة• ولكن قبول فراعنة مصر الموحدة مراتب الآلهة ، أو فرضهم على الناس هذا التأليه ، هو علامة دالة على هذا « الرفض الخطير » للدعوة التى دعتهم الى رسالة أسمى ، وهو المثل الأشهر على عبادة السيادة السياسية المتجسدة فى انسان • وأفضل رمز على هذا الكابوس الثقيل الذى فرضته على الحياة المصرية سلسلة من هؤلاء الآلهة البشر هو الأهرام التى سخر الشعب فى بنائها لينال مشيدوها عظمة الخلود والتقديس • ولقد كان أثر ذلك على الأذهان من الخطورة بحيث كادت تنعدم القدرة على الأبداع من بين صفوف الأقلية الحاكمة • وقد يقال ان هذه العبادة للملك ولدت سخطا ونفورا أدبيا ، ولكنه لم يكن كافيا لتغيير حال المجتمع • ولقد تناقلت الأجيال رواية مفادها أن الملك منقرع بانى الهرم الثالث بالجيزة انتهى به الأمر الى الندم • وأخيرا اتخذ الدين فى«فترة الاضطرابات » وجهة خلقية أسمى ، ولكن الاعتقاد فى امكان الخلود

للجميع على السواء ، واعتبار الملك خادما لشعبه ، لم يأتيا الا على عهد الدولة الحديثة •

ولو تأملنا تاريخ المجتمع المصرى لاتضح لنا أن أكثر من ربع المدة التى استغرقها بقليل — وهى أربعة آلاف عام — كان فترة نمو • ومهما اختلفت المقاييس ، فان عهد الأسرتين الرابعة والخامسة هو الذروة التى بلغهـا التاريخ المصرى • وبدأ الاضمحلال فى فترة الانتقال من الأسرة الخامسة الى السادسة (سنة ٢٤٢٤ ق•م) ، وأعراض هـذا الاضمحلال هى الأعراض العامة فى نظر توينبي : قصور فى قدرة الأقلية على الابداع ، يصاحبه نقص فى قدرة الأكثرية على المحاكاة ، وما يستتبع ذلك من فقدان الوحدة الاجتماعية التى تنتظم الجماعة كلها • وتفرقت « المملكة المتحدة » أشتاتا من الدويلات المحلية ، وافتقدت ذنوب بناة الأهرام فى خلفائهم ، فارتكست أحوال مصر الى مثلها قبل ألفى عام ، مع فوارق طفيفة • وكانت تقوم على حدود مصر ثلاث جبهات فى وجه الهمجية : (١) الجبهة الشمالية الشرقية التى تواجه جنوب غربى آسيا عبر صحراء سينا التى هجمت منها جحافل الهكسوس فى سنة ١٦٨٠ ق•م (٢) الجبهة الجنوبية فى أعلى النيل ، التى تواجه برابرة افريقيا الاستوائية (٣) الجبهة الشمالية الغربية التى تواجه شمال غربى أفريقيا عبر الصحراء الليبية • وقد أنذر بحلول « فترة الاضطرابات » تشديد البرابرة النكير على الجبهة الأسيوية ، فقبل أن يغزو مصر الهكسوس ، الذين سيطروا على زمام الأمور فيها فترة وجيزة ، سبقتهم غارات شنها البرابرة الأسيويون حوالى منتصف الألف الثالث ق•م • وقد اقتضى ردهم على أعقابهم مجهودا حربيا فادحا جلب فى أعقابه انحلال الحضارة المصرية على عهـد بيبى الثانى (٢٣٧٦ — ٢٢٨٢ ق•م •) وبذلك تضافرت جماهير المحرومين من خارج البلاد مع عوامل الانقسام فى داخلها على هدم حضارة فقدت قدرتها على الابداع •

واذا اعتبرنا سنة ٣٢٠٠ ق٠م٠ مبدأ لتأسيس مملكة مصر المتحدة فان « فترة الاضطرابات » امتدت من سنة ٢٤٢٤ الى سنة ٢٠٧٠/٦٠ ق٠م٠ وهو تاريخ تأسيس الدولة العامة الجديدة على يد ملوك الأسرتين الحادية والثانية عشرة الطيبيين ٠ والفضل فى هذين العملين العظيمين ، وهما تأسيس « المملكة المتحدة » و « الدولة العامة » يرجع الى رجال من بناة الدول أنبتهم اقليم الصعيد ، اكتسبوا فى حربهم مع البرابرة جرأة وبسالة ٠ وكان اقليم الصعيد على أكبر جانب من الأهمية للعالم المصرى على الدوام ٠ وقد تدرب هذا القسم من الوادى الواقع الى الشمال مباشرة من الشلال الأول على فنون القتال ليقف سدا منيعا أمام تيار البرابرة النوبيين القادمين من أعالى النهر ، ثم انقلبوا وأقاموا بالقوة المسلحة المملكة المتحدة ذات التاجين ٠ ويصور لوح الملك نعرمر عودة هذا المحارب الصنديد ظافرا بعد انتصاره على الوجه البحرى وأخذه من الغنيمة ١٢٠,٠٠٠ أسير و٤٠٠,٠٠٠ ثور و١,٤٢٢,٠٠٠ من الغنم والمعزى ٠ وهكذا تنهض هذه الحملة ذاتها ، التى خلقت من مصر بلدا موحدا ، شاهدا على هذه النزعة الوحشية فى نفسية ذلك المجتمع المصرى ، وهى النزعة التى عطلت نمو الحضارات المصرية ٠ فذرية هؤلاء الفلاحين من سكان الوجه البحرى الذين قتل نعرمر منهم من قتل ، وأسر من أسر هم أولئك التعساء الذين جعل منهم بناة الأهرام آلات بشرية مسخرة ٠

كان ملوك الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة الطيبيون أنبل محتدا من حكام الصعيد الأولين ٠ ومما يلاحظ أن مصر كان بها على الدوام استقطاب فى السلطة السياسية عند طرفيها ٠ ففى العصور الأولى رجح ميزان القوة ناحية الجنوب ، ولكنه ، ابتداء من القرن الرابع عشر ق٠م ، تحول الى الشمال حيث زادت دوافع الضغط من شمال غربى أفريقيا وجنوب شرقى آسيا زيادة كبيرة عن نظائرها من الجهات الأخرى ٠ ويعزى بعض هذا الى أولئك الأمراء الطيبيين النبلاء الذين ، بعد أن فرغوا من

توحيد مصر ونشر السلام فى ربوعها ، عادوا بكل مايملكون من قوة أتاحتها لهم السيادة على دولة موحدة، واستأنفوا مهمة الحراسة فى الجنوب ، وهكذا استطاعوا أن يردوا برابرة الجنوب القهقرى بشكل حاسم وان كان بطيئا . وما وافت سنة ١٨٥٠ ق.م حتى بلغوا الشلال الثانى . ولقد عطل غزو الهكسوس هذا التقدم ولكنه لم يقفه ، واستغرقت الدولة الحديثة سكان هذه الأقاليم ثقافيا حتى الشلال الرابع . ولما سقطت الدولة الحديثة أصبح حصن نباطى ، عند الشلال الرابع ، حاضرة دولة متفرعة كاد يتم على يديها (بين عامى ٧٥٥ و ٦٥٥ ق.م.) توحيد مصر مرة أخرى من الجنوب كما سبق توحيدها مرتين من قبـل ، واحتفظت الدولة المتفرعة ، فى اقليم يعادل جزء منه اثيوبيا الحديثة ، باستقلالها لمدى تسعمائة سنة أخرى .

أودت غزوة الهكسوس لمصر من الشمال الشرقى بالدولة العامة ، وافتتحت عهدا من التفكك هو أطول العهود المعروفة فى أية حضارة فى التاريخ . وفى هذا الحادث الوحيد لاتنطبق على مصير مصر المبادىء العامة التى خلص اليها توينبى من الأمثلة الأخرى ، ولكنه فى عرفه الشذوذ الذى يؤيد القاعدة . ففى أثناء النصف الأول من الألف الثانى ق.م قامت حركة انتشار الآريين سابقة لحركة انتشار الترك وتفرقهم بثلاثة آلاف عام. انتشر هؤلاء الآريون من صحارى أوراسيا العشبية ، مبتدئين من النقطة التى انتشرت منها جموع الترك بعد ذلك . وتاريخ الدولة التى أسسوها شبيه بتاريخ الخلافة الأموية . عبر بعضهم الهندكوش الى الهند ، واخترق آخرون ايران والعراق الى سوريا ومنها اجتاحوا مصر حوالى مطلع القرن السابع عشر ق.م . وكما أن الخلافة الأموية بدأت كـ « دولة متفرعة » للدولة الرومانية فى سوريا ، كذلك أقام الهكسوس (وهو الاسم الذى أطلقـه المصريون على هؤلاء الغزاة المتبربرين) « دولة متفرعة » لدولة سومر وأكاد فى سوريا ، وحكموا أصقاعا شملت مصر

والشام وربما الجزيرة أيضا ، وهى دولة لعلها بلغت فى اتساع الرقعة ما بلغته دولة صلاح الدين ، وكانت على التحقيق مثلها قصيرة العمر • وكما أن الخلافة الأموية فقدت توازنها وأثقلها فتحها أملاك الدولة الساسانية السابقة ، كذلك أثقل الهكسوس فتحهم الأملاك السابقة للدولة الوسطى فى مصر ، واضطرت كلتا الدولتين بعد أن اكتظت بالطعام أن تخلى مكانها لغيرها ، فخلف العباسيون الأمويين ، وخلفت الدولة الحديثة الهكسوس •

ويتساءل توينبى ، كيف استطاعت حضارة مصر التى كان يبدو أنها جرت شوطها وأنهته ، أن تبعث نفسها حية وتطرد الغزاة البرابرة ؟ وهو يرد على ذلك بأن بقاء الفتح البربرى يكون أيسر اذا لم يكن البرابرة قد اصطبغوا قبل الفتح بصبغة ثقافة أجنبية • وقد أيقظ الهكسوس فى المصريين تعصبا للقومية والدين يكفى لطردهم • أما الليبيون ، غزاة القرن العاشر ق•م ، الذين كانوا من حيث الثقافة صحيفة بيضاء ، فقد استطاعوا أن يتشربوا ثقافة أهل البلد الذى فتحوه • وقد أحفظ المصريين على الهكسوس تلك الصبغة السومرية البغيضة التى كانوا مصطبغين بها • ثم انهم لم يعتنقوا ديانة رع ولا غيره من آلهة الأقلية الحاكمة فى مصر ، ولم يعتنقوا ديانة أوزيريس ، وهى الديانة العليا للعامة من المصريين ، وانما اتبعوا « ست » اله الشر فى أسطورة أوزيريس • وفى ظن توينبى أن شناعة الدور الذى قام به اله الشر هذا هى التى حببته الى الغزاة • ولم يقم بين صفوف الهكسوس رجال من طراز مكيافلى يعلمونهم طواعية الدين لمطالب السياسة والحكم ، فانتهى الأمر بأن طرد عباد أوزيريس عباد ست ، على حين أن الليبيين الذين قبلوا الايمان بأوزيريس قبلوا منه القدر الذى يتيح لهم البقاء • وفى تاريخ مصر المتأخر نجد العرب أكثر حظا عند فتحهم شمال أفريقيا من الهكسوس،

فهم لم يتخلوا عن الاسلام ولكنهم نشروه بين رعاياهم من أهل البلاد ، ولكن مما لاشك فيه أن روح جماهير الشعب المصرى كانت اذ ذاك قد تحطمت .

وحوالى سنة ١٥٨٠ ق.م. طرد الأمير الطيبي مؤسس الدولة الحديثة الهكسوس . تلك هى الحالة الوحيدة التى سجلها التاريخ عن « دولة عامة » ردت من جديد الى الوجود . ويعد أحمس أول ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، من حيث أهميته ، صورة طبق الأصل من منتوحوتب الرابع فرعون الأسرة الحادية عشرة والمؤسس الحقيقى للدولة العامة فى مصر . وقد تمتعت مصر بعصر ذهبى بعد حكم كل من هذين الملكين . ولكن ماتبقى فى الدولة الحديثة من رمق كان لابد من بذله لاحباط « انتصار البربرية » للمرة الثانية ، فقد كان يخشى على العالم المصرى خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر ق.م. أن يغرقه طوفان مرتد من أفواج الرحل البحريين التالين للمنويين ، ولكن الغزاة الليبيين الذين اغتصبوا بعد ذلك تراث الدولة الحديثة المهمل ، قلبوا الأوضاع المألوفة. استطاعت مصر أن تصد الغزوات باطراد مدى قرنين من الزمان ، وكان الأمراء الطيبيون الذين أسسوا الدولة الحديثة قد أخذوا عن أعدائهم السابقين المقهورين — وهم الهكسوس الرحل — سلاحا من أسلحة الحرب هو العجلة الحربية والحصان ، فدلوا بذلك على أن بهم قابلية للتأثر بالأفكار هى احدى العوامل المساعدة على النجاح فى بناء الدول . ومن المسلم به أن الدول التى أقامها الفاتحون من البدو الرحل لم تعمر طويلا ، ولا بد أن ابن خلدون المؤرخ العربى العظيم (١٣٣٢—١٤٠٦ م.) كان يفكر فى دول البدو الرحل حين قدر ثلاثة أجيال ، أو مائة وعشرين سنة ، عمرا للدولة . ذلك أن الوهن يتطرق اليهم بعد أن يبدأوا فى عنفوان قوتهم ، على حين يفيق رعاياهم المقيمون من وقع اللطمة التى دوختهم ، ويستردون عادة روحهم المعنوية فى الوقت الذى يفقد فيه

سادتهم هذه الروح • ثم تقوم « قطعان البشر » بطرد ملوكهم الرعاة أو باستغراقهم • فلو كان الليبيون أفلحوا فى فتح مصر بحد السيف لما ظفروا من هذا الفتح بأكثر من حكم مصر قرنا من الزمان كما حكمها الهكسوس من قبل ، ولكنهم بعد أن فشلوا فى دخول مصر عن طريق الفتح نالوا مأربهم فى النهاية عن طريق التسرب • أتوها جندا مأجورين ، وكانت مكافأتهم عن هذا الاتضاع فى النهاية احراز الجائزة التى حاولوا غصبها عنوة من قبل • ومعلوماتنا عن هذه الغزوة أقل مما نعلم عن جميع الغزوات التى أتت على مصر • ومن الجائز أن الغزاة الليبيين كانوا على حلف مع غزاة آخرين من بحر الأرخبيل ، ومن الجائز أنهم وقعوا تحت ضغط هؤلاء الغزاة • وكيفما كان الأمر ، فان السيادة على المجتمع المصرى من الدلتا الى الشلال الأول ، من القرن الحادى عشر فصاعدا ، كانت موزعة بين الدخلاء من أقيال الحـــرب الليبيين ، المعسكرين فى مدنهم الحربية ، وبين الكهنة المصريين الأقوياء فى دويلاتهم الدينية •

فرضت الدولة القديمة على الفلاحين المصريين عبئا آخر كان عليهم أن يرزحوا تحته ، بالاضافة الى كابوس « الملوكية الألهية » وهو عبء « الصفوة المثقفة » • ذلك أن الملوكية المؤلهة تستلزم هيئة مثقفة من الموظفين ، والا عجزت عن الاحتفاظ بمكانها الرفيع الذى اتخذته كمكان الصنم يقوم على قاعدة بمعزل عن غيره • وكان توحيد وادى النيل كله من الفنتين الى ساحل البحر ، والاستقلال المنظم لموارد المملكة المتحدة ، جهدا جبارا من الجهود الاجتماعية المنسقة اقتضى ادارة محكمة ، تقوم عليها طائفة من الموظفين المدنيين المحترفين ، يحسنون القراءة والكتابة ، ويعملون بوصفهم القوة التى من وراء العرش • وقد استغلوا سلطتهم « ليحزموا أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ويضعوها على أكتاف الناس ، وهم لا يريدون أن يحركوها بأصبعهم » • وكان الهدف الذى يرمى اليه الآباء جميعا أن يجعلوا من أبنائهم موظفين ليجنبوهم مشقة العمل

اليدوى كما هى الحال فى الصين . واختلط هؤلاء الموظفون بالكهنة ، حتى انتهى الأمر بكبير كهنه آمون الى تتويج نفسه بتاج الدولة فعلا فى عام ١٠٧٥ ق.م. وحين غمر طوفان العسكر الليبيين البلاد ، كان زمام الأمر فى مصر لا يزال بيد هؤلاء الكهنة والصفوة من المثقفين .

وثمة نظير وثيق الشبه بالنظام الذى أقامه « حريحور » رئيس كهنة أمون رع فى طيبة فى القرن الحادى عشر ق.م. ، تجده فى فترات من تاريخ بابوية روما بفضل تأثير هلدبراند . فكلا البلدين ، روما وطيبة ، كان مقدسا ، وفى كليهما انتهى الأمر بأن يشغل مركز امبراطور الدولة العامة الولى القائم على اله المدينة ، الذى أصبح زعيما عالميا للشعوب التى كان يسيطر عليها سلفه سيطرة سياسية . وقد أصاب كلاهما قسطا من النجح بفضل كهنوت بلغ الغاية فى التنظيم والتدريب على الطاعة وسعة الانتشار ، ولكن هلدبراند لم يقترف الخطأ الذى اقترفه حريحور ، ذلك الذى لم يقتصر فشله بعد اتخاذه الملك على عجزه عن منع انهيار المجتمع المصرى ، بل انه فقد سلطته وشيكا ، حتى بلغ الأمر بخلفائه أنهم لم يدعوا هذه السلطة لأنفسهم ، واضطروا فى الواقع الى التخلى عن وظيفة كبير الكهنة ، وعن حكم اقليم طيبة للقادة الليبيين .

وتدل هذه الخيبة على خطر الخلط بين السلطتين السياسية والروحية ، لأنها أتت بعد حبوط أعظم محاولة فى تاريخ مصر للثورة الدينية بزمن قصير .ويفوق اعجاب توينبى بأمينوفس الرابع (اخناتون) اعجابه بأية شخصية أخرى ، وهو المؤرخ الوحيد الذى يضعه مع الاسكندر الأكبر فى مرتبة أبناء الملوك ، الذين قال عنهم افلاطون انهم فلاسفة بالفطرة ، عاشوا ليكونوا ملوكا ، وحاولوا وهم على العرش أن ينقلوا الى ميدان العمل السياسى فلسفة من صنعهم وحدهم . وكان كلاهما يدين بأخوة البشر التى أكدها الاسكندر فى قوله المأثور « ان الله هو

الأب المشترك لجميع الناس ، ولكن آثرهم عنـده خيارهم » • حاول اخناتون أن يستبدل بالعقيدة الرسمية فى مصر — عقيدة الآلهة المتعددين يتزعمهم آمون رع — عبادة اله روحى واحد أحد ، أعلن لاهوته للناس فى قرص الشمس • وقد عين « مجمع الآلهة » ، الذى نظمه تحتمس الثالث بعد قرون طويلة من التطور ، هبوط فرعون من مصاف الآلهة الى مركز متوسط هو ابن حاكم الكون ، فصار انسانا وان ظل معبودا فى الوقت نفسه • وكانت محاولة أخناتون أن يواصل هذا الهبوط محاولة صادقة أمينة مخلصة ، وكان حريا بهذا الايمان الدينى العميق ، وهـذا الادراك الدقيق للوحدة أن يلقيا ترحيبا ، ولكنهما باءا بفشـل ذريع ، لأن « حركات التجديد العظمى لاتأتى البتة من فوق ، ولكن من أسفل » كما يقول يونج •

ويستشهد توينبى بهذا الفشل لتأييد ما يزعم من أن عدم مرونة النظم سبب من أسباب انهيار الحضارات • وعجز هذا النبى الملك ذو السيادة المطلقة عن فرض آرائه فى الوحدانية بأزاء الكراهية المنظمة التى كان يشعر بها كهنة المذهب القديم نحو هذه البدعة • على أننـا نستطيع أن نلحظ فى ميادين الدين واللغة والفنون والأخلاق الدلائل على أن التصدع كان قد بدأ يتطرق الى جسم المجتمع ، وذلك بالافصاح عن هذا الأحساس الباطن بالبلبلة والاضطراب ، وهو احساس يعرو النفوس فى عصور التفكك الاجتماعى • فاله طيبة « أمون » الاله المحلى الخامل الذكر ، الذى كان فى الأصل صنوا لاله محلى آخر مجاور له هو « مين » اله مدينة قفط ، انتهى به الأمر الى الاتحاد مع رع الاله الشمس • ولم يكن هذا فى لغة الدين سوى انعكاس لحقيقة سياسية ، هى أن أميرا طيبيا من بناة الدول الذين نشأوا فى الصعيد قام بتـأسيس الدولة العـامة فى مصر ، لا فى المرة الأولى فحسب ، بل فى المرة الثانية أيضا عند احياء الدولة من جديد • وبلغ أمون قصارى مجده بوصفه اله الشمس حين

كانت تعلم فى فترة الاضطرابات وحدانية تتصور الها واحدا للجميع يكشف عن نفسه تحت أسماء محلية متعددة . أما عبادة أوزيريس فقد حاولت أن تضطلع بما استطاعت من العبادات التى سبقتها ، وهى ظاهرة مألوفة فى جميع الأديان التبشيرية ، ولكن الذى حدث هو أن الكهنة المصريين هم الذين اضطلعوا بهذه العبادة ، وبذلك وضعوا أنفسهم « على رأس حركة شعبية ناهضة وجدوا أنفسهم عاجزين عن قمعها أو حتى دفعها ، حركة كان من الجائز أن تقضى على طبقة الكهنة الأقدمين » ، وبدل أن يقضى على الكهنة بلغوا أوج سلطان لم يبلغوه البتة من قبل . أما من الناحية السياسية فيرجع هذا النجاح الى ازدياد الشعور بالأثم فى « فترة الاضطرابات » . فقد طغت على الناس هذه الاضطرابات طغيانا شعروا فيه بأنفسهم ألعوبة فى قبضة المقادير ، وشعروا بأن نشاطهم وأعمالهم « تدور سريعا كدوران عجلة الخزاف » .

« وقال قائل منهم : أكان عبثا أن جبلت من طين
وشكلت فى هذه الصورة ، أيكون مصيرى أن أحطم
أو أسحق فأعود ترابا من جديد ؟ » (١).

واحساس الناس بأنهم مسوقون الى غير غاية ، وشعورهم بفقدان القدرة على النمو ، خطب أليم يصيبهم فى زمن التفكك الاجتماعى . ولكن هذا المخدر كان يقاوم مفعوله ازدياد فى الشعور بالخطيئة ينبه الفرد الى أن بعض هذا الفشل فى صميم نفسه ، وبذلك يحفزه ويستحثه . وتستطيع أن تلحظ يقظة الشعور بالخطيئة فى تطور الفكرة المصرية عن الحياة الآخرة خلال « فترة الاضطرابات » ، ففى أيام الدولة القديمة كان الاعتقاد أن السعادة فى الآخرة تنال اذا تحققت اشتراطات فى الشعائر والطقوس تقتضى كلفة مادية ، ولكنه على عهد الدولة الوسطى تطور فأصبحت السعادة موقوفة على شرط ، هو الاستقامة والبر فى هذه الحياة

(١) من رباعيات الخيام .

الدنيا • تخيل المصريون محاكمة الآلهة للناس بعد أن اعتقدوا أن سلوكهم على الأرض سيكون عرضة للحساب الألهى وما يستتبعه من ثواب أو عقاب •

ويجب التذكير هنا بأن فى جميع الأديان عنصرا دخيلا فى غاية الأهمية ، فقدكان لعبادة أوزيريس أصل أجنبي هو عبادة «تموز» فى سومر، والعنصر الدخيل فى عبادة الأغارقة لأيزيس عنصر مصرى • والأله الشمس يموت من أجل أقوام مختلفين تحت أسماء مختلفة ، فهو عند المينويين « زاجروس » ، وعند السومريين « تموز » ، وعند الحثيين « أتيس » ، وعند الاسكندناويين « بولدر » ، وعند السوريين « أدونيس » ، وعند المصريين « أوزيريس » ، وعند الشيعة الحسين ، وعند المسيحيين المسيح • وهو اله متعدد المظاهر واحد المحبة • ولكن هناك حالة مشهورة اصطنع فيها دين جديد عمدا لخدمة المآرب السياسية ونعنى بها خلق بطليموس سوتر لعبادة سرابيس ، ليعبر القنطرة بين العالمين المصرى والاغريقى • واستطاعت لجنة من كاهنين ، أحدهما مصرى والآخر اغريقى ، أن تجمع من خصائص الالهين أوسر « أو أوزيريس » وآبى « أو آبيس » ، الها جديدا هو الاله سرابيس • ونحت للاله الجديد تمثال ، ورتل له التسبيح شعرا ، وأخذ سرابيس مكانه فى مجمع الآلهة الى جوار زفس وديونيسيوس وآسكلبيوس • ولقيت العبادة الجديدة نجاحا بين الأغارقة ، ولكن الكهنة المصريين الذين كانوا مسيطرين على هذا الميدان مدى ١٢٠٠ عام رفضوا هذه البدعة فباءت بفشل سياسى ذريع •

أما شعور البلبلة والاضطراب فى محيط اللغة فقد تجلى فى التحول من لغة محلية محدودة الى بلبلة شاملة فى الألسن • ففى أثناء عهد انحلال الحضارة المصرية الطويل شقت اللغة المصرية الحديثة فى القرن السادس عشر ق•م لنفسها طريقا فى قشرة اللغة المصرية الفصحى ، التى بليت منذ زمن بعيد ، ووطدت أقدامها فترة قصيرة بوصفها « اللغة المخلطة » للدولة

الحديثة المتداعية ، وظلت تستعمل لغة للأدب فى المجتمع المصرى فترة أطول من ذلك بكثير ، ولو أن الدولة الحديثة التى قامت على أنقاض دولة الهكسوس قد ارتضت ، فى الواقع ، أن تستعمل لغة الهكسوس الأكادية فى المخاطبات الدولية ، حتى ماوجه منها للأمراء التابعين لمصر •

ولعل مصر هى الوحيدة بين الأمم التى بذلت جهدا جبارا مرتين لتصون لغة وتحافظ عليها حتى تستعصى على الافهام •وفى فترة الاضطرابات كانت الشقة بين لغة الحديث واللغة المدرسية من البعد بحيث استحال على الأشخاص العاديين أن يفهموا هـذه الأخيرة ، وقـد قضى اخناتون (أمنوفيس) على هذه الظاهرة السخيفة • ولكن ما أن انقضت خمسة قرون أخر حتى أصبحت اللغة الشعبية السابقة هى الأخرى لغة ميتة ، شأنها شأن اللغة القبطية اليوم ، واضطر الطلبة الى تعلمها فى مدارسهم • ولهذه اللغات المدرسـية أهميتها للمؤرخ • حق أن الشعر الحماسى يكتب عادة بلغة الشعب ، ولكن يجب أن نذكر دائما أن الشاعر لم يكن مؤرخا • والشعر الحماسى يعيش ، لا لأن فيه عنصرا تاريخيا ، بل لما فيه من عناصر غير تاريخية ، عناصر الخرافة والدين والخيال ••• « فأن مجرى الحوادث الحقيقى أمر لايكترث له الشاعر ولا المستمعون اليـه » • وأنت تقرأ سفر يشوع فلا تعرف منه أن كثيرا من مدن كنعان كانت فى قبضـة الحاميات المصرية ، وأن أدب بنى اسرائيل الحماسى يمسك عن أى ذكر للامبراطورية المصرية ، كما أمسكت الملاحم التيوتونية عن ذكر الامبراطورية الرومانية •

وفى غضون هذه القرون الطويلة بقى المجتمع المصرى متشبثا بحيويته وان كانت هذه الحيوية ضعيفة • فطرد من مصر الغزاة المتتابعون من أشوريين وفرس واحدا بعد الآخر كما طرد الهكسوس من قبل بفضل هذه الصحوة السحرية التى صحاها هذا الجسد الصريع الذى خاله الدخلاء المغيرون جثة هامدة • وتعزى هذه الصحوات الأخيرة التى

مدت فى أجل حضارة تحجرت الى ماحدث من اتحاد جديد بين عامة الشعب فى مصر وبين الأقلية السائدة ، فى وجه المحرومين المغيرين (وهم الهكسوس فى المرة الأولى) • فأما ثمرة هذا الجهد — من وجهة نظر العالم — فهى عقيمة لأنه انتهى الى ركود • وكان من المحتمل أن يلقى البطالمة نفس المصير لولا أن الدولة الرومانية شغلت مكانهم وقبضت على مصر بيد من حديد حتى قام مذيب الحضارة الأغريقية القوى بمفعوله المحلل • منذ ذلك الحين فقط فقد المجتمع المصرى طابعه الذاتى باعتناق الشعب المصرى بجملته ، ما بين القرنين الثالث والخامس الميلاديين ، الديانة التوفيقية الأغريقية السورية ، أعنى المسيحية ، التى ظلت تفقد فى مصر ما اختلط بها من عنصر اغريقى شيئا فشيئا ، أولا بتحول المصريين عن المسيحية الأولى الى مذهب اليعاقبة « القـائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح » ، ثم باعتناقهم الاسلام أخيرا ، ماعدا أقلية من القبط تخلفت منهم وقد بلغت مصر آخر هذه المراحل بين عامى ٩٧٥و١٢٧٥ من الميلاد • ومن ثم انقضت ٣٠٠٠ سنة بين أول تصـدع للحضارة المصرية وبين اندماجها نهائيا فى جسم المجتمع السورى • أما فى ميدان الفن فيمكننا أن نؤرخ العصور الفنية فى مصر ابتداء من العصر السابق للأسر ، ولم يك بعـد مصريا صميما ، الى العصر القبطى الذى تجرد من كل الخصائص التى طبعت الفن المصرى بطابعه المميز • كانت عبادة الملك المؤله ، بوصفها نظاما وقانونا لا شذوذا وتنافرا داخليا ، هى السبب فى الانهيار الأول الذى أصاب الحضارة المصرية ، ولم يكن التخلى عن أسلوب الفن التقليدى ، واختفاء الكتابة الهيروغليفية والديموتيفية (بين القرنين الثالث والخامس) بعد تداولهما ثلاثة آلاف عام وحلول الكتابة القبطية التى تستعمل حروف اليونانية محلهما ، السبب فى الانهيار النهائى الذى حل بالحضارة المصرية ، وانما كان ذلك دليلا على أن هذا الانهيار قد مر بعهـد طويل من التضعضع والاضمحلال الذى تفـاقم حتى انتهى بالانحلال •

ويعد المجتمع المصرى أفضل مثل سجله التاريخ من بين الأحد عشر مجتمعا المتحجرة التى تناولها توينبى بالدرس ، وهو يفضل حتى المجتمع الصينى • فقد عاش ضعف الأجل الذى كان متوقعا له أن يعيشه ، ولكن كان ثمن هذا البقاء فى النصف الأخير من عمره أن أصبح «ميتا حيا» أو « شعبا بلا تاريخ » • ويجدر بنا أن ننبه الى هذا التفسير ، من بين التفسيرات التى يقدمها توينبى تعليلا لهذا المجهود الجبار ، وهو أن الحضارة المصرية كانت مركزة محدودة أكثر مما كانت واسعة منتشرة • ويتضح هذا فى فشل مصر فى احتلال داخل سوريا بل فى الاحتفاظ بالمنطقة الساحلية التى احتلتها ألفى عام ، أمام هجمات حضارة مينوية نستمد أفضل معلوماتنا عن وجودها ذاته من نقوش المقابر المصرية • والفتوح المتوالية على طول هذا الساحل ، والتى قام بها الغزاة من ملوك الدولة الحديثة ، (تحتمس الأول وتحتمس الثالث ورمسيس الثانى) برهان من تاريخ مصر على أنه ، حين تقبض الأقليات السائدة على زمام الأمور ، يخشى دائما أن يقوم أحد هذه الأنواع الثلاثة المنحطة المتلاف ، والجلاد ، والغازى • ففى شخص هؤلاء الفراعنة الثلاثة نكبت مصر بالغزاة المخفقين • فالواقع أن الحضارة المصرية لم تنتشر بنجاح الا على طول وادى النيل ، ويخلص توينبى من دراسته للحضارات الأخرى الى نتيجة ، هى أن التوسع الجغرافى يكاد يكون مرضا اجتماعيا من ذلك النوع الذى يجعل النبات كله ساقا أو بذورا ، مرض الجبار جالوت الذى استطال وتضخم وانتهى به الأمر الى الهزيمة على يد داود ، أو هو حال السفن الاسبانية الثقيلة التى دحرتها المراكب الانجليزية الخفيفة • ولو كان هناك تناسب بين التوسع الجغرافى والنمو لكان التناسب عكسيا ، فالتوسع ليس ظاهرة نمو اجتماعى وانما هو عرض من أعراض التفكك الاجتماعى ، فآن أعالى النيل لم تدمج فى الحضارة المصرية الا بعد آن

تصدعت تلك الحضارة واجتازت « فترة الاضطرابات » ودخلت طور الدولة العامة • وعندما تصدعت هذه الدولة العامة ثم أعيدت فى شكل الدولة الحديثة ضمت النوبة الى مصر • ويشبه هذا أن الأهرام ، وكذلك تماثيل الرمامسة الضخمة فى نهاية الدولة الحديثة ، كلاهما استفحال ومبالغة أنذرت بالانحلال •

ولكن هذه الآلاف الثلاثة من الركود الذى تركز فى أقليم محدود قدمت للعالم الفكرة المتمركزة عن « الدولة المصرية » ، وهى الفكرة التى تظهر مزايا الفكرة الاغريقية عن الدولة اذا قورنت بها ، « دولة المدينة » بما تتمتع به من حريات • وقد اكتسب هذا التقليد المحلى الذى درجت عليه مصر مدة ٢٥٠٠ عام منذ عهد بناة الأهرام ، وأعنى به « الدولة المستعبدة » ، من القوة الدافعة ما حمل الفاتحين من الأغريق على التسليم به سريعا • ومن ثم نرى البطالمة وورثتهم من أباطرة الرومان يواصلون الأخذ به وان كان ظلمهم للناس لم يبلغ من الفظاعة ما بلغه فى أملاك قرطاجنة الافريقية أو بين فرق العبيد فى صقلية • والحاصل أن العالم كله تأثر بهذا الصراع بين الفكرة الأغريقية والفكرة المصرية عن الحكومة ، ذلك أننا يجب أن نذكر أن النضال فى أقليم الدلتا بين الحضارتين الأغريقية والمصرية استمر قرونا ، بل انه مستمر بدرجات متفاوتة الى اليوم • ويشبه توينبى العلاقة بين الجنسين بالعلاقة بين الهولنديين ومضيفيهم اليابانيين فى الفترة بين عامى ١٦٤١ و١٨٥٠ م • فقد قبل الأغريق قديما ، كما قبل الهدلنديون حديثا ، ما فرض عليهم من قيود بوصفهم طبقة منبوذة فى سبيل ما تدره عليهم التجارة من أرباح • ففى القرن الخامس ق•م • كان المصريون يضحون كل سنة بحيوان قطع رأسه وسلخ جلده ، وكانت تتلى على الرأس لعنة مروعة هى « ان كان ثمة شر محدق بنا نحن الذين نقدم هذا القربان أو بكل أرض مصر ، فليدخل هذا الرأس » ثم يقذف الرأس حينئذ

فى النهر ، الا اذا كان على مقربة من المكان تاجر اغريقى لا يعبأ بأن يستهدف للأخطار التى يخشاها جيرانه طمعا فى ربح خسيس •

على أن أغريق مصر الذين أنشأوا بهامدينة أغريقية الصبغة ، هى الاسكندرية ، والذين عاشوا أقلية شاذة فى أرض مصر ، أولئك الذين بقوا بمصر بعد أن غزاها الفرس وبعد أن سيطر على العالم الأغريقى رجل مقدونى ، هبوا غاضبين فى وجه الرومان ، ورثة الدولة العامة الأغريقية ، حين أصبحت روما حاضرة العالم بدل الاسكندرية التى كانت تحوى مقبرة الاسكندر نفسه ومتحف بطليموس ومكتبته • ولم يسبق لهؤلاء الاغريق أن زجوا بأنفسهم البتة فى المنازعات التى كانت تنشب فى وطنهم الأول بشبه الجزيرة ، أما الآن ، وقد امتشقوا الحسام فجأة ورأوا استحالة الانتقام من الرومان كما يشتهون ، فقد انقلبوا — وهم أقلية فى أرض غريبة — ليسفكوا دماء الأقلية اليهودية التى تعيش بين ظهرانيهم • وهكذا استحال هؤلاء الأغريق ، الذين عاشوا مسالمين قرونا عديدة ، شهداء ومضطهدين فى الوقت نفسه بعد أن انتزع المجد من يدهم •

والآن وصلنا فى تاريخ مصر الى عهد بلغ فيه الانحلال حدا لم تعد عنده الحضارة أمرا زمامه بيد مصر • وكان غزو دولة الفرس (وهى الدولة العامة السورية الأولى) لمصر مجرد توسيع لرقعة الدولة لم يقهر روح المصريين • ثم أتى على مصر عهـد كان يبدو فيه أن اصطباغها بالصبغة الأغريقية أكثر احتمالا • على أن للحضارة السورية الفضل فى مآثر جليلة ثلاث :

١ — فهى التى اخترعت أبجدية للكتابة •

٢ — وهى التى كشفت المحيط الأطلسى •

٣ — وهى التى انتهت الى فكرة خاصة عن الله تشترك فيها اليهودية والزرادشتية والمسيحية والاسلام ولكنها غريبة عن التفكير والشعور الدينى سواء فى مصر أو سومر أو الهند أو اليونان • ولم تحرز الحضارة

السورية انتصارها النهائى فى مصر الا حين بلغت الحضارتان المصرية والأغريقية مرحلة النزع الأخير ، فدانت مصر أولا لمذهب اليعاقبة ، ثم دخلت فى الاسلام جملة ، ولم يتم هذا الا لأن التسليم كان فى الواقع تسليما للحضارة العربية .

ويزعم توينبى أنه فى الفترة القصيرة التى عمر فيها المجتمع العربى كانت مصر هى البلد الذى اشتد فيه نبض هذا المجتمع ، الذى كان ضعيفا خافتا فى غيرها من البلاد . ففى مصر بعث المماليك شبح خلافة بغداد العباسية من قبرها فى القرن الثالث عشر ، كما بعث شبح الدولة الرومانية بالقسطنطينية « ليو » السورى فى القرن الثامن . وكان المماليك هم المدافعين عن الاسلام فى كفاحه للوثنية ، وفى مصر ظل الأدب العربى حيا ، وظلت العمارة العربية حية ، مدى قرنين ونصف من الزمان ، بين بدء الخلافة القاهرية والفتح العثمانى الذى تم على يد السلطان سليم . وقد قدمت مصر لهذا المجتمع العربى حافزا هو التربة الجديدة ، لأنه لم يكن لمصر نصيب فى خلق هذه الحضارة أصلا . وكانت نتيجة الاحتلال العثمانى للقاهرة فى عام ١٥١٧ م . اخضاع هذا الشطر من دولة الاسلام اخضاعا دائما وادماجه فى مجتمع شقيق ، وبذلت محاولة جديدة لتكوين دولة عالمية لغتها العربية . وكان هذا الاحتلال فى تاريخ الاسلام شبيها باستيلاء الصليبيين على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ميلادية ، ولكن هناك اختلافا جوهريا فى نتائج الاحتلالين ، فبينا كانت نتيجة الحملة العثمانية ضم المجتمع الشقيق قرونا أربعة ، كانت الحملة الصليبية عقيمة كما كانت مخزية . وقد تمتع العالم المسيحى الأرثوذكسى بألف سنة من الحياة المستقلة على حين لم يتمتع المجتمع العربى بأكثر من قرنين ونصف (من سنة ١٢٧٥ الى سنة ١٥٢٥ م.) قبل أن يدمج كلاهما عنوة فى المجتمع الايرانى .

طغى العثمانيون على المجتمع العربى دون أن يتمثلوه ، وظلت الأحوال

فى مصر دون تغير جوهرى ، وكل ما حدث أن قامت الى جوار المماليك الذين جلبهم الأيوبيون طبقة عسكرية جديدة هم الانكشارية • وهناك أمثلة أخرى عديدة من هذه الفكرة التى فطرت عليها الطبيعة البدوية وان كانت غريبة على طبيعتنا ، وهى اتخاذ الجند والحكام من بين الرقيق • وأول من اقتنى المماليك هو صلاح الدين وورثته الأيوبيون ، وقد قضى على الدولة الأيوبية عام ١٢٥٠ م أولئك الذين كانوا من قبل عبيدا لها • وهزم المماليك الفرنسيين الذين يقودهم القديس لويس مرتين وعلى عرش الخلافة العباسية خليفة صورى أقاموه ستارا ، ثم ثبتوا للمغول على خط الفرات من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٥١٦/١٧ حين التقوا بقريع لهم ، هم أسرة أصلها من الرقيق أيضا ، ونعنى بهم آل عثمان ، وشعب آخر من شعوب البدو الرحل نزحوا تحت ضغط الظروف المناخية • على أن نظام الحكم العثمانى فى مصر سمح لجيش المماليك بالبقاء محتفظين بنظامهم القديم ومواصلين تجنيد الرقيق الجديد من أسواق أوراسيا والقوقاز • وما وافى القرن الثامن عشر حتى أصبح الوالى العثمانى فى الواقع سجينا سياسيا للمماليك لا تزيد سلطته على سلطة الخليفة العباسى فى حضيضها • ولم يقض على هذا الحكم العسكرى الأجنبى المنحط الذى فرضه على مصر قوم لم يتثقفوا ولم يتغير أسلوبهم فى القتال ، سوى الرجل المقدام مؤسس الأسرة العلوية الحاكمة فى مصر الآن ، وكان ذلك عام ١٨١١ • وانقرضت حفنة المماليك الباقين على قيد الحياة نهائيا فى مجاهل النيل الأعلى •

وفى عهد هذه الطبقة العسكرية الدخيلة ظل المواطنون من أهل مصر العربية يواصلون حياة العزلة والكفاية الذاتية ، يقوم الفلاحون منهم والعلماء والتجار والصناع المنتمون لنقابات المدن كل بدوره المستقل ، ويعرف كل وظيفته فى حياة المجتمع المشتركة • وقد ظلت العلاقة بين العرب والعثمانيين فى صميمها علاقة الغرباء ، واذا كان قد حدث تبادل

ثقافى فان العثمانيين الفاتحين هم الذين خضعوا فى هذا المضمار للعرب المغلوبين • أما اليوم فقد دان الفريقان — من عرب وترك — للقومية الغربية ، وهى روح غريبة عليهما جميعا •

وكل مايهدف اليه تفكير توينبي وحججه التي يسوقها فى أجزاء مؤلفه الستة ، هو اظهار تفاهة الفكرة الحديثة السائدة ، فكرة الدولة القومية • وهو لايتكهن بالحضارة الناجحة التى قد تتمخض عنها المظالم التى نشكو منها اليوم ، وتحليله للحضارات هو فى الواقع فحص للنمو الذى ينتهى بالتغير والفناء • ولعل قربنا الشديد من حوادث هذا العصر يمنعنا من التمييز بين الخطير والتافه منها ، ولكنا حين نذكر عظمة التاريخ المصرى ، وماسلخ من عمر طويل خطير ، يجدر بنا أن نذكر أيضا أنه ليس هنـاك من « كائنات حية » سوى الأفراد الذين ألفوا الحضارات الآنفة الذكر ، وأن هذه الحضارات نفسها ليست أكثر من الأرض المشاع بين ميادين النشاط الذى تقوم به جماعات من أفراد الناس • وجل اعتماد توينبي على العالم « الزورث هنتنجتون » (المؤرخ والبحاثة فى علم المنـاخ) دون غيره من علماء هذا العصر ، وهما متفقان على وضع تأثير العوامل الروحية فى الشؤون الانسانية فى المقام الأول ، أما العوامل المناخية وغيرها من العوامل المادية فتأتى فى المرتبة الثانية ، وذلك ايمان يضفى شعورا بالكرامة والثقة على أى باحث فى التاريخ يحاول تفهم المسرحية الحقيقية التى تمثل فصولها فى الذهن الانسانى ، والتى تقررها الاستجابات لتحدى الحياة ، لأنه ما من حضارة مقضى عليها بالفناء التام ما دامت القدرة على الاستجابة تتفاوت تفاوتا هائلا كما رأينا • ومن حق فلسفة توينبي فى التاريخ على الباحثين أن يعيروها ماهى جديرة به من عنـاية واهتمام ، لاسيما فى مصر التى تعد حضـارتها القـديمة الأساس الذى يعتمد عليه كثير من حججه وآرائه •

جيمس جونستون أوكوتى

الترجمة بقلم فؤاد اندراوس

APPENDIX I.

Authorities cited, for Egyptian History, by Toynbee in his "STUDY OF HISTORY".

ABD-AR RAHMAN AL-JABARTI.: *'Aja'ib-al-Athar fi't-Tarajim wa'l-Ahbar.* French Translation. Paris: Leroux. 9 vols. 1888-96.

ANDERSON, A. : *Zoology of Egypt.* (Reptilia).

ARNOLD, SIR T.W. : *The Caliphate.* Oxford: Clarendon Press. 1924.

BELL, H. I. : *Juden und Griechen in Rômischen Alexandreia.* Leipzig: Hinrichs. 1927

BRAUN, MARTIN. : *Griechischer Roman und Hellenistische Geschichtschreibung.* Frankfurt am Main: Klostermann. 1934.

BRAUN, MARTIN. : *History and Romance in Graeco-Oriental Literature.* Oxford: Blackwell. 1938.

BREASTED, J.H. : *The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt.* London: Hodder and Stoughton. 1912.

BUDGE, E. A. WALLIS. : *The Egyptian Sudan: Its History and Monuments.* London: Kegan Paul. 2 vols. 1907.

BURCKHARDT: *Travels in Nubia.*

The Cambridge Ancient History.

CHADWICK, H.M. & N.K. : *The Growth of Literature.* Cambridge University Press. 1936.

CHARLES-ROUX, F. : *Les Origines de l'Expédition d'Egypte.* Paris: Plon-Nourrit. 1910.

CHILDE, V.G.: *The Most Ancient East.* London: Kegan Paul. 1928.

CLAUDIAN. : *De Consulatu Stilichonis.*

CUMONT, F. : *Les Religions Orientales dans le Paganisme Romain.* Paris: Geuthner. 1929.

DAWSON, C. : *The Age of the Gods.* London: Sheed and Ward. 1933. ed.

ERMAN, A. : *Die Religion der Aegypter.* Berlin: De Gruyter. 1934.

ERMAN, A. : *The Literature of the Ancient Egyptians.* English Translation. London: Methuen. 1927.

GARSTIN, SIR Wm. : *Report upon the Basin of the Upper Nile.* London: H.M.S.O. 1904.

GAUTIER, E.F.: *Les Siècles Obscures du Maghreb.* Paris: Payot. 1927.

GHORBAL, S. : *The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Ali.* London: Routledge. 1928.

GIBB, H.A.R. & BOWEN, H.: *Islamic Society and the West.* Oxford University Press. 1939.

GLEICHEN, LORD EDWARD. : *The Anglo-Egyptian Sudan: A Compendium prepared by Officers of the Sudan Government.* London: H.M.S.O. 1905.

GOBINEAU, COUNT J.A. de.: *L'Inégalité des Races Humaines.* Paris: Firmin Didot. 4 vols. 1853-5.

GRIFFITH, G.T.: *The Mercenaries of the Hellenistic World.* Cambridge University Press. 1935.

HALL, H.R. : *The Ancient History of the Near-East.* London: Methuen. 1913.

HERODOTUS.

HUNTINGTON, ELLSWORTH: *Civilization and Climate.* New Haven: Yale University Press. 1924.

IBN IYAS, MUHAMMAD B. AHMED. (Trans. by W.H. SALMON *An Account of the Ottoman Conquest of Egypt in the year A.H* 922. (*A.D.* 1516) London: Royal Asiatic Society. 1921. Oriental Translation Fund, New Series, vol. XXV.

IBN KHALDUN.: *Muqaddamat.* Translated by Baron McG. de Slane. Paris: Imp. Impériale. 3 vols. 1863-8.

JOINVILLE, JEAN SIRE DE. : *La Vie Du Saint Roi Louis*: Paris: Cité des Livres. 1928 ed.,

JONES, A.H.M. : *The Cities of the Eastern Roman Provinces.* Oxford: Clarendon Press. 1937.

LANE-POOLE, S. : *A History of Egypt in the Middle Ages.* London: Methuen. 2nd. ed. 1914.

LYONS, W.G. : *The Physiography of the River Nile and its Basin.* Cairo: National Printing Dept. 1906.

MARÇAIS, G. : *Les Arabes en Berberie du XIe au XIVe siècle.* Paris: Leroux. 1913.

MEYER, E. : *Der Papyrus-fund von Elephantine.* Leipzig: Hinrichs. 2nd. ed. 1912.

MEYER, E. : *Geschichte des Altertums.* Stuttgart & Berlin: Cotta. 4th. ed. 1921.

MEYER, E. : *Gottesstaat, militarherrschaft und Standewesen in Aegypten.* Berichten Berl. Akad. 1928.

MEYER, E.: *Ursprung und Anfange des Christentums.* Stuttgart and Berlin: Cotta. 1921.

MILNE, J. G. : *Egyptian Nationalism under Greek and Roman Rule.* The Journal of Egyptian Archaeology. Vol. XIV, parts iii + IV, 1928.

MYRES, J.L. : *The Dawn of History.* London: Williams and Norgate. n.d.

NEWBERRY, P.E. : *Egypt as a Field of Anthropological Study.* London: Murray. 1924.

NILSSON, N.P. : *Minoan-Mycenaean Religion and its Survival in Greek Religion.* London: Milford. 1927.

PERRY, W.H. : *The Children of the Sun: A Study in the Early History of Civilization.* London: Methuen. 1923.

ROSTOWZEW, M. : *Studien zur Geschichte des Romischen Kolonates.* Leipzig and Berlin: Teubner. 1910.

ROSTOVTZEFF, M. : *A History of the Ancient World.* Oxford University Press. 2 vols. 1926.

SCHAEFER, H. : *Die Mysterien des Osiris in Abydos unter Sesostris* III *nach dem Denkstein des Oberschatzmeisters I-cher-Nofret.* Leipzig: Hinrichs. 1904.

SELIGMAN, C.G. & B.Z. : *Pagan Tribes of the Nilotic Sudan.* London: Routledge. 1932.

SMITH, G. ELLIOT. : *Human History.* London: Cape. 1930.

SMITH, G. ELLIOT. : *The Ancient Egyptians.* London & New York: Harper. 1923.

TARN, W.W. : *Alexander the Great and the Unity of Mankind.* London: Milford. 1933.

VAN HOONACKER, A. : *Une Communauté Judéo-Araméenne à Eléphatine, en Egypte, aux VIe et Ve siècles av. J.-C.* London: Milford. 1915.

VOLNEY, C.F.: *Voyage en Syrie et en Egypte pendant les années* 1783, 1784 *et* 1785. Paris: Desenne & Volland. 2nd. ed. 1787.

WENDLAND, P.: *Die Hellenistich-Romische Kultur in ihern Bezie hungen zu Judentum und Christentum.* Tubingen: Mohr. 2nd. + 3rd. cds. 1912.

نصوص مختارة

من كتابات الفلاسفة والمؤرخين فى « التاريخ »

النص الأول

نظرة فى التاريخ العام بالمعنى العالمى

لامانول كنت

مهما يكن من شأن الفكرة التى لدى المرء عن « حرية الارادة » بالمعنى الميتافيزيقى ، فان مظاهرها فى الأفعال الانسانية انما تتحدد وفقا لقوانين طبيعية عامة ، شأنها شأن أية ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة . وان التاريخ — وموضوعه هو سرد هذه الظواهر أيًّا ما كان خفاء عللها — ليأمل ، وهو بسبيل البحث فى الدور الذى تقوم به حرية الارادة الانسانية عامة ، أن يكشف عن وجود نظام واطراد فى مسلكها ؛ فما قد يبدو للعيان فى الأفراد أنه مضطرب لا يقوم على قاعدة يمكن مع ذلك أن ينظر اليه من جهة النوع على أساس أنه يسير على هيئة تطور — مستمر دائما،

(*) دعانى إلى كتابة هـذا الإيضاح موضع من بين الاشارات القليلة فى العدد الثانى عشر من مجلة جوتا .Gothaische Gel. Zeit. L.J وهى إشارات مأخوذة من غير شك من محادثاتى مع أحد العلماء فى أثناء مرورهم (بتلك البلاد ، جوتا) ؛ وبدون هذا الإيضاح لن يفهم لذلك الموضع معنى (المؤلف) . [وهذا المقال كتبه كنت سنة ١٧٨٤ ، وترجمناه عن المجلد الثامن من مجموع مؤلفات كنت بالألمانية **Kant's Werlke** برلين وليبتسك سنة ١٩٢٣ عند الناشر فلتر دى جرويتر **Walter de Gruyter** ، وهذه النشرة هى نشرة الاكاديمية البروسية الملكية للعلوم .]

وان كان بطيئا ــ للاستعدادات الأصلية لأولئك الأفراد . أجل ، قد يبدو الزواج وما ينشأ عنه من ميلاد وموت ــ مما لحرية الارادة فيه عند الناس أوفر نصيب ــ غير خاضعة لقاعدة يستطيع المرء وفقا لها أن يقدر مقدما عددها بالحساب ، بيد أن الاحصاءات السنوية لهذه الأمور فى الدول الكبرى تدل مع ذلك على أنها تجرى وفقا لقوانين طبيعية مطردة ، مثلها مثل الأحوال الجوية : لا يسع المرء تحديد حدوثها مقدما فى جزئياتها ، لكنها فى مجموعها لا تتخلف عن المحافظة على نمو النبات وجريان الأنهار وما اليها من مرافق طبيعية على نحو فيه اتصال وفيه انتظام . وان قليلا من الناس ، بل شعوبا بأسرها لا يكاد يخطر ببالها أنه بينما كل منها يسلك سبيله وفق مراده وغالبا ضد مراد الآخرين ، فهو مع ذلك انما يحقق فى الواقع غرض الطبيعة المجهول لديه ويستهديه فى سلوكه عن غير شعور ، فتراه يعمل وفقا لمقتضيات لو تبينها لما احتفل لها الا فتيلا .

ولئن كان الناس فى مضطرب أعمالهم لا يسلكون بوجه عام مسلك الغريزة شأن البهائم ، كما أنهم كذلك لايصدرون فى أفعالهم عن خطة موضوعة كأنهم عقلاء ذوو نزعة عالمية ، غير أنه يلوح مع ذلك أنه من غير المستطاع اقامة تاريخ لهم تسوده خطة ثابتة واطراد (كما هى الحال بالنسبة الى النحل أو القندس) . ولا منجاة للمرء من بعض السخط حينما يشاهد أفعالهم وأحوالهم على مسرح العالم الأكبر فيجد أن تلك الحكمة المظهرية التى تتبدى فى الجزئيات والأفراد تنتهى فى جملتها الى أن تكون من نسج الحماقة والعبث الصبيانى ، بل الخسة الصبيانية وشهوة التدمير ، حتى ان المرء لا يدرى ، عند خاتمة المطاف ، ماذا عساه يكون من فكرة عن نوعنا هذا الذى طالما توهم فيه من مزايا . وهنا ليس أمام الفيلسوف ــ ما دام لا يستطيع أن يفترض مقدما أن ثمت ، بوجه عام ، هدفا « عقليا خاصا » يستهدفه الناس فى أعمالهم ــ الا أن يبحث

ما اذا كان فى وسعه أن يكتشف « هدفا للطبيعة » وغرضا فى ذلك المسلك المنافى للعقل مما هو مشاهد فى شئون بنى الانسان — وانا لنود أن نرى ما اذا كنا سنصل الى افتقاد دليل الى مثل هذا التاريخ ، ثم ندع للطبيعة من بعد أن توجد ذلك الرجل الذى يستطيع أن يصورها وفقا لهذا • أنها أتت برجل مثل كبلر أخضع المسالك الشاذة للنجوم لسلطان قوانين ثابتــة على نحو لم يكن فى الحسبان ، كما جاءت بمثل نيوتن الذى فسر هذه القوانين وفقا لعلل فى الطبيعة عامة •

النظرية الأولى

كل الاستعدادات الطبيعية لكائن ما قد هيئت على نحو من شأنه أن تتحقق كاملة ذات يوم وفقا للغرض المنشــود • والمشاهدة الخارجية والباطنة كلتاهما تؤيد هذه الحقيقة فى كل أنواع الحيوان • فالقول بوجود عضو لا يؤدى وظيفة ، أو نظام لا يحقق الغاية منه ، انما هو تناقض فى مذهب الغائية فى الطبيعة • واذا صرفنا النظر عن هذا المبدأ ، فلن نكون بعد بازاء طبيعة تسير بنظام ، بل أمام طبيعة عابثة ليس لها من غاية ، وهنالك يحلى العقــل الهادى مكانه للصــدفة الداعية الى اليأس والقنوط •

النظرية الثانيـة

لابد أن تتحقق فى الانسان (بوصفه الكائن العاقل الوحيد على ظهر البسيطة) تلك الاستعدادات الطبيعية التى تهدف الى استخدام العقل ، تتحقق كاملة فى النوع لا فى الأفراد • الا ان العقل فى كل كائن لهو القدرة على التجاوز بالقواعد والأغراض المتصلة باستعمال قواه الى ما فوق نطاق الغريزة الطبيعية ، وانه لا يعرف لمشروعاته حــدودا • بيد أنه لا يسلك سبيل الغريزة ، بل يحتاج الى القيــام بالمحاولات والممارسة

والتهذيب كيما يتقدم تدريجيا من مرتبة فى النظر الى أخرى تعلوها . ولذا كان لا مناص من أن يحيا المرء حياة مفرطة فى الطول حتى يتيسر له أن يتعلم كيف يجب أن يستخدم كل استعداداته الطبيعية أوفى استخدام ؛ أما اذا كانت الطبيعة قد قدرت لحياته زمنا قصيرا (كما هو الحاصل فعلا) ، فلعلها ، أعنى الطبيعة ، أن تكون فى حاجة الى سلسلة لا نهاية لها من ألوان النتاج التى يسلم كل منها الى الآخر تغير وجوده ، حتى ترقى ببذورها فى نوعنا الى تلك الدرجة من التطور التى تتفق مع أغراضها تمام الاتفاق . وهذه اللحظة الزمانية يجب على الأقل أن تكون فى نظر الانسان الغاية من مساعيه ، والا فان الاستعدادات الطبيعية يجب أن ينظر اليها فى معظمها على أنها عبث لا هدف له ؛ وهذا من شأنه أن يزيل كل المبادىء العملية وبالتالى تصبح الطبيعة وهى التى يجب أن تؤخذ حكمتها بمثابة مبدأ فى الحكم على سائر المنشئات — بالنسبة الى الانسان وحده متهمة بنوع من العبث الصبيانى .

النظرية الثالثة

لقد أرادت الطبيعة : أن ينتج المرء بنفسه من نفسه كل مايتجاوز نطاق التنظيم الآلى لحياته الحيوانية وألا يشارك فى أية سعادة أو كمال آخر غير ذلك الذى أوجب لنفسه بعقله وهو حر من الغريزة . ذلك أن الطبيعة لا تفعل شيئا عبثا وليست مبذرة فى استخدام الوسائل المؤدية الى تحقيق غاياتها . فاذا كانت قد أعطت الانسان العقل وما يقوم عليه من حرية الارادة ، فذلك دليل واضح على غرضها من تدبيرها . أعنى أنه يجب ألا ينقاد بواسطة الغريزة أو أن يهذب وتهيأ أموره عن طريق المعرفة الفطرية ؛ بل عليه بالأحرى أن يصدر فى كل شىء عن نفسه . فاكتشافه وسائل غذائه وملبسه وأمنه الخارجى وحمايته (التى من أجلها لم تعطه قرونا كالثور ، أو مخالب كالأسد أو أنيابا كالكلاب ، انما أعطته

يدين فحسب) وكل متعة تجعل الحياة محتملة ، بل فطنته نفسها وكلمته وكذلك طيب نواياه يجب كلها أن تكون من عمل نفسه • ويلوح أن الطبيعة قد وقعت هنا فى أعظم شحها فقدرت زاده الحيوانى على نحو من التدقيق والتقتير وفقا لأشد الحاجات فى بدء وجوده وكأنها أرادت أن تجعل الانسان — اذا كان قد سعى ليرتفع من الفطرة الأولى الى أكبر المهارة والى الكمال الباطن لنوع التفكير وبالتالى الى السعادة (بالقدر الذى يكون به هذا ممكنا على الأرض) — نقول أن تجعل الانسان صاحب الفضل وحده ، فلا يدين به الا لنفسه ؛ وكأنما قد رأت أن تقديره العقلى لنفسه أولى من توفير الهناء له • اذ فى طريق هذه الأمور الانسانية يقوم حشد من المتاعب التى تنتظر الانسان ؛ لذا يلوح أن الطبيعة لم تعمل كيما يحيا الانسان سعيدا ، بل من أجل أن يتابع أعماله حتى يصبح بفضل مسلكه جديرا بالحياة والهناء • ومن الغريب هنا مع ذلك أن الأجيال السالفة يبدو أنها تدبر أمورها من أجل الأجيال التالية كيما تهيء لها درجة تستطيع منها أن ترفع البنيان الذى تهدف اليه الطبيعة ؛ وأن المتأخرين وحدهم هم الذين سيكون من حظهم أن يسكنوا ذلك البناء الذى عملت على تشييده سلسلة طويلة من أسلافهم (دون أن يقصدوا الى هذا حقا) دون أن يستطيعوا المشاركة فى تلك السعادة التى أعدوها • لكن مهما يكن من غرابة هذا ، فانه أمر ضرورى مع ذلك مادام من المقرر أن نوعا حيوانيا لابد أن يملك عقلا وأن صنفا من الكائنات العاقلة التى ستموت كلها ولكن نوعها غير قابل للفناء — سيصل مع ذلك الى تمام تحقيق استعداداته •

النظرية الرابعة

ان الوسيلة التى تتذرع بها الطبيعة من أجل تحقيق النمو فى كل استعداداتها هى التعارض فيما بينها داخل الجماعة طالما كان هذا التعارض مؤديا

فى النهاية الى نظام قانونى . وأقصد هنا من قولى « التعارض » تلك الروح غير الاجتماعية عند الناس فى المجتمع ، أعنى القضاء على ميلهم الاجتماعى ، هذا الميل الذى يرتبط مع ذلك بمقاومة عامة يهـــدد تلك الجماعة دائما بالتفرقة . وهذا الاستعداد موجود بوضوح فى الطبيعة الانسانية . فعند الانسان ميل الى الاجتماع ، لأنه يشعر بنفسه فى مثل هذه الحالة أكثر انسانية ، أعنى أوفر خطأ من نمو استعداداته بيد أن لديه مع ذلك ميلا قويا الى الاعتزال ، لأنه فى الوقت عينه يجد فى نفسه خاصية عدم الاجتماع ، أى الرغبة فى أن يوجه كل شىء وفقا لاتجاهه الخاص ، ولهذا يجد المقاومة فى كل مكان طالما يعرف عن نفسه أنه من ناحيته ذو ميل الى مقاومة الآخرين . وهذه المقاومة هى التى توقظ كل قوى الانسان ، فتحمله على قهر ميله الى البطالة ، وعلى أن يحقق لنفسه — مدفوعا بالطموح والنزعة الى التملك والسلطان — مكانة بين اخوانه الذين لعله لايحتملهم ولكنه لايستطيع مع ذلك أن يفترق عنهم . هنالك تبدأ الخطوات الأولى الحقيقية التى تنتقل بالانسانية من البداوة والسذاجة الى الحضـــارة ، والحضارة انما هى القيمة الاجتماعيـــة للانسان ، فتنمو المواهب شيئا فشيئا ، ويتربى الذوق ، وبالتنوير المستمر تستحيل الحالة الأوليـــة الفطرية الى تكوين نوع من التفكير تتميز فيه الاستعدادات الطبيعية الساذجة بمرور الزمان الى مبادىء أخلاقية محددة ووفقا لهذا يستحيل الوفاق الاجتماعى الذى أفسدته نزعة مرضية ، نقول انه يستحيل الى كل أخلاقى . وبدون هذه النوازع غير الاجتماعية — وان كانت فى ذاتها غير محمودة — التى عنها تنشأ المقاومة التى لابد لكل أن يلقاها من جراء ادعاءاته الأنانيـــة لبقيت كل المواهب كامنـــة فى بذورها أبدا تحيـــا حياة أشـــبه ما تكون بحيـــاة الرعاة الأركادية [1] . فيها الوفاق

(١) نسبة إلى أركاديا، وهى فى الأصل إقليم فى بلاد اليونان فى الجزء الأوسط من البلوبونيز كان يسكنها الرعاة وتغنى بها الشعراء الأقدمون بوصفها مقام البراءة والنعيم ؛ ولهذا اشتقت منها هذه الصفة للدلالة على مقام خيالى لرعاة أطهار يحيون حياة البراءة والنعم والطهارة . ومن هذا استعمالها هنا .

الكامل والقناعة والحب المتبادل : فيكون الناس مثلهم مثل الشاء يسرحونها للرعاء ، لايكادون يقيمون لوجودهم من الوزن أكثر مما يفعله أولئك الرعاة بالنسبة الى ماشيتهم • ولن يملأوا اذن فراغ الخليقة فيمايتصل بالغاية منها بوصفهم ذوى طبيعة عاقلة • فالحمد للطبيعة اذا على الشقاق الاجتماعى ، والعبث المتسابق المتحاسد ، والطمع النهم فى التملك بل والسلطان ! فبدونها لبقيت كل الاستعدادات الطبيعية فى الانسان راقدة لم تظفر بحظها من النماء • ان الانسان يريد الوفاق ؛ لكن الطبيعة تعرف خيرا ماهو جيد بالنسبة الى نوعه : انها تريد الشقاق • هو يريد الدعة والقناعة ؛ لكن الطبيعة تريد منه أن يخرج عن الركود والتراخى والقناعة المتبطلة كيما يلقى بنفسه فى حومة العمل والكفاح ، وفى مقابل هذا يستكشف الوسائل للنجاة من هذه الأخيرة ببراعة ومهارة • والدوافع الطبيعية لهذا ، والينابيع لعدم الوفاق الاجتماعى وللمقاومة المتصلة مما ينشأ عنه الكثير من الشر ، ولكنه يؤدى مرة أخرى الى توتر جديد فى القوى وزيادة فى نماء الاستعدادات الطبيعية ، كل هذا لعله اذن يكشف عن نظام أبدعه خالق حكيم ، وليس اذا من صنع روح خبيثة راحت تفسد عملها الرائع أو حملها الحسد على القضاء عليه •

النظرية الخامسة

المشكلة الكبرى للنوع الانسانى والتى أرغمته الطبيعة على أن يجد لها حلا هى الوصول الى تكوين مجتمع مدنى (بورجوازى) يحكمه قانون عام • ولما كان فى المجتمع وحده وفى ذلك النوع منه الذى يحقق أكبر قدر من الحرية وبالتالى تعارضا مستمرا بين أعضائه ومع ذلك أدق تعيين وتأمين لحدود تلك الحرية حتى يمكن أن تقوم الى جوار حرية الآخرين — نقول انه لما كان فيه وحده يمكن بلوغ غرض الطبيعة ، أعنى نماء كل استعداداتها ، فى الانسانية ، فان الطبيعة تريد أيضا أن تهيىء بنفسها هذا

كله كما تفعل بالنسبة الى كل أغراضها الأخرى ، فلا بد اذن من أن يكون ثمة مجتمع ترتبط فيه الحرية ، فى نطاق القوانين الخارجية الى أعلى درجة ممكنة ، بقوة لاتقهر ، أعنى دستورا كاملا عادلا للمواطنين ؛ فهذا هو أعلى واجب على الطبيعة نحو بنى الانسان ، لأن الطبيعة لاتستطيع أن تحقق سائر أغراضها من النوع الانسانى الا عن طريق حل تلك المشكلة وتحقيق ذلك المجتمع . والحاجة هى التى ترغم بنى الانسان على الانضواء تحت هذا السلطان القاهر ، والا فانهم ليطلبون الحرية المطلقة من كل قيد ، وأكبر هذه الحاجات تلك التى يحدثها بنو الانسان بعضهم لبعض مما تجعل ميولهم أنهم لايقدرون على احتمال العيش بعضهم مع بعض فى حرية وحشية . لكن فى مثل هذا الميدان من نوع هذا الاتحاد بين المواطنين تحدث هذه الميول نفسها خير الأثر من بعد : مثل ذلك مثل الأشجار فى الغابة يسعى كل منها أن يسلب الآخر الهواء والشمس ، فيحتاج كل الى السعى الى الآخر فيظفران معا عن هذا الطريق بنماء مستقيم جميل ؛ وعلى العكس من هذا تلك التى تريد أن تستقل بنفسها وحريتها عن الآخرين فتدفع بأعضائها الى طلب ماتهواه تراها تنمو نموا أعوج مضطربا عاجزا . وكل حضارة وكل فن يزين الانسانية ، وأجمل نظام اجتماعى ، هذه كلها ثمار الروح غير الاجتماعية التى تحوج نفسها بنفسها الى التهذيب وبالتالى تنمى بذور الطبيعة عن طريق الصناعة المبدعة تنمية كاملة .

النظرية السادسة

وتلك المشكلة هى فى الوقت نفسه أعقد المشاكل ولن يحلها بنو الانسان الا متأخرا . والصعوبة ، التى تضعها أمام الأنظار فكرة هذا الواجب نفسها ، هى هذه : الانسان حيوان يحتاج الى سيد طالما كان يحيا بين بنى نوعه . ذلك أنه من غير شك يسىء استخدام حريته فيما يتصل بأقرانه ؛ واذا صح أنه يريد ، بوصفه كائنا عاقلا ، قانونا يضع لحريته قيودا

وحدودا ، فان ميوله الحيوانية الأنانية تقتاده الى حيث يجب ألا يذهب • ولذا كان لابد له من سيد يكسر من غلواء ارادته الأنانية ويحوجه الى اطاعة ارادة يعترف بها الجميع وهم أحرار • لكن أنى له بهذا السيد ؟ انه لايمكن أن يكون الا من بين بنى الانسان • لكن هذا بدوره هو الآخر حيوان وبالتالى فى حاجة الى سيد • فليكن هذا السيد اذا من يكون ، لكن لاسبيل الى معرفة كيف يستطيع الانسان لأن يظفر بسيد أعلى للعدالة العامة يكون هو أيضا عادلا ، ويمكن أن يبحث عنه فى شخص واحد أو فى عدة أشخاص مختارين من جماعة • ذلك أن كلا من هؤلاء سيسىء دائما استخدام حريته اذا لم يكن ثمة أحد فوقه يحمله على الخضوع للقوانين • لكن السيد الأعلى يجب أن يكون عادلا لوجه العدالة نفسها ، وأن يكون مع هذا انسانا • ولذا فان هذه المسألة أعقد المسائل كلها ، ماذا أقول ! بل ان حلها على الوجه الكامل مستحيل : فمن هذا الخشب المعوج الذى من مثله صنع الانسان لايمكن أن نصنع شيئا مستقيما : فمتى يستقيم الظل والعود أعوج ! بيد أن الاقتراب من هذه الغاية قد جعلته الطبيعة من واجبنا (١) • أما أنها آخر مايتحقق ، فهذا يتبين أيضا من هذا وهو أن الأفكار الصائبة عن طبيعة دستور ممكن تقتضى تجربة كبيرة كونتها الأجيال المتطاولة وفوق ذلك كله ارادة طيبة مستعدة لقبول تلك التجربة ، وهذه الشروط الثلاثة لايمكن أن تتوافر معا الا بصعوبة جدا ، وحتى اذا توافرت فلن يكون ذلك الا متأخرا جدا بعد كثير من المحاولات التى تذهب سدى •

---

(١) لهذا كان دور الإنسان إذن مصطنع كل الاصطناع ، أما ماهو حال سكان الكواكب الأخرى وطبيعتهم ، فهذا مالا تعرف عنه شيئاً ؟ لكن إذا لم نطنا بالطبيعة هذه المهمة خير إناطة فلعلنا أن نفخر بأننا خليقون بأن نعزو إلى أنفسنا مكانة غير ضئيلة بين جيراننا فى الكون ولعل أمل كل فرد من هؤلاء أن يبلغ مصيره كاملا فى حياته ، أما عندنا نحن فالأمر بخلاف هذا إذ النوع هو وحده الذى يمكنه أن يرجى هذا (المؤلف) .

ان مشكلة ايجاد دستور للمواطنين كامل تتوقف على مشكلة « أحوال دولية خارجية » قانونية ، ولايمكن أن تحل بدون هذه الأخيرة . ماذايفيد في العمل من أجل دستور للمواطنين قانوني بين أفراد من الناس ، أعني من أجل نظام هيئة عامة ؟ ان الروح غير الاجتماعيةالتي أحوجت الناس الى هذا هي مرة أخرى العلة في أن كل هيئة في أحوالها الخارجية ، أعني كدولة في علاقاتها مع الدول الأخرى ، تعمل في حرية مطلقة ، ويجب بالتالي أن تنتظر كل منها من الأخرى أن تصيبها بالشر الذي حمل الأفراد وأرغمهم على اصطناع وضع قانوني مدني . ولذا فإن الطبيعة قد جعلت من عدم احتمال الناس بعضهم لبعض ، بل والجماعات الكبرى والدول التي من هذا النوع ، نقول انها جعلت من عدم الاحتمال هذا وسيلة كيما تجد في التعارض الضروري الوقوع بينها حالة للسلام والأمان ؛ أعني أنها بواسطة الحروب والتسلح والاستعداد الذي لاينتهي ولا يهدأ من أجلها ؛ وبواسطة الأزمة التي لابد أن تشعر بها كل دولة باطنيا حتى في وسط السلام ، انها بواسطة هذا كله تدفع الى محاولات تكون في البدء ناقصة ثم تعيد في النهاية — بعد كثير من الدمار والعثار بل ونفاذ القوى باطنيا — الى ماكان يمكن العقل أن يخبرهم به بدون هذه المحن الأليمة ، وأعني به : أن ترتفع من حالة الفوضى القانونية والوحشية الى اتحاد بين الشعوب ، حيث كل منها حتى أصغرها تستطيع أن تؤمل في سلامتها ونيل حقوقها عن طريق هـذا الاتحاد الكبير بين الشـعوب (حلف أمفكتيون Foedus Amphictyony) [1] وعن طريق قوة متحدة وقرار يصدر وفقا

(١) أمفكتيون هو ابن هيلينوس الذي كون مجلس «الأمفكيتون» المتكون من أحكم الحكماء وأفضل الفضلاء في بعض بلاد اليونان ؛ وكان يجتمع مرتين في العام في مدينة دلفي وأحياناً في ترموبوليه ؛ وكان ينظر في جميع الأمور التي قد ينشأ عنها نزاع بين مختلف الدويلات اليونانية. وكانت قراراته تعد مقدسة ولا يمكن نقضها ، بل كان يلجأ أحياناً الى السلاح لتنفيذها . وكان عدد أفراده اثني عشر ، ثم بلغ عددهم ٣٠ في عصر أنطونيوس بيوس .

لقوانين المشيئة المتحدة لكل الشعوب • ومهما بدا فى هذه الفكرة من خيال وأحلام حتى سخر منها بوصفها كذلك رجل مثل الأبيه دى سان بيير أو روسو (ولعل ذلك لأنهم ظنوا أنها كذلك قريبة فى التحقيق) : فان الخروج الذى لامفر منه من هذه الأزمة التى فيها أضر الناس بعضهم ببعض وأوقعوا بأنفسهم الشقاء ، هو الذى لابد أن يرغم الدول على اتخاذ هذا القرار (مهما يكن شدة وقعه عليها) الذى اضطر اليه حتى الرجل المتوحش نفسه رغما عن ارادته ، ألا وهو أن يتنازل عن حريته الوحشية وأن يبحث عن السلام والأمان فى دستور شرعى •

وعلى هذا فما الحروب الا محاولات متعددة (وان لم يكن هذا فى قصد الانسان ، انما فى قصد الطبيعة) من أجل ايجاد أحوال للدول جديدة وتكوين هيئات جديرة بالقضاء أو على الأقل بتمزيق أوصال القديمة ؛ وهذه الجديدة بدورها اما أنها لاتستطيع أن تحتفظ بنفسها فى داخل ذاتها أو بعضها الى جوار بعض مما يؤدى الى مرورها بمحنة ثورات مشابهة جديدة ، وتستمر الحال على هذا الى أن نصل — عن طريق خير تنظيم للدستور المدنى من الناحية الداخلية ثم عن طريق الاتفاق العام والتقيد من الناحية الخارجية — الى حال تشبه حال الكائن المدنى العام ، حال يمكن أن تحافظ على نفسها كأنها كائن يتحرك بنفسه •

أما هل للانسان أن ينتظر من نوع التضافر الأبيقورى للعلل الفاعلية أن الدول تحاول — مثلها مثل ذرات المادة فى اصطدامها حسبما يتفق — أن تكون كل أنواع المؤسسات التى يحطمها مصادمات جديدة حتى تصل الى تكوين مؤسسة يمكن أن تبقى بصورتها (وسيكون ذلك صدفة سعيدة لاتتحقق الا بصعوبة جدا) ، أو أن عليه بالأحرى أن يظن أن الطبيعة تسلك هاهنا سبيلا منتظما فيه يرتفع نوعنا شيئا فشيئا من المراتب الدنيا للحيوانية حتى يبلغ أعلى درجة من درجات الانسانية عن طريق فن خاص مغتصب من الانسان ، وينمى فى هذا الترتيب الذى يبدو فى

الظاهر وحشيا تلك الاستعدادات الأصلية بطريقة منتظمة ؛ أو اذا فضل الانسان ألا ينتج شيء ، أو على الأقل شيء حكيم ، من كل هذه التأثيرات وتبادل التأثيرات بين الناس فى جملتهم ، وأن يبقى الأمر كما كان من قبل ولا يستطيع الانسان أن يعرف مقدما ما اذا كان الشقاق الذى هو طبيعى فى نوعنا يهيىء لنا فى النهاية جحيما من الشرور فى مثل هذا الوضع الذى لايزال مهذبا ، نظرا الى أنه سيقضى من جديد على هذه الحالة نفسها وعلى كل ماتم حتى الآن من تقدم فى الحضارة بنوع من التدمير البربرى (وهو مصير لاقبل للانسان به تحت حكم الصدفة العمياء ، وهو بالفعل كالحرية العديمة القانون سواء بسواء ، اذا لم يخضعها المرء الى دليل من الطبيعة يتسم بالحكمة !) — وهذا يرجع تقريبا الى السؤال التالى : هل من العقل أن يؤمن الانسان بوجود غائية فى الطبيعة فى أجزائها ، وعدم غائية فى الطبيعة ككل • فما فعلته حالة المتوحشين الخالية من الهدف ، وهو أنها احتجزت كل الاستعدادات الطبيعية فى نوعنا ، ولكنها أحوجتها فى النهاية ، بما سببته من شرور ، الى الخروج من هذه الحالة والدخول فى وضع دستورى قانونى فيه تزدهر كل تلك البذور — فعلته أيضا الحرية البربرية للدول التى تم انشاؤها ، أعنى أنه باستخدام كل القوى التى للكائنات والهيئات فى اثارة الشقاق بين بعضها وبعض ، وبالدمار الذى تجره الحرب ، وقبل هذا وأكثر بضرورة البقاء فى حال استعداد من أجل هذا — عرقل نمو الاستعدادات الطبيعية فى تقدمها ، بيد أنه حدث فى مقابل هذا أن الشرور التى تنشأ عن هذا كله تحوج نوعنا الى تلمس قانون للتوازن خاص بالمقاومة — وهى فى ذاتها سليمة مفيدة — بين الدول بعضها الى جوار بعض مما ينشأ عن حريتها ، وايجاد قوة متحدة تعطى للنفس الطاقة ، وبالتالى حالة دولية للأمان الدولى العام ، ليست تخلو من كل خطر ، حتى لا تغفو قوى الانسانية ، ولكن أيضا ليس بدون مبدأ للمساواة بين الفعل ورد الفعل المتبادلين ، حتى لا يقضى كل على

الآخر • وقبل أن تتحقق هذه الخطوة الأخيرة (أعنى اتحاد الدول) ، واذن عند منتصف الطريق فى تكونها فحسب ، تتحمل الطبيعة الانسانية أقسى الشرور تحت المظهر الخادع للرفاهية الخارجية ، ولذا فان روسو لم يكن على خطأ حينما فضل حالة الفطرة والوحشية ، ما دام الانسان ينسى هذه المرحلة الأخيرة التى لا يزال أمام نوعنا أن يبلغها • اننا ندين بالدرجة العليا للفن والعلم « بالحضارة » [1] • ونحن « متمدينون » الى حد مفرط فى كل أنواع التهذيب الاجتماعى والتأنق فى آداب المعاشرة. أما أن نعد أنفسنا بهذا « كرماء الأخلاق » ، فدون هذا لا يزال أمامنا الكثير • ذلك لأن فكرة الأخلاقية تنتسب بعد الى الحضارة ؛ لكن استعمال هذه الفكرة التى تفضى الى ما يشابه الآيين فى حب الشرف والوجاهة الخارجية وحدها ، هو الذى يكون وحده التمدين • لكن طالما كانت الدول تستنفد كل قـواها فى أغراض التوسع العابثة المنطـوية على البطش ، وبالتالى تعوق المجهودات البطيئة للتكوين الباطن لطريقة التفكير عند المواطنين ، بل وتسلبهم كل تأييد فى هذا السبيل فلا سبيل الى ترجى شيء من هذا القبيل : لأنه لابد لهذا من عمل باطن طويل لكل هيئة عامة من أجل تهذيب مواطنيها وتنشئتهم • غير أن كل خير لا يقوم على تفكير أخلاقى خير ليس الا مجرد مظهر زائف وشقاء براق • وسيبقى النوع الانسانى حبيس هذه الحال حتى يقدر له أن يعمل جهده كما قلت من أجل الخروج من هذه الحالة العمائية للملابسات الدولية •

النظرية الثامنة

يمكن المرء أن يرى تاريخ النوع الانسانى فى مجموعة على أساس أنه تحقيق لتصميم مستور للطبيعة من أجـل ايجاد دستور للدولة كامل داخليا

(١) لاحظ هنا التفرقة الدقيقة بين الحضارة والمدنيـة ، وهى التفرقة المشهورة فى الفـكر الألمانى . راجع كتابينا « نيتشه » [ص ١٣٣ — ص ١٤٤ ، الطبـعة الثانيـة القاهرة سنة ١٩٤٥] و (اشبنجلر) (فى مواضع عدة) .

و « لأجل هذا الغرض » خارجيا أيضا ، بوصفه الوضع الوحيد الذى نستطيع الطبيعة فيه أن تنمى كل استعداداتها فى الانسانية تمام التنمية ، وهذه النظرية نتيجة لما تقدم . وهكذا يرى المرء أن الفلسفة يمكن أن يكون لها حلمها بمملكة الله على الأرض [1] ؛ لكنه حلم من ذلك النوع الذى يمكن من أجل تحققه أن تكون فكرته نفسها نافعة وان كان ذلك من بعيد جدا ، مما يجعله اذن حلما على كل حال . انما يتوقف الأمر على ماعسى أن تكتشفه التجربة عن شيء من مثل هذا المسلك لغرض الطبيعة. وأقول : « عن شيء من مثل هذا ... » لأن هذا المجرى يلوح أنه يقتضى قدرا من الزمان طويلا حتى يبلغ نهايته ، الى حد أنه من النذر الضئيل الذى أودعته الانسانية فى هذا السبيل لايستطيع المرء أن يحدد صورة طريقها والصلة بين الأجزاء وبين الكل الا كما يحدد ، على أساس كل الأرصاد الفلكية التى تمت حتى الآن ، المسلك الذى اتخذته الشمس هى وكل الكواكب التى تدور من حولها فى نظام الأجرام الثابتة الكبير ؛ وان كان له أن يثق مع ذلك ، بناء على السبب العام للتصوير التنظيمى للكون وعلى القليل الذى شاهده المرء حتى الآن ، بوجود مثل هذا المسلك أو الدورة وجودا فعليا حقا . بيد أن الطبيعة الانسانية تقتضى أنه حتى بالنسبة الى العصور المتطاولة فى القدم التى وجد فيها نوعنا ليس الأمر بعديم الأهمية مادام يمكن توقعه بيقين . ويمكن أن يحدث فى حالتنا هذه خصوصا على وجه أقل احتمالا بقدر مايبدو أنه كان فى وسعنا وبترتيبنا العاقل أن نعجل بتحقيق هذه اللحظة السعيدة لأخلاقنا . وان البقايا الضئيلة لهذا الاقتراب (من تلك اللحظة) لعلى جانب كبير من الأهمية بالنسبة لنا . أما اليوم فان الدول قد صارت الى حال من الملابسات المصطنعة بعضها ضد بعض الى درجة أنه ليس فى وسع واحدة منها أن تتوانى فى الحضارة الداخلية دون أن تفقد من قوتها ونفوذها

(1) فى النص Chiliasmus أى مملكة المسيح على الأرض لمدة ألف عام .

بالنسبة الى الأخرى ؛ وعلى هذا فانه حيث لايوجد التقدم ، فان الاحتفاظ بغرض الطبيعة هذا مضمون نسبيا عن طريق النوايا المتنافسة فى الطموح • وفضلا عن هذا فان الحرية المدنية لايمكن حقا المساس بها مساسا خطرا دون أن يشعر بمضار هذا فى كل المهن ، خصوصا فى التجارة ، مما ينشأ عنه انهيار فى قوى الدولة من الناحية الخارجية • لكن هذه الحرية تتقدم شيئا فشيئا • فاذا حيل بين المواطن وبين أن يسعى للظفر برفاهيته على حسب هواه وطريقته ، مما لايمكن أن يتحقق الا مع حرية الآخرين معه ، فان هذا من شأنه أن يعتاق نشاط الحركة وبالتالى قوى المجموع • ولهذا ينقضى التضييق على الأشخاص فى أحوالهم وأعمالهم ، ويطلق العنان للحرية الدينية ؛ ومن هنا تنشأ شيئا فشيئا — وبنزوة وسورة متواثبتين — نزعة التنوير بوصفها خيرا عظيما لابد أن يقتاد الجنس البشرى من النزعة الأنانية فى التوسع عند سادته ، اذا شاء أن يفهم مصلحته • وهذا التنوير ومعه أيضا نوع من المشاركة الوجدانية ، مما لا يستطيع الرجل المستنير أن يتجنب المشاركة فيه فى جانب الخير الذى يفهمه أجود الفهم ، نقول ان هذا التنوير يجب أن يصاعد شيئا فشيئا حتى يصل الى العروش فيؤثر فى مبادئها فى الحكم • وعلى الرغم من أن سادة عالمنا — مثلا — ليس لديهم حتى اليوم مال باقيا من أجل المعاهد التعليمية العامة وبالجملة من أجل كل ما يتصل بخير العالم ، لأن كل ما لديهم قدر مقدما لحساب الحرب المقبلة [1] : فانهم مع ذلك سيجدون أن مصلحتهم هم هى على الأقل — فى ألا يقفوا فى سبيل المجهودات — وان تكن ضعيفة طويلة — التى يبذلها شعبهم فى هذا الميدان • وأخيرا ستكون الحرب نفسها ليست فقط مصطنعة ، وفى نتائجها بالنسبة الى الفريقين غير مأمونة العواقب ، بل وأيضا بما سيكون لها من عقابيل وخيمة تشعر فيها الدولة بفداحة ديونها

---

(١) لاحظ لهجة السخرية اللاذعة فى هذه العبارة ! .

(من أجل اكتشاف جديد) ، مما لا سبيل الى الخلاص منه — نقول ان الحرب ستكون مغامرة هائلة يمتد تأثيرها فى دولة واحدة الى بقية أجزاء هذا العالم المتشابك فى مرافقه الى حد أن هذه الدول الأخرى — وقد دفعها الخطر الحائق بها ، وان كان ذلك دون وجه قانونى ، تقدم نفسها وتضعها موضع الحكم بين المتخاصمين وترى من واجبها أن تكون هيئة كبرى من الدول فى المستقبل على أكبر نطاق ، وهو مالم يطلعنا العالم فى الماضى على شىء من مثله حتى الآن . وعلى الرغم من أن هذه الهيئة الدولية لا توجد حتى الآن الا بصورة مشروع أولى جدا ، فقد بدأ يتردد فى كل الأعضاء نوع من الشعور أن على كل منها واجب السهر على الباقين ، وفى هذا ما يعطى الأمل بأنه بعد كثير من الثورات الاصلاحية ستحقق ذات يوم ذلك الهدف الذى استهدفته الطبيعة وجعلته أسمى أغراضها وهو بلوغ وضع دولى عام يكون بمثابة الرحم الذى ستنمو فيه كل الاستعدادات الأصلية فى النوع الانسانى .

النظرية التاسعة

يجب أن نعد القيام بمحاولة فلسفية لتصوير التاريخ العام للعالم على أساس تصميم للطبيعة يهدف الى الاتحاد المدنى الكامل فى النوع الانسانى — نقول انه يجب أن نعد هذه المحاولة ممكنة ، بل ومفيدة بالنسبة الى غرض الطبيعة هذا . أجل انه من الغريب ، بل قد يبدو من غير الصائب فى الظاهر أن نصور « التاريخ » وفقا لفكرة وهى ماذا يجب أن يسير عليه العالم اذا ما ووزن وفقا لغايات معينة عاقلة ؛ اذ يلوح أن مثل هذا الوضع لا يؤدى الا الى تأليف « قصة » . لكن اذا كان على المرء أن يقر بأن الطبيعة نفسها فى مجال الحرية الانسانية لا تعمل دون خطة وغاية مقصودة ، فان هذه الفكرة لعلها يمكن أن تكون قابلة للاستعمال ؛ وسواء كنا من قصر النظر بحيث لا نستطيع

أن نتبين سر عملها ، فيجب مع ذلك أن نستعين هذه الفكرة دليلا يهدينا الى عرض هذا الخليط غير القائم على خطة من الأعمال الانسانية فى جملتها على الأقل ، نقول أن نعرضه بطريقة تنظيمية . لأننا اذا بدأنا بالتاريخ اليونانى — بوصفه ذلك الذى يجب أن يقوم على أساسه أى تاريخ آخر أقدم منه أو عصريه [1] ، أو هذا هو ما يعتقده الناس — ، واذا تابع تأثيره فى تكوين وسوء تكوين نظام الدولة عند الرومان ، الذين ابتلعوا الدولة اليونانية ، ثم تأثير هذا الأخير (نظام الدولة عند الرومان) فى القبائل المتبربرة ، التى حطمت بدورها الدولة الرومانية ، حتى يصل الى عصرنا الحاضر ؛ بينما يضيف اليه التاريخ السياسى للشعوب الأخرى — كما عرفناه وبلغنا عن طريق تلك الأمم المستنيرة — بطريقة « عرضية » على هيئة « أحداث متناثرة » ؛ فانه يكتشف مسلكا منتظما لاصلاح نظام الدولة فى هذا الجزء من عالمنا (الذى لعله أن يشرع لبقية أجزاء العالم يوما ما) . وبالقدر الذى فيه لايحسب المرء حسابا فى كل موضع الا للدستور المدنى والقوانين الخاصة بالمواطنين وأمور الدولة ، وفقا لما أفاده هذان (الدستور وأمور الدولة) بما فيهما من خير زمنا طويلا فى ترقية شعوب (ومعها الفنون والعلوم كذلك) وتمجيدها ، بينما عملت من ناحية أخرى بما فيها من مساوىء على انهيارها ، ومع ذلك قد بقى دائما سوار من بذور التنوير كانت تنمى فى كل ثورة حتى هيأت درجة أعلى من الاصلاح : نقول انه بهذا القدر يمكن ، فيما أعتقد ، اكتشاف دليل

(١) لا يستطيع أحد أن يصدق التاريخ القديم إلا جمهور من العلماء بقى منذ البداية حتى يومنا هذا بطريقة متصلة . أما ما قبل هذا التاريخ فشىء مجهول ، وتاريخ الشعوب التى عاشت خارج ذلك التاريخ القديم (التاريخ اليونانى) لا يمكن أن يبدأ إلا منذ اللحظة التى دخلوا فيها ذلك التاريخ القديم ، وقد حدث بالنسبة إلى اليهود فى مصر البطالمة عن طريق ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة اليونانية وبدونها لا يؤمن أحد بصدق أخبارهم المتناثرة إلا قليلا . ومنذ ذلك الحين (إذا كانت هذه البداية قد اكتشفت أولا على وجه صحيح) يمكن امرء أن يعطى أخبارهم فصاعدا . وكذلك بالنسبة إلى سائر الشعوب. والورقة الأولى فى توكيد ديس (كما يقول هيوم) هى البداية الوحيدة لكل تاريخ صحيح .

لا يفيد فقط فى ايضاح المجال المضطرب للأمور الانسانية أو فى التنبؤ السياسى بمستقبل التغيرات فى نظم الدول (وهى فائدة استخلصها الانسان من تاريخ الانسانية كذلك ، حينما رأى فيه فعلا غير مترابط للحرية غير المقيدة بقانون !) ؛ بل وسيكون (هـذا الدليل) أيضا (وهو بألا يمكن الانسان أن يأمله بسبب قوى ، الا اذا افترض مقدما وجود خطة فى الطبيعة) عاملا على الكشف عن نظرة مواسية فى المستقبل ، يمكن فيها تصور حال النوع الانسانى فى المستقبل البعيد ، وكيف ارتفع أخيرا الى الحال التى فيها يمكن كل البذور التى أودعتها الطبيعة فيه أن تنمو نموها الكامل وتحقق رسالتها هنا على ظهر الأرض • ومثل هذا التبرير لعمل الطبيعة — أو بالأحرى للعناية — ليس دافعا عديم الأهمية لاختيار وجهة نظر خاصة فى تأمل العالم • اذ ما قيمة اطراء جلال الخلق وحكمته فى مملكة الطبيعة غير العاقلة ، والتوصية بتأملها ، اذا كان جزء المسرح الأكبر للحكمة العليا ، الذى ينطوى على الغاية من كل هذه (الكائنات غير العاقلة) — وأعنى به تاريخ النوع الانسانى — سيظل اعتراضا دائما على هذا ، يحوجنا النظر اليه الى صرف عيوننا عنه رغم ارادتنا ؛ وبينما نيأس نهائيا من أن نجد فيه غاية عاقلة كاملة ، نراه يدفعنا الى أن ننشدها فى عالم آخر ؟

لكن سيساء فهم غرضى اذا اعتقد أحد أننى بهذه الفكرة عن تاريخ العالم على أساس أن له دليـلا قبليا أريد أن أحرف النظر عن ايجـاد التـأريخ[1] بالمعنى المحدود وهو القائم على أساس تجريبى • انما هى فكرة عما عسى أن يحاوله عقل فلسفى (يجب أيضا أن يكون موفور العلم بالتاريخ جدا) من وجهة نظر أخرى • وفضلا عن هذا يجب على التكلف

---

(١) هنا يستعمل كنت كلمة **Historie** بمعنى علم التأريخ ، فى مقابل **Geschichte** أى التاريخ أعنى مجرى الأحداث فى الزمان ؛ وهذه تفرقة سيكون لها خطرها فى فلسفة التـاريخ عند الفلاسفة طوال القرن التاسع عشر حتى عصرنا هذا فى الفلسفة الوجودية عند هيدجر ويسبرز راجع فى ذلك كتابنا « اشبنجلر » ص٥٤ – ص٥٦ ط ١ القاهرة سنة ١٩٤١ •

الممدوح الذى يلجأ اليه الناس الآن فى كتابة التاريخ أن يضع موضع الاعتبار بطريقة طبيعية هذا الأمر : ألا وهو كيف أن أخلافنا سيعرفون كيف ينظرون الى عبء التاريخ الذى نود أن نخلفه لهم بعد عدة قرون . وليس من شك فى أنهم لن ينظروا الى تاريخ أقدم العصور ، الذى لابد أن تكون وثائقه قد فقدت لديهم منذ عهد طويل ، الا من وجهة النظر التى تهمهم ، وهى ما فعله الشعوب والحكومات فى سبيل النزعة العالمية أو ما عساهم أقاموه من عقبات . والى جانب هذا ، فلعل من بين البواعث الضئيلة على محاولة مثل هذا التاريخ الفلسفى أن يحسب حساب الرغبة فى النباهة والشرف سواء عند سادات الدول وعند عبيدها وخدامها ، كيما توجه الوجهة الوحيدة التى من شأنها أن تبلغ ذكراهم الماجدة الى مسامع الأجيال المتأخرة .

ترجمه عن الألمانية

عبد الرحمن بدوى

تعليق على هذا النص

للفيلسوف الانجليزى كولنجوود فى كتابه « نظرية التاريخ »

R.G. Collingwood: "The Idea of History," Oxford 1946, p.p. 93-104

كان الفيلسوف كنت قد جاوز الستين من عمره عندما قرأ القسم الأول من بحث فى التاريخ وفلسفته نشره تلميذه هردر فى سنة ١٧٨٤ وقد حملته هذه القراءة على أن يعمل هو فكره فى الموضوع نفسه وفيما يتصل به من مسائل • ثم جمع خلاصة التفكير فى النص الذى ترجمه الدكتور عبد الرحمن بدوى للغة العربية فى هذه المجلة • ويرجع تاريخ نشر الأصل الى سنة ١٧٨٤ •

واننا نعلم أن كنت لم يعن يوما من الأيام بالدراسات التاريخية عناية خاصة ، ولكننا نعلم أيضا أنه ما وجه فكره لموضوع ما الا واستطاع أن ينظم أصوله وفروعه • فى نتاج مرتب قيم • وهكذا نجده يستخرج من فلتير ومن روسو ومن هردر أفكارا نماها فى هذه (النظرة فى التاريخ العام بالمعنى العالمى » •

وأول مسألة يثيرها كنت هى التميز بين الأفعال الانسانية فى ذاتها والأفعال الانسانية كما تظهر لمن ينظر اليها • انها ، فى الحالة الأولى ، أفعال تصدر عن ارادات حرة ، ولكنها فى الحالة الثانية ، تجرى بمقتضى قوانين طبيعية ، وعلاقاتها بتلك القوانين علاقات النتائج بمسبباتها • ونظرا لأن التاريخ يتــولى سرد رواية الأفعال الانسانية وأن موقف المؤرخ من تلك الأفعــال موقف الناظر الذى لا يرى الأشياء الا فى ظواهرها فقد تعين عليه أن يعتبر أن الأفعال تخضع لقوانين الطبيعة •

واذ تقرر هذا ، علينا أن نسأل أنفسنا عن ماهية تلك القوانين . أهى من وضع الحكمة لهداية البشرية ؟ قطعا لا . فالتاريخ — على ما نراه فى الواقع — سجل الحماقة والغرور والشر . وان كان هناك تقدم مافى أحوال الانسان فالمحقق أن ذلك التقدم لا يرجع لخطة وضعها فعل الانسان .

وعلينا ان أردنا أن نزيد فى عرض رأى «كنت» فى هذه المسألة بالذات أن نرجع لغير هذا النص من مؤلفاته . اننا ان فعلنا ذلك نجد ان كنت أن النظرية « هل للطبيعة غاية » ليست مما يمكن اثباته أو نفيه علميا ولكنه يرى أنها مما يجب اتخاذه وسيلة لفهم الطبيعة .

وخطط الطبيعة للمؤرخ هى كقوانين الطبيعة لرجل العلم . وعندما يصف رجل العلم نفسه بأنه يبحث عن الكشف عن قوانين الطبيعة فانه لا يقصد بهذا الوصف انه يعتقد أن هناك شارعا منهمكا فى وضع القوانين اسمه الطبيعة ولكن كل ما يريد أن يقول هو أن الظواهر الطبيعية لها من التكرار والاطراد المنتظم ما يقتضى منه أن يصفها بلغة المجاز . وكذلك المؤرخ عندما يتحدث عن خطط طبيعية تتجلى مراحلها وأدوارها المتعاقبة فى التاريخ لا يقصد أن هناك عقلا اسمه الطبيعة وضع خططا تنفذ فى التاريخ ولكنه يريد أن يقول أن التاريخ يجرى كما لو كان هناك عقل من هذا النوع .

وهذا الرأى أساسى فى فلسفة «كنت» وفى فلسفة القرن الثامن عشر عموما . وانا نعلم أن تلك الفلسفة خلطت العقل بالطبيعة . وقد حاول كنت أن يتغلب على هذا بالتميز (الذى اقتبسه من ليبنتز) بين الأشياء ذاتها ومظاهر الأشياء ، فهى فى ظواهرها طبيعة وفى بواطنها — اذا استطعنا أن ننفذ إليها — عقل . وهذا — فى نظر الناقد — لا يكفى لتبرير وجهة نظر أساءت الى العلم والى التاريخ . فأما اساءتها الى العلم فلأنها تنطوى على أن الظواهر الطبيعية التى يدرسها رجل العلم ماهى الا حجاب يخفى حقيقة روحية مماثلة لنا . وأما اساءتها للتاريخ فلأنها تجعل من المؤرخ مجرد رجل ناظر الى الحوادث التى يصف ، كما لو كانت تلك

الحوادث تمر أمامه تباعا . وهذا غير صحيح وهو أيضا غير ممكن . فحوادث التاريخ لاتتتابع فى مواكب أمام المؤرخين . وهى لاتفعل هذا لأن حدوثها يتم قبل أن يفكر مؤرخ فيها . وبناء على هذا فهو لايستعرضها بل يعيد خلقها فى فكره . ونقول اذن أن فلاسفة القرن الثامن عشر أساءوا فهم التاريخ عند ما أنزلوه منزلة الطبيعة وأخضعوا تطوره أحيانا لقوانين الجغرافيا والمناخ كما فعل منتسكييه ولقوانين البيولوجيا كما فعل هردر .

بيد أن كنت تقدم خطوات نحو نفى أوهام القرن الثامن عشر ، وذلك أنه لم يدرس العقل فى ظواهره كما لوكان طبيعة بل انه درسه فى ذاته وأنه عرف جوهر العقل بأنه « الحرية » . والحرية عنده تتعدى مجرد حرية الاختيار بحيث تصبح حكم النفس بالنفس . وعلى هذا فالانسانية كما تظهر فى التاريخ تسير نحو أن تكون عقلا تماما أى أن تكون حرة تماما .

وبيان ذلك أنه لما كانت غاية الطبيعة من خلق أى شىء هى أن يكون ، ولما كان العقل هو جوهر الانسان فغاية الطبيعة من خلق الانسان هى أن يكون عقلا . غير أن لما كان من خواص العقل ألا يكمل فى حياة فرد واحد فان الطبيعة لاتستطيع أن تستوفى غايتها من خلق الانسان الا على تعاقب الأجيال الانسانية أو — بعبارة أخرى — لابد للانسانية لتصل للغاية من أن تندرج فى تطور تاريخى .

وقد استطاع كنت أن يتصور أن من بنى الانسان من لم يندرج فى هذا التطور أبدا ، وتصورهم على حال من السعادة . فهم بلا تاريخ أو خارج التاريخ .

ويهمنا أمر الآخرين الذين احتواهم ، كيف خرجوا من اللاتاريخ الى التاريخ ، من الركود الهنىء الى التطور المنهك . الى التقدم ؟

لقد قال الحكماء الأقدمون ان التقدم حدث ويحدث استجابة لدواعى الفضيلة أو الحكمة .

وقال رجال الدين ان عناية الله بالانسان رفعته من حال الى حال .

وقال كنت ان الطبيعة استغلت مافى الانسان من شهوات واثرة وجهل لتدفعه نحو اكتشاف وسائل التقدم . فهو فى هذا من أهل التشاؤم ، وهو أقرب الى فولتير فى كانديد منه الى ليبنتز .

ولا ينبغى أن يهولنا هذا التشاؤم كثيرا ، فقد كاد ألا يكون الا مجرد أسلوب خطابى عند الأدباء . وبقدر ماكان كنت متشائما عند كلامه على ماضى الانسانية بقدر ماكان متفائلا عند نظره فى مستقبلها !

وقد رسم كنت فى نهاية مقاله مشروع « تاريخ عام » يرمى الى بيان تطور الانسانية نحو العقل والحرية . واشترط فى من يتولاه أن يجمع بين علم المؤرخ وعقل الفيلسوف .

وقال ان المشروع ممكن التحقيق ، ولكن يجب فى من يقوم به ألايكتفى بسرد الوقائع بل عليه أن يسبر غورها وينفذ الى بواطنها . واشترط ألا بد من قيام المشروع على وحدة مستمدة من فكرة أى ينبغى أن يظهر التاريخ تطور شىء ما نحو غايته . وقد عرفنا — فيما سبق — أن كنت حدد هذا التطور بأنه تقدم من لاعقل نحو العقل والحرية وان وسائل التطور كانت الشهوات والاثرة والجهل .

وقد علق كولنجوود على المشروع عموما بأن كنت بالغ نوعا ما فى اظهار مابين الأشياء من تضاد . ثم حدد نقده فى رؤوس المسائل الآتية :

١ — التاريخ العام والتاريخ الخاص :

يرى كولنجوود أننا اذا فهمنا من كلمة التاريخ العام تاريخا يتضمن كل شىء فهذا مستحيل ، واذا فهمنا من كلمة الخاص دراسة تفصيلات لاتقوم على وحدة مستمدة من فكرة عامة فليس هذا بتاريخ .

والواقع أن « التاريخ العام » ماهو الا مايفهمه المؤرخ من التاريخ وان « الخاص » ماهو الا التاريخ عند ما يتناول تفصيل شىء ما .

٢ — الفكر التاريخى والفكر الفلسفى :

ولا يرى كولنجوود أى تضاد بينهما . فنفى أنه يمكن أن يكون هناك

فكر تاريخى لايعمل الا فى ظاهر الحوادث وآخر فلسفى لا يهمه الا بواطنها • فالفكر التاريخى الوحيد الجدير بهذا الوصف هو الفكر الفلسفى •

٣ — لنا أن نقول ان التاريخ تطور أو تقدم نحو شيء • ولكن أن نسمى ذلك التقدم « خطة » وضعتها الطبيعة استخدام فى الواقع للغة المثيولوجيا •

٤ — ان خاتمة المطاف لذلك التقدم ليست فى الاستقبال بل فى الحال •

فالتاريخ ينتهى دائما فى حال ، وواجب المؤرخ أن يفسر كيف حل ذلك الحال •

٥ — ان ذلك الشيء الذى يتطور نحوه التاريخ هو حقيقة اكتمال العقل ، ولكن ذلك لا يفيد أبدا زوال « عدم العقل » •

٦ — ان الشهوات والاثرة والجهل • كل شيء من هذه الأشياء حقيقة قام بنصيبه فى التطور التاريخى ، ولكنها لم تعمل يوما ما منفردة ؛ أو غير مختلطة بفضيلة من الفضائل . وان المتأمل فى أحوال الانسانية ليحس بأن ارادة الخير (وان كانت متخبطة) والحكمة (وان كانت منخدعة) لايقل شأنهما فى تاريخ الانسانية عن شأن الشهوات والاثرة والجهل •

(لخص هذا التعليق ونقله للغة العربية محمد شفيق غربال)

النشاط العلمى الأثرى

فى مصر

من عام ١٩٤٥ إلى عام ١٩٤٧

لقد كان من بين نتائج اضطرام نار الحرب العالمية الثانية أن توقف دولاب البحث العلمى الذى اضطلعت به كثير من البعثات العلمية مصرية وأجنبية . وهكذا مرت سنوات الحرب (من عام ١٩٣٩ الى عام ١٩٤٥) وقد خلت حقول الحفر والتنقيب من نشاط الباحثين اللهم الا ما قام به بعض علماء الآثار من المصريين من حفائر بمناطقهم فى حيز ضيق نظرا لضغط الميزانيات الخاصة بهذه الأبحاث كنتيجة للسياسة المالية العامة التى حتمتها ظروف الحرب .

ولكن ما كاد شبح الحرب الذى كان جاثما على صدورنا ينحسر عنا حتى بدأ النشاط العلمى يدب فى محيط المشتغلين بالآثار المصرية كما أخذت بعض البعثات العلمية الأجنبية تتوافد على مصر لاستئناف بحوثها وكما أخذت الجامعتان ومصلحة الآثار المصرية تزيد من المبالغ المرصودة فى ميزانياتها على هذه الأبحاث . وفيما يلى موجز للنشاط العلمى فى أعمال الحفر والتنقيب فى مصر منذ عام ١٩٤٥ مع بيان المناطق الأثرية التى جرت فيها هذه الأبحاث .

ا — جامعة فؤاد الأول :

١ — حفائر كلية الآداب بتونه الجبل (هيرموبوليس الغربية) باشراف الدكتور سامى جبره .

لقد سارت أعمال الحفر والتنقيب فى هذه المنطقة على الخطة المرسومة لها منذ عام ١٩٣٠ وانحصرت جهود الحفر فى السنوات الثلاثة الماضية

بوجه خاص فى المناطق الآتية : الكوم القريب من الساقية ثم السراديب ثم الكوم الى الشمال الغربى من معبد (بتوزيريس) •

وعثر الدكتور سامى جبره فى المواسم السالفة فى الكوم القريب من الساقية على معبد (تحوت) الكبير واستمر البحث فى المنطقة الشرقية فعثر على مبان كثيرة من اللبن ذات غرف صغيرة وأقبية استعملت كمخازن لما اصطلح المكتشف على تسميته « دكاكين المعابد » ولم يجدوا من المخلفات الأثرية غير عدد كبير من الأوانى الفخارية ذات اللون الأحمر (أمفورا) وبعض القطع من العملة الفضية التى ترجع الى عصر البطالمة ـ أما البحث فى السراديب فقد كان موجها بصفة خاصة الى السرداب رقم ٣ • ولقد عثروا فى بعض الغرف المنقورة الى اليمين واليسار من أحد شوارع هذا السرداب على تماثيل كثيرة تدل على دقة فنية تستحق الاعجاب ويلاحظ أن بعض مقدمى هذه التماثيل كانوا يسجلون أسماءهم على قواعد هذه التماثيل مع بعض الأدعية يبتهلون فيها الى الاله تحوت أن يديم عليهم الحياة الرغدة والشيخوخة السعيدة . وهذه التماثيل تحفظ مع أشياء أخرى فى قواديس فخارية كان من بين محتوياتها بعض القطع التى ترجع الى عصر أمنوفيس الثالث وبعض الوثائق البردية آخر ما ظهر منها ثلاث خطابات بالخط الديموطيقى كتبت فى عصر الملك نخاو أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين • ومن هذا يستدل على أن هذه السراديب كانت تستعمل لحفظ الوثائق والسجلات وغيرها مما كان يحرص الحجاج على تقديمه كنذر الى الاله تحوت رب هذه المنطقة تقربا منهم اليه .

أما أعمال البحث فى المنطقة الواقعـة الى الشمال الغربى من معبد « بتوزيريس » فقد انتجت الكشف عن مقبرة لكاهن يدعى « تحوت ـ اف ـ عنخ » يحمل نفس الألقاب التى كان يحملها الكاهن «بتوزيريس» وكان الجزء الجنائزى من المقبرة مكونا من حجرتين تهدمتا ولم يبق منهما الا الجزء الأسفل من جدرانهما على ارتفاع ٥٠ سم • أما حجرة الدفن

فتتصل بالحجرة الجنائزية الثانية بواسطة بئر غير عميقة • ومما يؤسف له أن هذه المقبرة كانت قد استعملت من رجل اسكندرى الأصل عاش فى الأشمونين • اغتصب هذه المقبرة لنفسه وأقام لوحة مرمرية أمام مدخلها سجل عليها باللغة اليونانية اسمه وبعض المعلومات الأخرى عن شخصه •

٢ — حفائر كلية الآداب بالمعادى باشراف الأستاذ مصطفى بك عامر •

لقد بدأت كلية الآداب أعمال الحفر فى المعادى فى شتاء عام ١٩٣٠ — ١٩٣١ وكشف الأستاذ مصطفى بك عامر فيها على حضارة ترجع الى أواخر عصر ما قبل الأسرات والى الفترة التى سبقت قيام الأسرة الأولى بزمن غير طويل والمنطقة التى اختارتها البعثة تقع فى الأرض الصحراوية المرتفعة فى شرق المعادى • ولقد وفق الأستاذ عامر بك الى الكشف عن قرية كبيرة عثر فيها من الآثار الثابتة والمنقولة على ما أزاح النقاب عن حضارة متقدمة جديدة أضافت حلقة هامة الى سلسلة الأبحاث الخاصة بعصر فجر التاريخ فى مصر • ولكنه فى نفس الوقت كان يبذل مجهودا كبيرا فى سبيل البحث عن موقع الجبانة التى دفن أهل هذه الحضارة موتاهم فيها وأخيرا تكللت هذه المجهودات بالنجاح فى عام ١٩٤٢ اذ عثر فى الأرض المنخفضة الواقعة الى جنوب التل حيث توجد آثار البلدة القديمة على ست مقابر • ونظرا لأن ظروف الحرب قد اضطرت القائمين بأعمال الحفر فى المعادى الى وقفها فقد استأنف الأستاذ عامر بك ابحاثه من جديد فى عام ١٩٤٦ ولقد خصص جزءا من الوقت للحفر فى منطقة السكنى كما خصص الجزء الآخر للحفر فى الجبانة المكتشفة حديثا • أما فى منطقة السكنى فقـد بلغت المساحة التى تم حفرها ١٣٥٠ مترا مربعا وبذلك أصبحت المساحة التى تم حفرها منذ عام ١٩٣١ حتى نهاية هذا الموسم حوالى عشر أفدنة ونصف فدان •

وفى موسم عام ١٩٤٧ ركز الأستاذ عامر بك أعمال الحفر فى منطقة

الجبانة التى تشغل مساحة كبيرة • فهى تمتد من الغرب الى الشرق أى على طول امتداد مدينة الأحياء نفسها • وتدل كثرة مافى الجبانة من مقابر على ازدحام البلدة القديمة بالسكان وهو يطابق ما استنتجه المكتشف — فيما مضى — من كثرة بقايا المساكن القديمة والمواقد والمخازن والآلات الصوانية والأدوات المنزلية •

ولقد بلغ عدد المقابر المكتشفة حتى الآن فى هذه الجبانة ستا وسبعين مقبرة هذا فضلا عن مقبرة أخرى وجد فيها هيكل عظمى لحيوان (ربما كان كلبا) دفن بعنـاية تامة • والشكل الغالب للمقبرة هو الشكل البيضاوى ويتراوح عمق الحفرة التى فيها الهيكل البشرى من ٢٠ سم الى ٩٠ سم وذلك حسب سن الشخص ودرجة نموه • وتوضع الهياكل فى المقـابر فى شكل منثنى وهو وضع مألوف فى مقابر عصر ماقبل الأسرات • وتتجه الرأس فى أغلب الحالات الى الجنوب والوجه الى الغرب ولم توجد فى أكثر المقابر محتويات غير الهياكل العظمية اللهم الا بقايا من الحصير وجلود الحيوانات والأقمشة مما كانت تغطى بها الجثث • وكذلك عثر فيما يقرب من ثلث عدد المقابر على أوانى فخارية (مع كل هيكل بشرى أناءه الخاص) وهى من نفس النوع الذى ظهر فى منطقة السكنى •

ودل الفحص المبدئى لتلك العظام على أن سكان المعادى القدماء كانوا من الناحية الجنسية لا يختلفون فى صفاتهم الجسمية العامة عن الأقوام التى سكنت مصر فى خلال تلك العصور •

ولجبانة المعادى أهمية أثرية كبرى اذ هى أول جبانة عثر عليها فى شمالى مصر ومن عصر ما قبل الأسرات منفصلة عن القرية ثم هى أيضا أول جبانة تمدنا بمعلومات انثروبولوجية وأثرية عن حضارة متقدمة من حضارات الدلتا ابان عصر فجر التاريخ •

ب — جامعة فاروق الأول :

١ — حفائر كلية الآداب بالأشمونين باشراف الدكتور عبد المنعم أبو بكر •

لقد عملت كلية الآداب بجامعة فاروق الأول منذ عام ١٩٤٤ مساهمة منها فى البحوث العلمية الأثرية على تنفيذ مشروع كبير يهدف الى احياء مدينة الأشمونين القديمة والكشف عن آثارها • وتولى الاشراف على هذا العمل طوال عام ١٩٤٤ وفترة من عام ١٩٤٥ الأستاذ رزق الله مكرم الله مدرس الآثار بالكلية ونظرا لأن الجامعة أشركت معها فى تنفيذ هذا المشروع كلا من بلدية الاسكندرية ومصلحة الآثار المصرية فقد انتدبت الأخيرة المسيو باريز المهندس بها للاشراف على الأعمال الهندسية التى تجرى بالمنطقة •

وانحصر العمل فى موسمى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ فى تنظيف مبنى الأجورا واقامة بعض أعمدته الضخمة التى عصف بها الدهر فألقاها متناثرة فوق سطح الأرض • تمكن الأستاذ مكرم الله من الكشف عن جزء من أنقاض معبد يقع الى الجهة الشمالية الغربية من طريق الشمس والقمر وهو الطريق الذى كان يقطع مدينة الأشمونين القديمة من الشرق الى الغرب ويمر بمبنى « الأجورا » وتمكن المكتشف مستندا الى بعض الأدلة العلمية من تاريخ هذا المعبد أن يرجعه الى نفس العصر الذى شيدت فيه « الأجورا » • ومن بين الأشياء الكثيرة التى عثر عليها بضع أجزاء من تمثال مرمرى دقيق الصنع للآلهة « فينوس » ثم عدة أوانى من البرونز وأدوات منزلية عديدة ترجع كلها الى العصر الرومانى •

وفى عام ١٩٤٦ تولى الاشراف على هذه المنطقة الدكتور عبد المنعم أبو بكر واختار مكانا يبعد حوالى ٢٠٠ مترا الى الجنوب من مبنى « الأجورا » وبدأ موسمه الأول فيه فى ٤ مارس عام ١٩٤٦ • ولقد وفق الى العثور على جزء من معبد كبير بناه الملك رمسيس الثانى تكريما للاله (تحوت) رب الأشمونين • كما عثر أيضا على صالة كبيرة تتوسطها أربعة أعمدة قممها على شكل زهرة البردى المقفلة • جدران هذه الصالة وأعمدتها الأربعة تحمل نقوشا بارزة لايزال بعضها محتفظا بألوانه حتى الآن تمثل

الامبراطور الرومانى « نيرون » فى مواقف مختلفة متعبدا تارة الى الاله « تحوت » وأخرى الى آلهة مصرية مختلفة •

ويبدو واضحا أن « نيرون » قد حول جزءا من معبد رمسيس الى صالة أعاد نقشها ووهبها الى الاله تحوت •

غير هذا فقد وفق المكتشف الى العثور على سبعة تماثيل جميلة الصنع فى ممر ضيق يقع الى الغرب من صالة « نيرون » ويمتد من الشمال الى الجنوب • وهذه التماثيل السبعة كانت لازالت فى مواقعها الأصلية من الممر اثنان منها للاله تحوت على شكل القرد وثلاثة لكهنة والسادس تمثال نصفى لرجل والسابع رأس دقيقة الصنع تمثل يونانيا بشعره المتجعد •

ثم عثر أيضا الى الغرب من هذا على كتلة هائلة من مادة التحنيط (بيتومن) وقد اختلطت بقطع صغيرة من الفخار وبقايا أربطة كتانية ثم بالقرب منها وجدت أوانى فخارية تكدس فيها قشر بيض الطائر « أبو منجل » • وهذا يمكن أن يدفعنا الى الاعتقاد مبدئيا أن هذا الجانب من المعبد أعد للقيام بتحنيط الطائر المقدس « أبو منجل » رمز الآله تحوت • وعلى كل حال يرجو الدكتور أبو بكر الوصول الى نتائج محققة فى المواسم القادمة يستدل منها على كنه هذا المعبد وعلاقته بالمعابد الأخرى حيث كانت تجرى عملية التحنيط للطائر المقدس « ايبيس » فى منطقة تونه الجبل •

٢ — حفائر كلية الآداب بأهرام الجيزة باشراف الدكتور عبد المنعم أبو بكر •

بدأت كلية الآداب أعمال الحفر والتنقيب فى ديسمبر سنة ١٩٤٦ فى منطقة تبعد بحوالى ثلاث كيلو مترات الى الجنوب من هرم الجيزة الأكبر والسبب فى وقوع اختيار كلية الآداب على هذه المنطقة يرجع الى احتوائها على جبانة من العصر المتأخر • اذ عثر هناك فى عام ١٩٠٧ الأستاذ فلندرز بترى على مقبرة كبيرة لرجل اسمه « تارى » عاش ابان عصر الأسرة السادسة والعشرين (٦٦٠ ق٠م٠)

ولقد أسفر الموسم الأول عن الاكتشافات الآتية :—

١ — هذه الجبانة استعملت فى الفترة بين الأسرة السادسة والعشرين وأوائل العصر البطلمى .

٢ — الجزء الشرقى منها يرجع فى تاريخه الى عصر الأسرة السادسة والعشرين

٣ — الجزء الغربى منها يرجع فى تاريخه الى أواخر التاريخ المصرى ويمتد حتى عصر البطالمة

٤ — يمكن التمييز بين أربعة أنواع مختلفة من المقابر :

النوع الأول : جزؤه الذى يعلو سطح الأرض يتكون من حجرتين متداخلتين . الحجرة الخارجية تمتاز بسقف مقبى لم تستعمل فى بنائه الطريقة المصرية القديمة المعروفة بل اتسع قوس القبو بشكل غير عادى كما استخدمت لوحات حجرية رقيقة . أما الحجرة الداخلية فهى منقورة فى الصخر وتتوسطها البئر الموصلة الى حجرة الدفن .

النوع الثانى : يشبه من جميع الوجوه النوع الأول ويختلف عنه بأن الحجرة الخارجية غير مسقفة ولهذا فهى أشبه بفناء صغير .

ولقد عثر من هذين النوعين على سبعة مقابر مختلفة الأحجام ويستدل من نوع التمائم التى عثر عليها فى حجرات الدفن (التى للأسف كانت كلها منبوشة ومسروقة) على أنها ترجع الى عصر الأسرة الثلاثين وأوائل العصر البطلمى .

النوع الثالث : عبارة عن منخفض مستطيل فى الأرض يتراوح عمقه بين المترين والثلاثة أمتار حفر قاعه على هيئة التابوت الآدمى الشكل . وكانت الجثة توضع فى تابوتها وتدلى حتى تستقر فى قاع الحفرة ثم تغطى بألواح حجرية وبعد ذلك يملأ الفضاء الباقى بمزيج من أحجار الصوان والملاط . وللأسف لم تبق الرطوبة المتسربة من هذا المزيج على التابوت الخشبى والجثة اذ ساعدت على بلائهما . وهذا النوع من الدفن يشبه الى

حد كبير تلك المقابر المعروفة باسم Shaft-Tombs المنتشرة فى فلسطين والتى استعملت ابتداء من العصر الفارسى •

النوع الرابع : مقبرة منقورة فى الصخر تتكون من حجرة واحدة يتوسطها حفرة يستقر فى قاعها التابوت وفى حالة أخرى استبدلت الحفرة بفتحة مستطيلة محفورة فى الجدار الجانبى للحجرة وتتسع للتابوت •

ولقد وفق الدكتور أبو بكر الى العثور على مقبرة من كل نوع لم تمتد اليهما يد اللصوص • وطريقة الدفن فى هذه الحالة نوجزها فيما يأتى : توضع الجثة ومعها بعض التمائم فى تابوت آدمى الشكل رسم عليه سطر يمتد من أسفل الذقن الى القدمين من الكتابة الهيروغليفية التى تذكر اسم صاحب الدفنة وألقابه ويوضع هذا التابوت داخل تابوت آخر مستطيل الشكل غطاؤه مسطح وزخرفت جوانبه الأربع بكتابات هيروغليفية ومنظر الباب الوهمى وصاحب التابوت جالسا على كرسيه وأمامه القرابين وأخيرا يحتوى التابوتين تابوت ثالث ضخم غطاؤه مقوس• والتوابيت الثلاثة من الخشب أما أوانى الأحشاء الأربعة برؤوسها التى تمثل الآلهة « امستى » و « حابى » و « قبح—سنو—اف » و « دوا—موت — اف » فكانت توضع مرصوصة فى صندوق خشبى الى أحد جوانب التابوت • غير هذا فكانت توضع بجانب التابوت تماثيل خشبية للاله أنوبيس والاله سوكاريس •

٣ — حفائر كلية الآداب بكوم الدكة (الاسكندرية)

باشراف الأستاذ ألن ويس Prof. Alan Wace

بدأت كلية الآداب حفائرها بمنطقة كوم الدكة فى ابريل عام ١٩٤٧ والسبب فى اختيار هذه المنطقة القيام بالأبحاث اللازمة للتحقق من علاقة هذا الكوم بجبانة البطالمة المعروفة باسم « سوما » •

ولقد اختار الأستاذ ويس أركانا مختلفة من هذه المنطقة على أن يجرى العمل فيها بطريقة المجسات والركن الأول الذى بدأ العمل فيه كان الركن الجنوبى الشرقى من الكوم ثم انتقل الى الركن الشمالى الغربى •

والنتائج الأولى التى وصل اليها تدل على أن هذا التل صناعى وأن جميع الفخار الذى عثر عليه فيه يرجع الى عصر المماليك • كما أن المجسات التى قام بها وتعمق فيها الى مايقرب من أربعة عشر مترا لم توصله الى مبانى أو الى صخر طبيعى •

ج — الحفائر الملكية بحلوان :

باشراف الأستاذ زكى يوسف سعد •

لقد أنتجت الأبحاث التى بدىء بها فى الجبانة الواقعة غربى حلوان فى يولية عام ١٩٤٢ بالعثور على مقابر ترجع أغلبها الى عصر الأسرتين الأولى والثانية ويرجع البعض منها الىعصر ماقبل الأسرات • ومن حسن الحظ أن هذه الجبانة لم تقع فريسة للصوص الآثار وسلمت أجزاء كثيرة منها من هذا الخطر ولا أدل على ذلك من أن الأستاذ زكى سعد عثر فى موسم ١٩٤٥ على ٨٤٧ مقبرة كان من بينها ١٥٠ مقبرة سليمة لم تمتد اليها يد قبل يديه •

وانى أجمل نتائج الكشوف التى وفق اليها الأستاذ زكى سعد فى النقط الآتية :

١ — هذه الجبانة كانت تابعة لمدينة هيليوبوليس القديمة •

٢ — ظهرت مقابر أفراد كثيرة من عصر الأسرة الأولى بنيت غرف الدفن فيها من كتل ضخمة من الحجر الجيرى الأبيض كما كسيت أرضيتها بألواح حجرية • ولقد أبطل هذا الكشف النظرية المعروفة بأن المصرى لم يستعمل الحجر فى أبنيته الجنائزية الا فى عصر الأسرة الثانية ثم الثالثة واقتصر فى استعماله على الملوك • ولم يستعمل الأفراد الحجر فى بناء مقابرهم الا ابتداء من عصر الأسرة الرابعة •

٣ — عثر على أربعة مقابر من الأسرة الثانية سجل المكتشف فيها ظاهرة غريبة علينا وهى وضع اللوحة الجنائزية فى سقف حجرة الدفن بحيث يتجه سطحها المنقوش الى أسفل • ولقد كان المعروف السائد قبل ذلك أن اللوحة الجنائزية هذه تثبت فى الجانب الشرقى للمسطبة •

٤ — عثر على مقابر كبيرة الحجم بنيت حجرات الدفن فيها من طابقين وفى بعضها من ثلاث طباق •

٥ — عثر على مقابر ثلاثة لكل منها مركب • ولاحظ المكتشف أن اثنين من هذه المقابر نقرت مراكبها فى الناحية الشمالية أما مركب الثالثة فقد نقرت الى الشرق منها • وهذه ظاهرة جديدة اذ أن هذه المراكب كانت فى اعتقادنا لاتلحق الا بمقابر الملوك •

٦ — عثر على قطع أثرية مختلفة من تماثيل فنية رائعة وأوانى حجرية جميلة الصنع الى نماذج عديدة من أدوات الزينة تشمل الأساور والعقود والأمشاط وغيرها •

د — مصلحة الآثار المصرية :

١ — حفائر المصلحة بكوم الحصن (بحيرة)

باشراف الأستاذ عبد الهادى حماده

لقد استأنفت مصلحة الآثار المصرية حفائرها التى بدأتها عام ١٩٤٣ بمنطقة كوم الحصن بمديرية البحيرة وهى المنطقة التى كشف فيها الأستاذ عبد الهادى حمادة عن جبانة يرجع تاريخها الى العصر الواقع بين عام ١٧٥٠ وعام ١٣٥٠ ق•م• وهى الحقبة من التاريخ المصرى التى غزى فيها الهكسوس أرض مصر والمؤرخون يتلهفون على معلومات جديدة عن هذا العصر نظرا للغموض الذى يكتنفه ولقلة الآثار التى وصلتنا منه ومن أجل هذا يترقب المشتغلون بالآثار المصرية بفارغ الصبر النتائج النهائية للكشوف التى وفق اليها الأستاذ حماده فى هذه المنطقة •

ولقد سجل المكتشف ظواهر غير مألوفة فى طريقة الدفن • اذ عثر على جثتين متقابلتين أو على ثلاث جثث وأحيانا أربعة مدفونة سويا • وعثر كذلك فى دفنة على الرأس بمفردها وفى دفنة أخرى لم يعثر الا على بعض الأشلاء من جثة • ويستدل المكتشف من هذا ومن تكدس الجثث فى بعض أجزاء الجبانة على أنها استعملت لدفن محاربين سقطوا فى معارك حدثت بين المصريين وعدو غزى بلادهم وخصوصا لأن كثيرا من الجثث

عثر بجانبها على آلات حربية من البرونز منها بلط على أشكال مختلفة وخناجر ذات مقابض من العظم •

وفى أواخر موسم عام ١٩٤٧ قام الأستاذ حماده بعمل مجسات فى المناطق الأثرية المجاورة لمنطقة كوم الحصن وذلك ليدرس مدى اتصال هذه المناطق بعضها بالبعض الآخر ولقد وجه عنايته بصفة خاصة الى منطقة « كوم الخرز » حيث أسفرت أعمال الجس بالعثور على دفنات من العصر اليونانى الرومانى معظمها فى توابيت من النوع الآدمى الشكل وبعضها فى توابيت من الفخار أو الجص الملون •

٢ — حفائر المصلحة بأهرام الجيزة باشراف الدكتور عبد المنعم أبو بكر •

استأنفت مصلحة الآثار المصرية أعمال الحفر والتنقيب بمنطقة الهرم ولقد كان من أهم الكشوف التى وفق اليها مدير المنطقة الدكتور أبو بكر العثور على مسطبتين سليمتين عام ١٩٤٥ الى الغرب من مسطبة « خنت — كاو — اس » •

المسطبة الأولى لرجل اسمه « خع — باو — بتاح » عثر على تمثاله الجنائزى مطمورا فى الرمال التى ملأت حجرة القرابين بينما استعمل السرداب (وهو المكان الأصلى لهذا التمثال) فى عصر متأخر لدفنة أخرى • وهذا التمثال المصنوع من الحجر الجيرى الأبيض يعد تحفة رائعة من حيث دقة الصنع وتناسق أعضائه ووجد سليما لم يصبه أى خدش أو كسر • كما عثر على حجرة الدفن سليمة لم تصل اليها أيدى اللصوص ووجدت محتوياتها كلها سليمة وهى تشمل غير الجثة البالية الأشياء الآتية :

١ — مجموعة من الأطباق والأوانى الجنائزية الصغيرة من المرمر من بينها لوحة مستطيلة نقشت عليها أسماء العطور السبعة •

٢ — أوانى الأحشاء الأربعة من الحجر الجيرى الأبيض •

٣ — ربطة للرأس من البرونز المغطى بأوراق رقيقة من الذهب وهى محلاة فى ثلاث مواضع منها بطائر « الآخ » يقف بين زهرتين من زهور البردى .

٤ — حزام من البرونز وأربع دلايات اسطوانية الشكل .

٥ — مسند للرأس من الحجر الجيرى الأبيض .

أما المسطبة الثانية فهى لرجل اسمه « بتاح — شيسس — بو » وكانت أيضا حجرة الدفن فيها سليمة . ومن الغريب عدم العثور فى هذه الحجرة على الأطباق الجنائزية وأوانى الأحشاء الأربعة وعثر مع الجثة ربطة للرأس تشابه كل الشبه تلك التى عليها مع جثة « خع — باو — بتاح » وكذلك عثر على حزام من البرونز وعصاة خشبية كسيت بغلاف رقيق من الذهب بلى الخشب فيها حتى تحول الى رمال وبقى الغلاف الذهبى .

غير هاتين المسطبتين فقد عثر على عدة مساطب أخرى من النوع المنتشر فى عصر الأسرة الخامسة من بينها واحدة كان التمثال فيها لا يزال باقيا فى سردابه . وهو تمثال (لم يعثر لصاحبه على اسم) من الحجر الجيرى الأبيض لا تزال ألوانه باقية حتى الآن جميل الصنع الى درجة فائقة .

٣ — حفائر المصلحة بجزيرة «فيله» (بأسوان) باشراف الأستاذ لبيب حبشى .

كانت مصلحة الآثار المصرية قد عثرت عام ١٩٣٢ فى الجزء الشرقى من المنطقة الأثرية بجزيرة الفنتين (أسوان) على عدد كبير من اللوحات التذكارية والتماثيل ترجع الى عصر الدولة الوسطى . ولقد رأت المصلحة عام ١٩٤٦ أن تعاود الكرة وتستأنف تنظيف هذه المنطقة لأهمية الآثار التى عثر عليها فيها وأشرف على هذا العمل الأستاذ لبيب حبشى .

وأسفر البحث بالعثور على مبنى يكاد يكون كاملا شيد من اللبن

يحوى عدد آثار منقولة ثبتت فى أماكنها الأصلية من المبنى • واتضح أن أحد حكام جزيرة « الفنتين » واسمه « سارنبوت » هو الذى شيد هذا المبنى فى عصر الملك سنوسرت الأول تمجيدا لحاكم آخر من حكام الجزيرة اسمه « حكا — ايب » عاش قبل ذلك بنحو ستة قرون • ولقد دل البحث على أن هناك مبنى آخر قد أقيم فى عصر يسبق عصر « سارنبوت » لنفس الغرض أى لتمجيد ذكرى « حكا — ايب » •

ومنذ أن شيد « سارنبوت » هذا مبناه أخذ أكثر الحكام لهذه الجزيرة ورؤساء الكهنة الذين عاشوا ابان عصر الأسرتين الثانية عشر والثالثة عشر على اقامة مزارات ومقاصير لأنفسهم فى نفس هذا المكان وأضافوا اليها لوحات تذكارية لتمجيد ذكرى « حكا — ايب » • وهذا يفسر السبب الذى أدى الى العثور على عدد كبير من موائد القرابين واللوحات التذكارية والتماثيل • ثم الأهمية الكبرى لهذه المكتشفات تنحصر فى النقوش التى كتبت على هذه المجموعة الكبيرة من الآثار فهى قد أعطتنا فكرة واضحة عن الرجال الذين عاشوا فى ذلك العصر •

هـ — حفائر البعثة الفرنسية بصان الحجر باشراف الأستاذ بييرمونتيه

استأنفت البعثة الفرنسية فى موسم عام ١٩٤٦ أعمال الحفر والتنقيب فى منطقة صان الحجر بعد أن اضطرت ظروف الحرب القائمين بها الى ايقافها منذ عام ١٩٤٠ ولا تزال الاكتشافات التى وفقت اليها البعثة فى ذلك العام ماثلة أمام أعيننا لأهميتها . فقد عثرت البعثة فى تلك السنة على الجبانة الملكية للأسرة الحادية والعشرين (حوالى ١٠٠٠ ق٠م٠) وفتحت مقبرة الملك « بسوسنس » •

ولقد اشتبه الأستاذ مونتيه حينذاك فى أن هناك دفنة أخرى فى سمك جدار مقبرة الملك « بسوسنس » وكان لابد للنفاذ الى داخل هذه الدفنة من رفع جزء من السقف • وبالفعل تحققت نظرية الأستاذ مونتيه وعثر على حجرة سرية دفن فيها رجل اسمه « أون — دجباوو — ان — زد » كان يشغل وظيفة « رئيس رماة الملك بسوسنس » •

ولقد اغتصب هذا الرجل تابوتا من الجرانيت كان للكاهن الثالث للاله أمون ويدعى « أمون — حوتب » • وعند فتح التابوت الجرانيتى عثر على الجثة داخل تابوت من الخشب المذهب ويحويهما تابوت ثانى من الفضة • وكانت الجثة بتابوتيها فى حالة من التهشم والعطب بتأثير الرطوبة لم تسمح الا بجمع بعض القطع ووريقات من الذهب متناثرة بين ماتخلف من الجثة • ولكن أدوات الزينة والأوانى التى وضعت مع الجثة فقد وجدت فى حالة حفظ جيدة ومن أهم هذه القطع الرائعة : قناع من الذهب — تمثال صغير للاله ازيس من الذهب — تمثال صغير للاله بتاح من اللازورد موضوعا فى مقصورة صغير ذات أعمدة من الذهب — رأس للاله آمون من الذهب على عامود من اللازورد وغير ذلك •

وفى خلال موسم عام ١٩٤٧ وفقت البعثة الى الكشف عن معبد للاله حوريس من عصر « نقطانبو الثانى » ولكن للأسف اصابته يد التدمير التى لم تبق من جدرانه وأعمدته على شيء بل أكثر من ذلك فقد انتزع جزء كبير من الأساسات • ولحسن الحظ عثر على تمثال من الجرانيت الوردى يبلغ طوله ١,٤٠ مترا يمثل الملك « نقطانبو الثانى » يحميه الاله حوريس رب « مسنت » •

ولا بد أن مثل هذا المعبد الهام كان يضم طائفة كبيرة من التماثيل المختلفة على أنها جميعا فيما عدا التمثال السالف الذكر تعرضت لنفس المصير السيىء الذى تعرضت له الجدران • فلم يبق منها الى الآن سوى بقايا وآثار قليلة •

والبعثة لاتزال تأمل فى العثور على كتل منقوشة ومزخرفة تكون قد ألقيت خارج المعبد عند هدمه ونسيها المعتدون •

عبد المنعم أبو بكر

مقتنيات المتحف المصرى

من أوراق البردى خلال السنوات الأخيرة

سأقصر كلامى فى هذا التقرير على الوثائق اليونانية واللاتينية التى تدخل فى صميم اختصاصى . لقد أضاف المتحف المصرى الى مقتنياته البردية مجموعة فريدة فى بابها لا تقل فى أهميتها عن أشهر ما اكتشف منها فى السنوات الماضية مثل تلك الأوراق التى عثر عليها فى محفوظات زينون أو أوراق كوم اشقاو . وقد تم كشف تلك المجموعة فى ظروف غريبة لم نعهدها من قبل . ففى عام ١٩٤١ حصلت السلطة الحربية البريطانية من الحكومة المصرية على تصريح باستخدام بعض المحاجر القديمة فى طره ، والتى تبعد عن القاهرة ببضعة كيلو مترات ، لاستعمالها كمخازن لايداع الذخيرة . وتمهيدا لذلك كلفت السلطة المذكورة بعض المتعهدين للقيام بتنظيف وترميم تلك المحاجر . وفى أثناء العمل عثر بعض العمال فى المحجر رقم ٣٥ فى شهر أغسطس عام ١٩٤١ على مجموعة كبيرة من أوراق البردى ظلت فى مكانها عدة قرون عند حافة جدار أحد الدهاليز . وقد وجدت هذه الأوراق مطمورة تحت التراب والحصى الذى تراكم عليها تدريجيا نتيجة لتفتت الأحجار البطىء .

وقد تم العثور على تلك الأوراق فجأة خلال بصيص ضئيل من الضوء النافذ الى المحجر دون أن يشهدها أى فرد يفطن الى مالها من الأهمية العلمية . ومما لاشك فيه أن أولئك العمال الذين كانوا فى المحجر قد تقاسموا فيما بينهم بطرق ساذجة وعنيفة تلك الغنيمة التى لم تكن فى الحسبان اذ أنهم وجدوا فيها اذا بيعت ما يغنيهم عن أجور عدة أشهر

بل عن أجور عدة سنوات مما كانوا يتقاضون . ولما علم رجال الشرطة بالأمر اتفقوا مع مفتش مصلحة الآثار وهو المرحوم نسيم جوهر أفندى وقتئذ على الخطة اللازمة لضبط تلك الأوراق ، وبفضل معاونتهم أمكن الاستيلاء على مجموعة كبيرة منها وأودعت بالمتحف . ولما نما ذلك الخبر الى مسامع حضرة صاحب الجلالة الملك تفضل فأوفد مندوبا من قبله لشراء كمية أخرى كبيرة من تلك الأوراق الهامة من حائزيها على نفقته الخاصة . كما وأنه قد اتخذت تدابير أخرى للعمل على استرداد أكثر ما يمكن الحصول عليه منها بعد أن توالت عليها حركة الشراء فترة طويلة من الزمن وتفضل جلالة الملك بدفع ثمن جزء منها واعتمدت وزارة المالية مبلغا خاصا للجزء الآخر . وضمت جميع تلك الأوراق البردية التى أمكن استردادها بشتى الوسائل الى المجموعة الأصلية بالمتحف المصرى . وهكذا أمكننا بقدر المستطاع اصلاح ما أحاط بهذا الكشف من نتائج كانت مدعاة للأسف والكدر وكان منع وقوعها فى أول الأمر مستحيلا . ومع ذلك يجب ألا يفوتنا أن نذكر أن بعضا من تلك النتائج لن نجد الى معالجته سبيلا ومنها :

أولا — أهمية الوصول الى معرفة الظروف التى كانت خاتمة المطاف وألقت بتلك الأوراق فى ذلك المكان الذى لا يخطر على بال . وربما أمكن الوقوف على بيانات هامة فى هذا الشأن لو كانت الظروف قد أتاحت وقت اكتشافها بوجود شخص خبير يباشر عملية استخراجها بتؤدة وبطريقة فنية ليحصل على جميع التفصيلات الخاصة بها والتى يؤدى جمعها الى تصور الحالة التى كانت عليها تلك الأوراق بشىء من الدقة حينما أودعت فى هذا المكان . غير أن كل المعلومات التى تتعلق بهذا الموضوع قد اندثرت تماما .

ثانيا — وبدلا من أن تتناول تلك الأوراق الأيدى التى تراعى اللين والرفق فى معالجتها تناولتها أيادى العمال السذج بخشونة نجم عنها

تمزقها وتفتتها . ولاشك أن كثيرا من أجزائها قد فقدت أو تلفت أو تبعثرت ولا أمل فى العثور عليها ، وأن التشويه الحديث الظاهر فى تلك الأوراق يوضح بجلاء أن الأجزاء الفاقدة منها الكبيرة والصغيرة كانت موجودة فعلا وقت كشفها .

ثالثا — ومما يؤسف له أيضا أن حائزى تلك الأوراق قد تولوا أحيانا معالجتها بطرقهم الخاصة رغبة منهم فى اعادة تجديدها ما أمكن وتحسين شكلها وبذلك يرتفع ثمنها . فكان من نتيجة اتباع تلك الطرق الغير فنية أن ذاب المداد الردىء على تلك الأوراق وتعذر علينا قراءة صفحات بأكملها ، كما لصقت الأوراق الرطبة بعضها ببعض وتعطبت .

رابعا — وأخيرا مما لا جدال فيه أن كشف تلك الأوراق لم يصل بأكمله الى المتحف المصرى وأن فريقا من الناس ما زالوا يخفون لديهم البعض منها فى طره اما بدافع الخوف من السلطات الحكومية أو أملا فى الحصول منها على كسب وفير مستقبلا.

وبالرغم من عدم استكمال تلك المجموعة الا أن مقدار ماقتناه المتحف المصرى منها على جانب عظيم من الأهمية ، ويتكون من بقايا عدد خاص من الكتب تمت اعادتها الى وضعها الأصلى وهو لا يختلف فى شىء عما هو متبع فى الكتب الحديثة وذلك بجمع الكراسات أو الملازم التى يتكون كل منها من أربع ورقات طويت من منتصفها وثبتت بخيط فتكون منها ثمانى ورقات تحتوى على ست عشر صفحة مكتوبة ، على النقيض من اللفائف التى تكون عادة عبارة عن قطعة واحدة طويلة من البردى مطوية حول نفسها . والكثير من تلك الكراسات فى حالة تكاد تكون تامة ومتتابعة دون انقطاع فأعطت نصا متصل الحلقات . ويلاحظ أحيانا ضياع ورقة أو أكثر بين كراستين مصانتين ، كما يلاحظ أيضا ضياع بعض الكراسات أو بعض أوراق منها يرجح أن تكون قد ظفرت بها أفراد خاصة على أثر تشتتها بعد الكشف . ومما لاشك فيه أن هذه الكتب قد تفككت أوصالها

عندما وضعت فى المحجر وهذا هو السبب فيما اعتراها من تغيير كلى عندما وصلت الى أيدينا ، فبعضها يكاد يكون منبسطا وبعضها مطوى أو ملفوف بعضه فوق بعض ، وأحيانا كنا نرى مجموعة من الكراسات فى وضع مختل النظام ومطوية على شكل اسطوانة كبيرة ثبتت بشريط من ألياف البردى ، كما انقسم عدد كبير منها الى قسمين عند منتصف ارتفاع الصفحات ووضع النصفان فوق بعضهما وطويا معا • وعلى ذلك فهى كتب فى حالة يرثى لها وناقصة فى الواقع ويمكن اعتبارها حطام مخطوطات أودعت المحجر •

ولابد لنا أن نتساءل عمن وضع هذه الكتب فى ذلك المكان ومتى ولماذا وفى أى الظروف والأحوال تم وضعها •

تدل محتويات تلك الكتب على أنها منقولة فى الأصل من مكتبة دينية فهل معنى ذلك ياترى أن راهبا تقيا رغب فى الاحتفاظ بتراث تلك الكتب القيمة فى وقت تعرض فيه ديره للخراب ، أو أن ناسكا قليل المعرفة قد أراد أن يجمع لنفسه مكتبة صغيرة فعكف على التنقيب فى أطلال دير قديم مهجور بحثا عن محتوياته ، أو أن شخصية جبارة أرادت انقاذ تلك المؤلفات الدينية أو الاحتفاظ ببعض صفحات منها ، أو أن أحد اللصوص كان قد تسلل وانتزع بعضا من أجزاء تلك المؤلفات ثم أخفاها هنالك وهو يرقب فرصة تمكنه من بيعها دون أن تقتص منه يد العدالة • على اننا نخشى أن تظل هذه الأسئلة معلقة الى النهاية دون أن نظفر بالاجابة عليها •

ولكى تسهل علينا دراسة أوراق طره البردية كان من الواجب أن نبسطها ونفردها ثم نعيد الأجزاء الكثيرة المنفصلة منها الى مواضعها الأصلية وقد قطعنا شوطا طيبا فى هذا العمل الذى يتطلب دقة وجهدا طويلا وذلك بمعاونة المسيو شرر الأستاذ بجامعة فؤاد الأول وأصبح الآن فى مقدورنا أن نعد بيانا مؤقتا على الأقل مما حصلنا عليه من هذا الكشف •

واذا اتخذنا من الكتابة قاعدة نحكم بها على تاريخ تلك الأوراق (وهذه فى الحقيقة طريقة تقريبية) أمكننا القول أنه من المرجح أنها ترجع الى القرن الرابع بعد الميلاد • وكما نوهنا من قبل على أن محتوياتها ذات صبغة دينية فهى تتضمن تعليقات على العهدين القديم والجديد أو تتعرض الى شرح بعض النقط فى العقائد الدينية • وكانت مفاجأة طريفة أن يقع النظر بين هـذه النصـوص على عدد هام من الصفحات المتعلقـة « بأوريجانوس » بعضها معروف من قبل والبعض الآخر لم ينشر بعد وهو يشمل :

أولا — رسالة وجيزة من ثمانى وعشرين صفحة عنوانها « محادثة بين أوريجانوس وهرقل وغيره من الأساقفة المتحدين معه حول موضوع الأب والابن والروح القدس » ، فيبدأ النص بصورة دعوى فى هيئة مجمع صغير ينعقد لاختبار أسقف من أتباع هرقل فى مدى استقامة رأيه فى الديانة ، فيوجه اليه أوريجانوس بعض الأسئلة ويطلب منه تحديد طبيعة الأب والابن فى داخل الثالوث ، ثم يدعو الحاضرين أن يوجهوا اليه ماشاؤا من الأسئلة التى قد تبدو لهم غامضة فى العقيدة الدينية ليجلو لهم ماغمض من مكنوناتها •

ثانيا — كتاب صغير من جزئين ، ويتكون من خمسين صفحة فقد بعضها والكثير من البعض الآخر بالغ التشويه ، وعنوانه « البسخة » أى « عيد الفصح » ، وهذا المؤلف على عكس ماكنا نرجوه من عنوانه لم يتناول مطلقا ناحية الجدل حول تاريخ الفصح ، وهى المشكلة التى طالما احتدم الجدال فيها لتحديد التاريخ الذى ينبغى على المسيحيين أن يحتفلوا فيه بعيد الفصح • وقد وصل الى علمنا أن أوريجانوس قد كتب عن هذا الموضوع ، غير أن ذلك السفر الذى عثر عليه فى بلدة طره لم يشتمل الا على تعليق على الفصل الثانى عشر من سفر الخروج وله علاقة بنظام عيد الفصح • وهو يصف فقط عيد الفصح عند اليهود وينوه بأهميته الرمزية بالنسبة الى المسيحيين •

ومن مؤلفات أوريجانوس المدونة على أوراق طره البردية كتاب آخر يحوى ثمان وعشرين صفحة قوامها تعليق على رسالة القديس بولس الى أهل رومية ، لم نكن نعرف عنه من قبل سوى بعض اقتباسات وصلت الينا عن طريق الترجمة اللاتينية التى قام بها « روفان » وهو مترجم اشتهر بقلة عنايته وتقصيره فى تحرى الدقة التامة فى ترجمته • ويذهب « روفان » فى قوله على أن المؤلف بأكمله يشتمل على خمسة عشر جزءا أعادت الينا أوراق طره منها الجزأين الخامس والسادس ولو أنهما رجعا الينا فى حالة ربما كانت تامة ، الا أنهما أتاحا لنا الفرصة للقيام بعمل مقارنات هامة مفيدة مع نص « روفان » •

ومن بين المؤلفات المعروفة عن هذا العالم اللاهوتى العظيم قد عثرنا على قطع كبيرة من كتابه المعنون « ضد سلسContre Celse » ومن عظاته الدينية عن قصة ساحرة اندور التى ورد ذكرها فى اصحاح ٢٨ من سفر الملوك الأول • ومما يستلفت النظر أن الأوراق الخاصة بهذين المؤلفين تعطينا نصا متصل الحلقات غير أن بعض الأجزاء قد حذفت منه وهى تتراوح بين بضع كلمات أو صفحات وهى فى مجموعها عظيمة الأهمية فلا يكون حذفها مرجعه الاهمال ولم نعلم بعد على أى أساس ولأى قصد حدث هذا الحذف الذى أدى الى تغيير معالم تسلسل النص تغييرا كليا وتعذر علينا ادراكه • وربما أمكننا الوصول الى بعض النتائج اذا قمنا بدراسة عميقة فى هذا الموضوع •

وبالرغم من أن أوراق طره سـوف لا تضيف الى معلوماتنا جانبا كبيرا عن آراء أوريجانوس التى أمعن فى توضيحها فى مؤلفاته المعروفة من قبل الا أنها ستساعدنا مساعدة أكيدة فى تحديد تاريخ نصوص هذا العالم ومعرفة الطريقة التى اتبعت فى نقلها اذ أن أقدم المخطوطات المنسوبة اليه التى حصلنا عليها قبل العثور على تلك الأوراق لا يرجع تاريخها الى ما قبل القرن العاشر بينما أوراقنا هذه أقرب فى تاريخها الى عهد أوريجانوس

نفسه منها الى عهد تاريخ تلك المخطوطات . ولاشك فى أن المقارنة بين هذه وتلك ستؤدى الى نتائج علمية مفيدة .

وعلاوة على نصوص أوريجانوس فقد عالجنا قطعا كبيرة من نصوص أخرى تكون عدة مئات من الصفحات ووضعناها فى ترتيبها الأصلى ، ومن هذه القطع ثلاثة تعليقات الأولى عن سفر التكوين والثانية عن سفر أيوب والثالثة عن نبوات زكريا . ولو أن واضع هذه التعليقات لم يرد ذكر اسمه ، الا اننى أميل الى الاعتقاد أنها تعزى الى عالم لاهوتى عظيم كان يقطن بالاسكندرية يسمى « ديديم الأعمى » لأننا نعرف أنه علق على هذه الأسفار الثـلاثة وما بقى لدينا من تعليقاته عن سفرى التكوين وأيوب لايتجاوز بعض فقرات قصيرة ورد ذكرها فى شروح هذه الأسفار وقد اهتدينا الى بعض من هذه الفقرات من سياق نصوصها فى أوراق طره . أما فيما يختص بتعليق ديديم الأعمى عن زكريا والذى لم نعثر على شىء منه فقد كشف النقاب عنه القديس جبروم اذ أخبرنا أن تعليقات ديديم كانت تنقسم الى خمسة أجزاء وهذا أمر يستلفت النظر اذ أن سفر زكريا نفسه كان يحتوى على ثلاثة أجزاء . أما التعليق الوارد فى أوراقنا يشتمل فى الواقع على خمسة أجزاء بدليل أن الجزء الأخير لدينا يحمل « الجزء الخامس » . وهذا التوافق مع ديديم فى عدد الأجزاء وفى الأدلة الأخرى ما يحملنا على الاعتقاد بأنها كانت حقيقة من عمل ديديم .

فاكتشاف طره يعتبر أهم ما اقتناه المتحف المصرى فى السنوات الأخيرة من أوراق البردى اليونانية . ومن المألوف لدينا أن تضم الوثائق الخاصة بعلم الأوراق البردية فى أوسع معنـاه أنواعا من وثائق أخرى تمت فى محتوياتها الى الأوراق البردية بصلة . وفى مقدمة هذه الوثائق قطع من أوانى الفخار المحطمة (أوستراكا) كانت تستخدم فى كتابة نصوص قصيرة وقتية . وقد تيسر للمتحف الآن أن يضيف الى مقتنياته من هذا النوع مجموعتين منها تختلفان عن الوثائق العادية المعروفة من قطع الفخار والمحفوظة بالمتحف .

والمجموعة الأولى التى نشرتها بمجلة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى العدد ٤١ لسنة ١٩٤٢ ص ١٤١ — ١٩٦ يحتوى على ستين قطعة من الأوستراكا يرجع تاريخها الى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد . وقد عثر عليها فى وادى الفواخير فى الصحراء الشرقية على الطريق الواقع بين قفط والبحر الأحمر حيث كانت توجد مناجم الذهب التى استغلت فى عهد الرعامسة . أما اكتشاف تلك المجموعة فيرجع الى شركة التعدين المصرية اذ عثرت عليها فى أثناء المحاولات الفنية المتقنة التى قامت بها لاستخلاص الذهب من حجر الكوارتس المتفتت من مخلفات القدماء .

وهذه المجموعة عبارة عن خطابات خاصة موجهة الى جنود الجيش الرومانى الذين كانوا مكلفين بالحراسة فى تلك المنطقة اما لحماية طريق القوافل واما للسهر على استغلال المناجم . ويحمل السواد الأعظم من أولئك الجنود أسماء رومانية ولو أن سبعة فقط من تلك الخطابات كتبت باللغة اللاتينية ولعلها صادرة من الرؤساء الرومان الأصليين . أما الخطابات الأخرى فقد كتبت باللغة اليونانية ولاشك أن مرسليها أو الأشخاص الصادرة اليهم كانوا مصريين أو من اليونانيين الذين استوطنوا فى مصر واتخذوا لهم أسماء رومانية عند انتظامهم فى سلك الجيش .

وتتضمن تلك الخطابات فى الغالب بيانات عن تبادل خدمات مطلوبة أو أديت فعلا بين مرسليها أو المرسلة اليهم . وهى فى مجموعها تلمح لنا عن الحالة المعيشية فى وادى الفواخير على أنها كانت مما لا يصعب احتمالها . وأن موقع هذا الوادى على طريق هام ومعبد مما ساعد على سهولة تموينه كما أصبح مركزا قيما لتموين رجال البعثات أو الرجال المعسكرين فى أماكن نائية . وتحمل تلك القطع من الأستراكا دائما بيانات عن غلال ان دلت على شىء فهى تدل على أنها مرسلة أو سترسل من وادى الفواخير وليست واردة اليه . فنجد لدى سكان هذا الوادى الحبوب والزيوت

والنبيذ والمملحات والملح والجبن بل وكثيرا ما تعهد أهله بتصدير ما كان يطلب منه من مقادير كثيرة من الخضروات المتنوعة الطازجة كما كان يطلب منهم حتى الورق اللازم للخطابات . ومما لا جدال فيه أن مجموعة تلك التفاصيل أو المعلومات ذات قيمة تاريخية هامة . وناهيك عما تحمله تلك الرسائل الوجيزة الجافة من الشعور الفياض اذ أننا نلمس بين سطورها كثيرا من العواطف الانسانية الكامنة من اصرار الانسان وكفاحه الجبار بالرغم من الظروف المقلقة التى تحيط به ، فى ابتداع بيئة يرفرف عليها الى حد ما علم السلام والرفاهية وتتوفر فيها الحياة الاجتماعية العائلية ، وفكرة الخلود والاعتقاد فى الحياة العادية .

أما المجموعة الثانية من الأستراكا فقد عثر عليها جماعة من العمال الذين كانوا يشتغلون باستخراج السباخ فى ادفا قرب مدينة سوهاج . وهى مكونة من خمسين نصا يرجع عهدها الى القرن الثالث بعد الميلاد . وأغلب تلك المجموعة تسير على نمط واحد ثابت ولو أن موضوعها عرضة للتنويع اذ يمكن أن يشتمل على معلومات أكثر أو أقل . فمثلا أمر صادر من شخص الى آخر لكى يسلم شخصا ثالثا عددا كبيرا من الدجاج والبيض وذلك لأسباب ذكرها . وهذا مثل من أمثلة الوثائق التى تتعلق بعلم الأوراق البردية فى أبسط صورها الأولية . وعلى ذلك فهى تمدنا بمعلومات لاشك أنها محدودة وكانت تعوزنا معرفتها من قبل فهى تنوه عن موضوع هام يختص بالاقتصاد الزراعى فى مصر فى العهد الرومانى كتربية الدواجن التى نعتبرها زينة حظائرنا اذ نأخذ منها تارة الريش اللازم لحشو الوسائد الوثيرة لفراشنا وتزخر منها موائدنا بالبيض واللحم الفاخر تارة أخرى .

أكتاف جيرو

ونقله للغة العربية طوجو مينا

المقتنيات الجديدة بالمتحف القبطى

اذا حق للمتحف القبطى أن يفخر بمقتنيـات جديدة أضـيفت الى مجموعاته بعد ضمه الى أملاك الدولة فى سنة ١٩٣١ فله أن يفخر أولا بتلك المجموعة النفيسة الرائعة التى نقلت اليه من المتحف المصرى عام ١٩٣٩ ، ثم بمجموعة أخرى مكونة من أحجار منقوشة وأخشاب ومعادن وأقمشة وخلافه تم الحصول عليها بطريق الشراء مما عرض بمعرض الفن القبطى الذى أقامته جمعية الآثار القبطية فى ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، وبمجموعة ثالثة من الأخشاب المنقوشة والملونة على جانب عظيم من الأهمية من الناحيتين الفنية والتاريخية حصل عليها المتحف بطريق الشراء أيضا فى العام الماضى .

أما المجموعة التى نقلت من المتحف المصرى فلايتسع المجال هنا للكلام عنها انما تجدر الاشارة اليها اجمالا لما لها من أهمية كبرى فى دراسة تاريخ مصر فى العصر المسيحى بوجه عام والفن القبطى بنوع خاص .

يرجع الفضل فى تكوين النواة الأولى لتلك المجموعة الى العالم الأثرى جاستون ماسبرو الذى يعتبر بحق أول من شمل الفن والعاديات القبطية بعناية واهتمام جديرين بالذكر والاعجاب . فانه لم يكد يعين فى وظيفة مدير عام مصلحة الآثار المصرية عام ١٨٨١ حتى عقد النية على أن يضم الى منهاج عمله الأماكن والآثار القبطية التى كادت تعصف بها أهواء الزمان كما بدأ بتخصيص احدى القاعات فى المتحف المصرى لآثار العصر المسيحى ، وعندما استقال من عمله عام ١٨٨٦ كان قد خلف وراءه فى غضون هذه المدة القصيرة قاعة عامرة بشتى الآثار القبطية التى جمعت من

أماكن مختلفة • غير أن من تولوا ادارة مصلحة الآثار من بعده بعثروا ما كان قد جمعه سلفهم من قبل وأرسل أحدهم نحوا من نصف تلك الآثار الى المتحف الاغريقى الرومانى بالاسكندرية • ولكن لحسن الحظ عاد ماسبرو الى وظيفته مرة أخرى عام ١٨٩٩ وبذل عناية كبيرة فى توسيع قسم الآثار القبطية بالمتحف المصرى وكون بذلك نواة تلك المجموعة النفيسة النـادرة التى تزدان بها الآن قاعات كثيرة من قاعات المتحف القبطى الفسيحة الأرجاء والتى لم تضاعف محتوياته وقتئذ فحسب بل ألبسته حلة رائعة من الرونق والبهاء والجمال وزادت من أهميته زيادة كبرى جعلته مركزا رئيسيا هاما لدراسة آثار مصر التاريخية فى العصر المسيحى •

وتتكون هذه المجموعة من ٥٠٠٠ قطعة تقريبا بعضها حصل عليه المتحف المصرى بطريق الشراء والبعض الآخر وهو الجانب الأكبر وارد من حفريات قامت بها مصلحة الآثار وهيئات علمية أخرى فى جهات مختلفة من القطر أهمها باويط وسقارة واهناسية •

أما الآثار الواردة من باويط والتى تجمعها قاعة خاصة بالمتحف أطلق عليها هذا الاسم فقد عثرت عليها البعثـة الفرنسية فى دير الانبا أبولو (الكائن) بتلك الجهة والذى يرجع تاريخه الى القرن السادس الميلادى • والجزء الأكبر من تلك الآثار هو عبارة عن قطع معمارية من الحجر الجيرى المنقوش كعصابات زخرفية وكرانيش ورسوم جصية كانت تزدان بها جدران الدير وتيجان أعمدة وخلافه • ومن أهم القطع التى عثر عليها بتلك الجهة والتى تزدان بها قاعة باويط بالمتحف هى حنية (Niche) من الطين الملون (رقم ٧١١٨) بالجزء الأعلى منها صورة السيد المسيح جالس على كرسى العظمة وتحمله الحيوانات الأربعة التى ورد ذكرها فى سفر حزقيال النبي وعلى جانبيه رئيسا الملائكة ميخائيل وغبريال ، وبأسفل هذا المنظر صورة السيدة العذراء وهى تحمل الطفل المسيح وعلى جانبيها

الرسل واثنان من القديسين المحليين (أنظر لوحة ١) ، ويرجع تاريخ هذه القطعة الى نهاية القرن السادس أو بداية السابع .

أما الآثار الواردة من سقارة والمخصص لها أيضا قاعة بالمتحف (لوحة رقم ٢) أطلق عليها اسم تلك الجهة فقد عثر عليها كويبل فى دير الانبا أرميا الذى يقع فى سفح الجبل والذى يرجع تاريخه الى حوالى القرن السادس الميلادى ، وبينها وبين آثار باويط السالفة الذكر شبه كبير مما لايدع مجالا للشك فى أن الديرين قد بنيا فى وقت واحد تقريبا وربما كان قد اشترك بعض الصناع أيضا فى زخرفة هذين الديرين . ومن أهم الآثار الواردة من سقارة والتى تركت أثرا جليا ظاهرا فى العمارة الاسلامية الأولى هو كرسى القراءة الذى عثر عليه كويبل فى حوش الدير والذى لاشك فيه أن منابر المساجد الاسلامية الأولى التى شيدها العرب فى مصر قد نقلت عنه . (أنظر الصورة رقم ٣)

أما آثار اهناسية فلها طابع خاص يختلف عن آثار باويط وسقارة ، ويرجع تاريخها الى القرنين الرابع والخامس الميلادى أى فجر العصر القبطى ، وان كان الجانب الأكبر من تلك الآثار قد نقشت عليه صور وثنية وأساطير اغريقية قديمة الا انه يبين لنا بوضوح تأثير الفن الهلينستى المتأخر على الفن القبطى وكيف أن الفنان القبطى فى أول عصره نقل عن تلك الآثار التى وجدها أمامه ثم صبغها فيما بعد بالصبغة المسيحية كمايتضح ذلك من مقارنة القطعة رقم ٧٠٢٩ (لوحة ٤) المعروضة بالقاعة رقم ١ بالمتحف المخصصة لآثار اهناسية ، والتى تمثل فى الوسط سيريس آلهة الزراعة عند قدماء الاغريق داخل اكليل من الزهر تحمله جنبتان مجنحتان بالقطعة رقم ٧١٠٢ (لوحة رقم ٥) المعروضة بقاعة باويط رقم ٣ والتى تمثل أحد القديسين داخل اكليل من الزهر يحمله ملاكان .

وبجانب تلك الآثار تحتوى المجموعة التى نقلت من المتحف المصرى على قطع أخرى كثيرة لاتقل أهمية عن آثار باويط أو سقارة أو اهناسية

لايتسع المكان هنا للتنويه عنها وعلى الأخص الآثار الحجرية الواردة من الهنسا والتى مازالت ترد الى المتحف من تلك الجهة حتى يومنا هذا .

ننتقل الآن الى الكلام عن المجموعة الثانية التى حصل عليها المتحف بطريق الشراء من الآثار التى عرضت بمعرض الفن القبطى الذى أقامته جمعية الآثار القبطية فى ديسمبر سنة ١٩٤٤

لقد نجح هذا المعرض حقا نجاحا باهرا نظرا لما بذلته جمعية الآثار من مجهود كبير فى تنظيمه وتنسيقه ومما اشتمل عليه من معروضات نفيسة روعى فى انتقائها اعطاء فكرة صحيحة للزائرين عن الفن المصرى فى العصر المسيحى . وكانت فرصة فريدة اذ أنها أظهرت بجانب المعروضات المعارة من المتاحف والهواة تحفا كثيرة ملكا لتجار العاديات على جانب عظيم من الأهمية من الناحيتين الفنية والتاريخية وبعضها متمم للمجموعات المحفوظة بالمتحف والبعض الآخر ليس له مايماثله .

وقد انتهز المتحف فرصة اقامة هذا المعرض وتمكن بفضل مساعدة وتشجيع ورعاية وزارة المعارف العمومية من الحصول على أهم المعروضات التى يملكها أولئك التجار وتتكون من أحجار منقوشة وأقمشة ومعادن وعاج وخلافه آهمها :

١ — عقدا بابين من الحجر الجيرى المنقوش (رقم ٦٤٧٢ و ٦٤٧٣) تتكون زخارفها من رسوم هندسية تشبه الى حد كبير الزخارف المحفورة على الخشب ويتوسط أحد هذين العقدين رسم بارز مشوه قليلا يمثل قديسا يمتطى جوادا داخل دائرة يحملها ملاكان ويزدان اطار العقدين بنوع نباتى يتخلله ثمار فاكهة لعلها رمان . ومما لاشك فيه أن هذين العقدين واردين من دير الانبا أبولو بباويط ويرجع تاريخهما الى القرن السادس الميلادى بالرغم من أنهما عند اكتشافهما كانا يزينان واجهة مسجد ببلدة دشلوط التى تقع على بعد كيلومترين تقريبا (أنظر اللوحتين رقم ٦ و ٧) .

٢ ــ جزء من افريز من الحجر الجيرى (رقم ٦٤٧١) نقشت عليه صورة ديونيسيوس آله الخمر فى الأساطير الأغريقية وهو واقف تحت شجرة عنب ويستند الى مذبح على شكل عامود وأمامه كاهنة وعلى الجانب الآخر من شجرة العنب الاله الافريجى سلين وفى يده كأس وهو متكىء على كعب شاب من الجان (انظر لوحة رقم ٨) ويتبين من طراز هذه القطعة أنها واردة من اهناسية المدينة ويرجع تاريخها الى نهاية القرن الرابع الميلادى ٠

٣ ــ قطعة صغيرة من الحجر الجيرى (رقم ٦٤٧٠) تمثل أحد مناظر الصـعيد المألوفة فى الفن القبطى وتحوى شخصا قصـير القامة عارى الجسم فى حركة جرى وهو مصوب سهامه نحو أسد والى يسار هذا المنظر عمود بدنه برزان لقنوات عمودية فى النصف الأسفل وحلازونية فى النصف الأعلى (انظر لوحة رقم ٩) ويغلب على الظن أن هذه القطعة واردة من البهنسا ويرجع تاريخها الى القرن الخامس ٠

٤ ــ شاهد قبر عائلة من الحجر الجيرى (رقم ٦٥٦٦) عليه نص جنائزى باللغة القبطية نقش بعناية تامة وذكر بالجزء الأعلى منه أسماء ثمانية أشخاص تربطهم صلة القرابة بشخص يدعى دبرسكور القوصى ويظهر أن أحد أفراد هذه الأسرة أضاف فيما بعد أسماء ثلاثة أشخاص آخرين وتاريخ وفاة كل منهم ٠

ولهذه الشواهد أهمية خاصة من حيث أنها تعتبر منهلا قيما لمعرفة أسماء الأشخاص والبلدان والمهن هذا فضلا عن أهميتها أيضا من ناحية مقارنة النهوض الجنائزية المختلفة التى اختصت بها جهات معينة من القطر ٠

٥ ــ وقطعة من الحجر الجيرى المنقوش (رقم ٦٤٩٥) تمثل الثلاثة فنية العيراتين الذى ألقى بهم الملك بنوخـذ نصر فى أتون النار (راجع الاصحاح الثالث من سفر دانيال) وقد ظهر بينهم ملاك الرب ممسكا

بعصا يبعد بها اللهب عنهم • القرن السابع الميلادى •

ويمكن مقارنة هذه القطعة بالرسم الملون الذى يمثل نفس المنظر والذى عثر عليه كويبل فى دير الأنبا أرمبا بسقارة •

٦ — جزء من حشوة من الخشب (رقم ٦٦٨٨) عليها زخارف محفورة تمثل حيوانات ونباتات بين عقود ويرجع تاريخها الى القرن السابع أو الثامن الميلادى •

٧ — متجرة من البرونز (رقم ٥٩٢٢) على شكل رأس آدمى هيئه فوق قاعدة ، على رأسها غطاء مخروطى — لعله قبعة مزيجيا — مزين بزخارف مخرمة • القرن السابع الميلادى •

قارورتان من الفخار (رقم ٦٧١٧و٦٧٧٨) تحفظ المياه المقدسة من دير مارمينا بمريوط عليهما صورة هذا القديس بين جملين راكعين يلعقان قدميه (هدية من المستر د رلشبر) •

٩ — جزء من حذاء من الجلد (رقم ٦٧١٦) مزين بزخارف مذهبة مقطوعة فى الجلد وممثل حيوانات تقفز • يرجع تاريخه الى القرن الخامس أو السادس الميلادى •

١٠ — قميص من الكتان (رقم ٦٦٦٨) من قطعة واحدة ، عليه زخرفة بالألوان قوامها شريطان متوازيان يمتدان عليه من نهاية وجهه ويصعدان الى الكعبتين ثم تنتهيان عند أسفل الظهر ، ويتصل بهما شريط أفقى يسير على الحافة السفلى ويصعد فى نهايته الى أعلى قليلا حيث يخرج من كلا طرفيه فرع نباتى تتصل به ورقة شجر على هيئة عنقود • وتتجلى دقة النسيج ورقته فى هذا القميص مما يحمل على الظن أنه يرجع الى عصر متقدم ربما كان القرن الثالث الميلادى •

١١ — جزء من ستارة (رقم ٦٦١٠) عليه زخرفة متعددة الألوان منسوجة لغاية الدقة — فى الجانب الأيسر طاووس وفى الأيمن بقايا زخرفة نخيلية مأخوذة من الطراز الهلنتيسى — القرن الثالث .

١٢ — قطعة نسيج فى غاية الدقة (رقم ٦٦١٥) منسوجة بخيوط من الكتان وتمثل أسدا جريحا ينظر باحتقار الى أعدائه . وهذا الرسم المستمد من الفن الهلنتيسى كان مألوفا فى الشرق الأدنى . القرن الرابع .

١٣ — ركن من ستارة (رقم ٦٥٩٣) زخارفة منسوجة بخيط من الصوف والكتان ويتكون من شريط حافته مسننة به مربعات صغيرة كل خمسة منها تكون وحدة قائمة بنفسها وبأسفل القطعة شريط من خطوط مفكرة — القرن الرابع أو الخامس .

وألوان هذه القطعة التى ما زالت تحتفظ برقتها تبين لنا ما كان لمثل هذه الستار من البهجة .

١٤ — شريط لقميص (رقم ٦٦١١) زخرفة من لون واحد منسوجة بخيوط من الصوف وهى عبارة عن اطار ضيق به أسمال تحف بصورة رجل واقف يحمل على كتفيه عصا معلقا بها عنقود عنب ويلوح أن المقصود بهذا الرسم هو سنبل يوشع أو أحد الجواسيس العائدين من فلسطين ، وهو أحد الرسوم النادرة التى نرى فيها الموضوعات الدينية المستمدة من الكتب المقدسة — القرن الخامس أو السادس .

١٥ — قطعة مستدرة من القماش (رقم ٦٥٩٤) يغلب على الظن أنها من قميص . زخارفها من لون واحد ومنسوجة بخيوط من الصوف وتمثل حيوانان متواجهان لعلهما أسدان بينهما نخلة لعلها شجرة الحياة وبأعلاها طائران متعاكسان — القرن الخامس أو السادس .

١٦ — ستارة كبيرة (رقم ٦٦٨٥) زخرفتها متعددة الألوان ومنسوجة بخيوط من الصوف والكتان وتتكون من عمودين من الطراز الكورنتى يحملان عارضة تحتها صف من ثلاثة عقود تيجان أعمدتها ملفات ومعينات ، وتحت كل من العقدين الجانبين صورة طاووس على رأسه وصدره صلبان وتحت العقد الأوسط صورة حيوان خرافى موفر زخرفة من اللوتس .

ويحتمل أن هذه الستارة كانت مستعملة فى الأغراض الدينية وربما كانت تعلق فى جهة ما بالكنيسة — القرن الخامس أو السادس •

١٧ — كم قميص (رقم ٦٦٠٦) زخارفه باللون الأسود ومنسوجة بخيوط من الصوف وهى عبارة عن حيوانات خرافيـــة تحمل كؤوسا ووحوش تجر حميرا وأقزام تحارب أسودا ثم اله الخمر ياكوس فى عربة يجرها نمر ثم أشخاص كأنهم جالسون فى وليمة ويجمع هذه الرسوم قد طغت عليها روح التنسيق — القرن السادس •

١٨ — جزء من ستارة (رقم ٦٦٠٧) مزخرف باللونين الأخضر والأصفر وبه جافتان مستديرتان فوق بعضهما فى العليا طائر متجه الى اليسار وفى السفلى حيوان لعله أسد متجه الى اليمين • وهذه القطعة توحى لنا أنها آخر ما اتجه الفن القبطى وأول ما اتجه الفن الاسلامى وربما كانت من العصر الطولونى •

أما المجموعة التالية التى أشرنا اليها فى صدر هذه الكلمة تنقسم الى ثلاثة أقسام رئيسية •

القسم الأول — أخشاب منقوسة بها بقايا ألوان يمثل الجزء الأكبر منها مناظر نيلية كان استعمالها مألوف فى الفسيفساء الرومانية وعلى بعضها الآخر رموز مسيحية ويرجع تاريخها الى القرن الرابع أو الخامس الميلادى •

القسم الثانى — أخشاب ملونة رسم على بعضها مناظر مشابهة لمناظر القسم الأول ويرجع تاريخها الى نفس العصر •

القسم الثالث — أخشـــاب منقوشة على بعضها زخارف نباتيـــة وهندسية وعلى البعض الآخر رسم الصليب بين أوراق العنب ويرجع تاريخها الى القرن السابع •

ويلوح أن هذه المجموعة النفيسة كانت تزين احدى كنائس مصر الوسطى التى شـــيدت فى نهاية القرن الرابع أو بداية القرن الخامس

الميلادى والتى يغلب على الظن أنها احترقت فى القرن السابع بدليل وجود آثار احتراق ظاهرة على بعض أخشاب القسم الثالث .

وقبل أن تصل هذه المجموعة الى أيدينا لم تكن تعرف من القطع المشابهة لها سوى النذر اليسير ونظرا لما لها من أهمية فنية كبرى فقد خصصت لها فى القاعة رقم ١٤ بالجناح الجديد وستنشر قريبا فى مجلد خاص . وفيما يلى بيان لبعض القطع الرئيسية :

١ — حشرة (رقم ٧١٨١) على جانب عظيم من الأهمية من الناحية الفنية — يمثل شخصا واقفا فى الكرم وفى يده شرشرة لجمع عناقيد العنب ويتخلل الكرم طائران من الطيور المهاجرة بأعلى سمائه وبأسفل طائر معروف باسم Lorist (أنظر لوحة رقم ١٠) . وعلى الحشرة زخرفة من ورق زهرة اللوتس الوردة التى لعبت فى مصر دورا كبيرا فى الزخرفة فى العصور الأولى للمسيحية والتى كانت تعتبر كنبات من نبات الفردوس

٢ — قطعة صغيرة (رقم ٧١٨٢) تمثل جزءا من مركب يحوى أوانى مقفلة يغلب على الظن أنها ملأى بالمؤونة وفى الجانب الأيمن من المركب نرى شخصا يمد يده الى الماء وقد هاجمه تمساح كبير (أنظر لوحة رقم ١١) . ولهذه القطعة أهمية خاصة من حيث انها تمثل منظرا مألوفا فى الفن المصرى القديم .

٣ — ثلاث قطع (أرقام ٧٢١٠ و ٧٢١١ و ٧٢١٢) يكمل بعضها البعض وهى من أهم مناظر المجموعة وتمثل فى الوسط تمساحا كبيرا ووراؤه سمكة فوقها زهرة اللوتس وعلى يمين هذا المنظر حنبتان مجنحتان تحملان صليبا داخل دائرة وعلى اليسار تكملة المنظر النيلى من أسماك وطيور مائية (أنظر لوحة رقم ١٢) .

٤ — قطعة مكونة من ثلاثة أجزاء (أرقام ٧١٨٤ و ٧١٨٥ و ٧١٨٦) وتمثل من اليمين الى اليسار : بقايا زهرة اللوتس الوردية داخل دائرة يحملها حنبتان مجنحتان ثم عامودا ثم بطتين ثم زهرة اللوتس أيضا ثم شخصا

يحمل سلة يجمع فيها العنب — وبالقطعة بقايا ألوان — وتظهر جليا تأثير الفن الهلنتيسى على هذه القطعة التى تمثل احدى موضوعات ديونيسونس .

٥ — تسع قطع يكونوا مجموعة خاصة (أرقام ٧١٩٨ و ٧٢٢٢ — ٧٢٢٤ و ٧٢٢٦ — ٧٢٣٠) عليها نقوش متشابهة فى رسومها وأشكالها قوامها حنبتان مجنحتان تحملان داخل اكليل من الزهر صورة نصفية لشخص حول رأسه اكليل أو هالة ، وعلى يمين ويسار هذا المنظر اما شكل عامود أو طيور مائية كالبط أو أسماك تسبح بين نبات وزهر اللوتس ، وعلى هذه القطع بقايا آثار بالألوان .

هذا بيان موجز لبعض قطع هذه المجموعة التى تعتبر بحق أفخر وأنفس ما اقتناه المتحف القبطى فى غضون السنتين الأخيرتين ولا شك فى أن نشرها فى مجلد خاص سيلقى ضوءا جديدا على الفن القبطى فى عصره الأول وعن مدى التأثيرات التى أثرت عليه فى هذا الزمن .

حواشى

(١) الجزء الأكبر من هذه المجموعة قامت بنشره مصلحة الآثار المصرية فى «كتالوج» المتحف العام : انظر *W.E. CRUM, Coptic Monuments* (Catalogue Général des Antiquités Egyptiennes du Musée du Caire, Nos. 8001-8741) طبع فى القاهرة عام ١٩٠٢ وهو يشمل بعض المخطوطات وقطع الشقف المكتوبة ومجموعة شواهد القبور التى كانت موجودة بالمتحف وقتئذ . ثم YOSEF STRZYGOWSKI, *Koptische Kunst* (*Cat. Gén.* etc., Nos. 7001-7394 et 8742-9200). طبع فى القاهرة عام ١٩٠٤ ويعتبر بحق أهم الكتب العلمية التى نشرت عن الفن القبطى وهو يشمل ما فى المجموعة على اختلاف أنواعها من أشجار وأخشاب ومعادن وعاج وصور وخلافه عدا المخطوطات التى نشرت فى مجلد خاص تحت اسم HENRI MUNIER, *Manuscrits Coptes* (*Cat. Gén.* etc., Nos. 9201-9304) طبع فى القاهرة ١٩١٦ . هذا وقد قامت الهيئات العلمية بنشر ما أضيف على تلك المجموعة فى مجلدات أخرى سيأتى الكلام عنها فيما بعد .

(٢) تقع بلدة باويط على الضفة الغربية للنيل وتتبع مركز ديروط وتبعد عنها حوالى ١٠ كيلومتر ناحية الغرب . وقد بدأ المعهد الفرنسى للآثار الشرقية الحفر فى تلك الجهة تحت إشراف جان كليدا فى نوفمبر عام ١٩٠١ وأسفرت أعمال التنقيب عن اكتشاف كنيسة كبيرة للأنبا ابولو وهياكل كثيرة متفرقة قام بنشرها المعهد الفرنسى فى المطبوعات الآتية : JEAN CLEDAT,

Le Monastére et la Nécropole de Baouît, t. I (*Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie orientale*, t. XII, fasc. 1, 1904, fasc, 2, 1906); EMILE CHASSINAT, *Fouilles à Baouît* MIFAO., t. XIII, fasc. 1, 1911); Jean CLEDAT, *Le Monastère et la Nécropole de Baouît*, t. II, fasc. 1 (MIFAO., t. XXIX, 1916).

(٣) الآثار التى عثر عليها فى دير الأنبا أرميا بسقارة قامت بنشرها مصلحة

الآثار المصرية فى المجلدات الآتية : Y.E. QUIBELL, *Excavations at Saqqara*, 1906-1907 (Cairo, 1908); 1907-1908 (Cairo, 1909); 1908-9, 1909-10 (Cairo, 1912).

(٤) راجع Y.E. QUIBELL, *Excavations* etc., 1908-9, 1909-10 ص ٧ — لوحة ١٤ و K.A.C. CRESWEL, *Coptic Influences on Early Muslim Architecture* فى العدد الخامس من مجلة جمعيـة الآثار القبطية ص ٣٠ .

(٥) تقع بلدة أهناس أو أهناسـية المدينة على بعـد ١٥ كيلومتر من بنى سويف . وقد عثر على الجزء الأكبر من هذه الآثار E. NAVILLE وتكلم عنها فى كتابه *Ahnas el Medinet* (*Memoirs of the Egypt Exploration Fund*, t. XI, London 1894. راجع أيضاً W.M. FLINDERS PETRIE, *Ehnasya*, London 1904 و *Roman Ehnasya* (*Eg. Exp. Fund* XXVI, London 1905 ثم *Discoveries at Herakleopolis* لنفس المؤلف طبعت فى مجلة *Ancient Egypt*, 1921 ص ٦٥ — ٦٩ . وكذلك كتاب UGO MONNERET DE VILLARD, *La Scultura ad Ahnâs*. Milano 1923.

(٦) انظر : دليل معرض الآثار القبطية تحت رعاية حضرة صاحب الجلالة الملك — ديسمبر سنة ١٩٤٤ .

(٧) انظر القطعة رقم (٨٧٨٠ متحف مصرى) المحفوظة بقسم الأخشاب بالمتحف والمنشورة فى JOSEF Strzygowski, Koptische Kunst ص ١٢٤ رقم ٨٧٨٠ .

(٨) قارن القطعة الآتية رقم ٧٠٢٩ التى تمثل آلهة الزراعة سيريس والتى أشرنا إليها أعلاه .

(٩) أول من اكتشف هذين العقدين بواجهة مسجد دشلوط هو جناب المسيو فييت مدير دار الآثار العربيـة عام ١٩١١ وعمـل لها صوراً فوتوغرافية نشرها Chassinat فى كتابه Fouilles à Baouît الذى أشرنا إليه أعلاه (راجع لوحات ٣ و ٤ و ٥ و ٦ من هذا الكتاب) . ويلوح أن أحد تجار العاديات

كان قد تنبه إلى وجود هذين العقدين الثمينين فاتفق مع أصحاب المسجد على الحصول عليهما نظير إعادة بنائه وتم له ذلك فعلا ثم اتفق على بيعهما لمتحف المتروبوليتان بنيويورك ولكن المسيو لاكو مدير عام مصلحة الآثار المصرية وقتئذ رفض التصريح بتصديرهما للخارج نظراً لما لهما من أهمية تاريخية كبرى وإليه يرجع الفضل فى الاحتفاظ بهما الآن فى المتحف القبطى .

(١٠) راجع دليل معرض الآثار القبطية رقمى ١٧٤ و ١٧٥ .

(١١) نسبة إلى فريجيا إحدى مقاطعات آسيا الصغرى .

(١٢) دليل المعرض رقم ١٦٤ (١٣) دليل المعرض رقم ١٧١

(١٤) دليل المعرض رقم ١٧٣ (١٥) دليل المعرض رقم ١٨٥ وراجع مقالة الدكتور دريوتون فى العدد الثامن من مجلة جمعية الآثار القبطية ص ١ — ١٥

(١٦) انظر لوحة ٥٧ من كتاب QUIBELL, *Excavations* etc., 1906-1907

(١٧) دليل المعرض رقم ٢٣٣ (١٨) دليل المعرض رقم ٢٧٠

(١٩) دليل المعرض رقمى ٢٨٠ و ٢٨١ وراجع بخصوص قصة مار مينا والجملين كتاب JAMES DRESHER, *Apa Mena* (Le Caire 1946)

(٢٠) دليل المعرض رقم ٢٧٧ (٢١) دليل المعرض رقم ٨

(٢٢) دليل المعرض رقم ٩ (٢٣) دليل المعرض رقم ٣٦

(٢٤) دليل المعرض رقم ٥٢ (٢٥) دليل المعرض رقم ٨٤

(٢٦) دليل المعرض رقم ٨٥ (٢٧) دليل المعرض رقم ٩٩

(٢٨) دليل المعرض رقم ١١٩ (٢٩) دليل المعرض رقم ١٦٢ .

(٣٠) راجع مقالة الدكتور L. Keimer فى العدد ٢٨ من مجلة المجمع العلمى المصرى (Bulletin de l'Institut d'Egypte t. XXVIII) ص ٤٧ — ٥٤.

(٣١) راجع W. DE GRUNEISEN, *Les Caractéristiques de l'Art Copte, Florence* 1922, pp. 57 et suiv., pl. LI-LII.

وبمقارنة القطع الأربع المنشورة فى هذا الكتاب مع مثيلاتها التى حصل عليها المتحف يتضح جلياً أنها واردة من نفس الجهة ومتممة لمجموعة المتحف .

(٣٢) راجع مقالة الدكتور كيمر المشار إليها أعلاه .

طوجو مينا

بعض الأعمـــال الهامة التى قامت بها

ادارة حفظ الآثار العربية فى السنة الأخيرة

تقوم ادارة حفظ الآثار العربية بصيانة المبانى الاسلامية التى خلفتها حقبات التاريخ الاسلامى منذ الفتح العربى لمصر حتى وفاة المغفور له محمد على باشا الكبير . فهى تعنى بالمحافظة على تراث ما شـيده الولاة والخلفاء والسلاطين من مبان مختلفة متعددة الطرز . وهى تربو على ٥٧٠ أثرا بين مساجد ومدارس وبيوت وقصور وأسبلة وخوانق وتكايا وزوايا ووكالات وحمامات وأسوار واستحكامات موزعة فى أرجاء مملكة مصر .

وهذه الادارة تتحمل عبئا ثقيلا فى حفظ هذا التراث المجيد لأن أمامها عدد وفير من الآثار جدير بالاصلاح والترميم . وهى تعالج هذه الحالة باتباع سياسة ترميمية تدريجية على مر السنين بقدر ما تسمح به الظروف وذلك بتفضيل الأهم على المهم .

ولنعرض الآن بعض الأعمال الهامة التى قامت بها فى السنة الأخيرة ممثلة فى أسوار القاهرة واستحكاماتها ووكالة الغورى الأثرية .

١ — أسوار القاهرة واستحكاماتها :

عندما تم لجوهر الصقلى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٨ م) موفدا من قبل الخليفة المعز لدين الله الفاطمى وقع اختياره على مكان شمال الفسطاط والقطائع موقعا لعاصمته الجديدة وأحاطه بسور من اللبن وأطلق على هذه العاصمة اسم « المنصورية » فلما قدم المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) الى مصر سميت « القاهرة » وقد ظل هذا السور قائما حتى أيام المماليك اذ شاهد المقريزى أجزاءا منه وذكر أن آخر ما كان منـــه جزءا يقع بين درب المحـروق ودرب بطوط وقد تعجب من لبن هذا السور فقد كان مقاس اللبنة الواحدة يبلغ ذراعا فى ثلثى

ذراع وعرض جدار السور عدة أذرع بحيث يستطيع أن يمر عليه فارسان .

وظل هذا السور على حاله الى أن جاء مصر بدر الجمال فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى لانقاذ البلاد من الفوضى والقحط فلما استقرت الأمور فى البلاد فكر فى تقوية تحصينات القاهرة فزاد فى حدودها شمالا وجنوبا وأقام الأسوار والأبراج والأبواب الجديدة بالأحجار الضخمة بدلا من اللبن . وتمتد هذه الأسوار فى الجهة الشمالية من غرب باب الفتوح الى باب النصر . أما فى الجهة الجنوبية فتمتد حوالى سبعين مترا فى الجهة الشرقية لباب زويلة وبقيت الأسوار بالجهتين الغربية والشرقية باللبن كما أقامها جوهر الصقلى ولكن قام بتقويتها بدر الجمالى .

ولا تزال الأسوار والأبراج والأبواب التى أقامها بدر الجمالى قائمة للآن تنطق بروعة الفن وجمال التخطيط وعظمة البناء وتزهو على سائر التحصينات المعاصرة لها فى سائر أنحاء العالم فى القرون الوسطى .

ولما ولى الوزارة صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) فى عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين أراد أن يجدد السور من الجهة الغربية فهدم سور جوهر الصقلى وأقام سورا من الحجارة ومده حتى باب القنطرة. ثم لما ولى السلطنة فى مصر فكر فى أن يتخذ قلعة الجبل مقرا لحكمه بدلا من القاهرة عاصمة الفاطميين فعدل عن تحصين القاهرة وحدها ورأى أن يجمع الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة داخل سور واحد فمد السور مما يلى باب القنطرة الى باب الشعرية الى باب البحر فقلعة المقس التى كانت تقع على النيل اذ ذاك كما مده مما يلى باب النصر حتى برج الظفر الى منطقة باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل ومنها مد السور جنوبا ليلتقى بالنيل قبلى الفسطاط ولا تزال أجزاء كثيرة من سور صلاح الدين باقية للآن .

وتعنى ادارة حفظ الآثار العربية عناية خاصة بالمحافظة على ما بقى

من أبواب القاهرة القديمة وأسوارها وأبوابها لما فيها من أهمية خاصة اذ أنها تنطق بما وصل اليه فن البناء ونحت الأحجار وبراعة التخطيط فى العصرين الفاطمى والأيوبى فهى تمتاز ولا شك عن غيرها من المبانى المعاصرة لها فى جميع أنحاء العالم من حيث الجودة والاتقان فى فن البناء ونحت الأحجار .

وقد كانت هذه الاستحكامات الى عهد قريب محجوبة كلية بأبنية عديدة اتخذ أصحابها أجزاء من تلك الاستحكامات مرافق لهم . كذلك اتجهت الفكرة الى ضرورة نزع ملكية جميع المبانى التى تحجبها . وقد تم الآن تخلية أسوار القاهرة الشمالية من غرب باب الفتوح الى باب النصر كما تمت تخلية الواجهة الغربية لجامع الحاكم بأمر الله والجهة الشرقية لباب الفتوح من الداخل . ونرجو أن تتم قريبا نزع ملكية جميع المبانى التى تحجب الأسوار المتجهة غربا من باب الفتوح الى شارع الأميرفاروق . وبذلك يستطيع القادم منـــه الى برج الظفر أن يشاهد روعة الفن وجماله فى الاستحكامات الشمالية لقاهرة الفاطميين بعد أن ظلت أعواما عـديدة محجوبة عن الأنظار .

وقـــد تمكنت الادارة فى السنوات الأخيرة من القيـــام بكثير من الاصلاحات والترميمات فى الاستحكامات المذكورة فهدمت جميع المبانى التى أحدثتها الحملة الفرنسية فى مصر فى الجزء الداخلى من السور . كما قامت بترميمات عديدة فى أجزاء متفرقة من الأسوار والأبراج بمبانى الحجر على مثال المبانى القديمة مستخدمة فى ذلك الأحجار الكبيرة والشرفات الضخمة المستديرة النهايات كما اهتمت باعادة تبليط الأسطح فأتمت تبليط سطحى باب النصر وباب الفتوح وسطح برج السلم الكبيرالذى يقع غرب باب الفتوح وأجزاء أخرى متفرقة من باب الفتوح الى باب النصر .

كذلك قامت الادارة منذ أربعة أعوام فى اقامة خندق بعرض ستة أمتار جعلت مستوى أرضيته مع مستوى خندق بدر الجمالى القديم الذى

كان يمتد أمام هذه الاستحكامات وقد تم الآن تنفيذ جزء كبير من غرب باب الفتوح متجها الى باب النصر .

والآن وقد تم فتح طريق متسع أمام هذه الاستحكامات من باب الفتوح الى باب النصر أصبح فى الاستطاعة مشاهدة ما بها من جمال وروعة كما كانت أيام الفاطميين .

ولم تكن عناية الادارة قاصرة على هذا الجزء من استحكامات القاهرة الفاطمية بل عنيت أيضا بالاستحكامات التى أقامها صلاح الدين فى سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) عندما مد حدود المدينة فى الجهة الشرقية فبذلت عناية خاصة لاصلاح وترميم برج الظفر فأعادت بناء وترميم كثير من مبانيه ومصلباته طبقا للحالة التى كان عليها وبذلك استكمل تخطيطه الذى يعتبر من الناحيــة الهندسية شاهدا على عبقرية منشئه واتساع أفق تفكيره .

ولم يقتصر عمل الادارة على تخلية وحفظ وترميم هذه الاستحكامات بل انهــا تقوم أيضا بعمل الاستكشافات اللازمة لتحــديد معالمها . وقد تمكنت من أربع سنوات من كشف باب القرافة الذى أقامه صلاح الدين حوالى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) بالجهة الشرقية للقاهرة بعد أن ظل موقعه مجهــولا حقبه طويلة من الزمن وهو على نظام تخطيط باب المدرج بالقلعــة ومن النوع المعروف بالباشورة ذى المدخــل المنثنى واهتمت بترميم بعض مبانيه وأقامت حوله خندقا عميقا لتحديد ارتفاعه الأصلى ويجرى الآن نزع ملكية المبانى الراكبة عليه والتى تلاصقه من الجهة الغربية ليتسنى اظهاره كاملا طبقا لتخطيطه الأصلى .

وزيادة على ذلك فقــد شرعت الادارة هذا العام بعد أن تم جلاء القوات البريطانيــة فى اصــلاح وترميم برج كركريان أحد أبراج القلعة من الجهة القبلية فهدمت مبانيه المتداعية ورفعت جميع الأتربة والأنقاض التى كانت تعــلو المصلبات والأسقف وشرعت فى اعادة بناء

الجدران والمصلبات طبقا للحالة التى كان عليها البرج وستقوم الادارة فى الأعوام القادمة باتمام مبانى هذا البرج واصلاح وترميم الأبراج والأسوار الأخرى ليعود لهذه القلعة جمالها ورونقها .

٢ — وكالة الغورى الأثرية :

ان من يستعرض تاريخ العمارة الاسلامية فى مصر تبرز له ثلاث شخصيات من حكام مصر فى عصر المماليك امتازوا بالولع بفن العمارة وأغرموا باقامة المنشئات الفخمة فازدهر فن العمارة فى عهدهم وبلغ شأواً كبيراً . وهم الناصر محمد بن قلاون وأبو النصر قايتباى وقانصوه الغورى. فقد شيد فى عهدهم عدد وفير من المبانى لا يزال معظمها قائما منتشرا فى جميع أنحاء القاهرة من مساجد ومدارس وخوانق ووكالات وغير ذلك يشهد بما وصل اليه تقدم الفنون وخاصة فن العمارة .

والسلطان الغورى منشىء هذه الوكالة ولد فى حدود سنة ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م) وامتلكه السلطان الأشرف قايتباى وعينه فى جملة وظائف الى أن نودى به سلطانا على مصر فى شوال سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م) وظل سلطانا على مصر الى أن قتل فى مرج دابق شمالى حلب وهو يقاتل السلطان سليم فى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) . وقد كان مولعا بفن العمارة مشجعا للفنون والفنانين فازدهرت العمارة فى عهده ازدهارا كبيرا واقتدى به أمراؤه وتنافسوا فى اقامة المنشئات العديدة. وقد شيد السلطان الغورى مجموعة فخمة تقع فى نهاية شارع الغورية عند تقاطعه بشارع الأزهر مكونة من قبة ومدرسة وسبيل وكتاب ومنازل ثم الوكالة التى سنخصها بالذكر. وهذه المجموعة الرائعة تتمثل فيها نهضة العمارة الاسلامية فى عصر المماليك اذ دخلت مصر بعد ذلك فى حوزة الدولة العثمانية فكان لوقوعها فى أيدى الأتراك أثر كبير فى تأخر الفنون والعمارة الاسلامية اذ عمد السلطان سليم الى نقل الصناع والفنانين الى الاستانة فأقفرت مصر من الأيدى العاملة التى قام على أكتافها الفن الاسلامى .

ووكالة الغورى بشارع الشيخ محمد عبده تعد نموذجا كاملا لذلك النوع من المبانى المعروف بالوكالات وهى عبارة عن بيوت خاصة بالجزء العلوى ومخازن ودكاكين وحواصل بالجزء السفلى يتخذ التجار من الأول مساكن لهم ومن الثانى أماكن لعرض تجارتهم وخزن سلعهم .

يقع المدخل الرئيسى لهذه الوكالة فى منتصف الواجهة وهو مستطيل الشكل يؤدى الى فناء فسيح مكشوف تحيط به حواصل عديدة يفصلها عنه أروقة فى الجهات القبلية والشرقية والغربية . وتعلو هذه الحواصل مخازن يصعد اليها بسلم بالجهة البحرية الشرقية للفناء يؤدى الى طرقات تعلو الأروقة السفلية . أما البيوت العلوية فلها مدخل خاص بالنهاية الشرقية للواجهة يصعد اليها بسلم يؤدى الى ردهة يتفرع منها طرقات بها مداخل البيوت العديدة . وكل بيت منها يتكون من دورين ودور مسروق تتصل ببعضها بسلم من الداخل . وهذا النظام لحد ما مشابه لنظام تخطيط الفيلات الحديثة . ويتكون الدور الأول لكل بيت من مدخل صغير يؤدى الى صالة صغيرة بها السلم الصاعد الى الدور العلوى ويجاورها مرحاض وتتصل هذه الصالة بقاعة تشرف على الشارع فى البيوت التى تقع على الواجهة وعلى الفناء فى البيوت الداخلية وارتفاع هذه القاعة بارتفاع الدور الأول والدور المسروق أما الدور العلوى فيتكون من غرفتين ومرحاض .

وواجهة هذه الوكالة على جانب عظيم من الروعة وجمال الفن فمدخلها يتوجه عقد ذو مقرنصات غاية فى الدقـة والابداع وتتحلى الواجهة بشبابيك من الخرط الدقيق ومشربيات جميلة التنسيق .

وقد قامت ادارة حفظ الآثار العربية من حوالى ثمان سنوات باخلاء هذه الوكالة من سكانها وأخذت فى صلب الأجزاء المتداعية منها ووضعت برنامجا لاصلاح هذه الوكالة على سنوات متتالية لاعادتها للحالة التى

كانت عليها .وقد تم فى خلال هذه المدة اعادة بناء معظم حواصلها والبيوت العلوية بها ولا تزال أعمال الترميم جارية وسيتم قريبا العمل بها لتكون نموذجا كاملا لوكالات عصر المماليك • ونظرة الى الصور الفوتوغرافية التى أخذت لهذه الوكالة قبل الاصلاح وما هى عليه الآن بعده لتشعر بما بذل فى اصلاح هذه الوكالة واعادتها الى رونقها الأصلى •

محمد مهدى

بعض التحف الهامة من مقتنيات دار الآثار العربية

فى السنتين الأخيرتين

كان لما حصلت عليه دار الآثار العربية من الهبات فى السنتين الآخيرتين أكبر الفضل فى ضم بعض التحف النفيسة الى مجموعاتها . وقد تفضل حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك فاروق الأول ، فأضاف الى ماوهبه للدار من تحف ثمينة تحفة نادرة هى قالب من الرصـــاص (شكل ١) لسك الدنانير ، من العصر العباسى ، نقرأ على أحد وجهيه (الأيمن فى الصورة) :

فى الوسط :

الله

محمد

رسول

الله

المعتضد بالله

وعلى الوجه الآخر :

فى الوسط :

لا اله الا

الله وحده

لا شريك له

عمر بن عبد العزيز

وعلى الحافة :

ضرب هذا الدينر بمدينة الكرج سنة

احدى وثمنين ومايتين

والمعروف أن عمر بن عبد العزيز هذا كان من أسرة أبى دلف وانه حكم بلاد الكردستان من سنة ٢٨٠ الى ٢٨٤ هـ ، فى عهد الخليفة العباسى المعتضد بالله (سنة ٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) • ويوجد بالمكتبة الأهلية بباريس دينار باسميهما ضرب بمدينة اصبهان فى سنة ٢٨٢ هـ •

وكانت هذه الهبة الملكية الكريمة بمناسبة العثور على مجموعة من الدنانير عليها أسماء سلسلة من الخلفاء الفاطميين تبدأ بالمنصور بالله وتنتهى بالمستنصر بالله ، فشاءت ارادة جلالة الفاروق أن يتوج مجموعة الدنانير بهذه التحفة الوحيدة التى لايوجد لها مثيل ، رقم السجل بالدار ١٥٥٠٣

وبمناسبة اقامة معرض الفن الاسلامى بدار الآثار العربية فى شهرى فبراير ومارس سنة ١٩٤٧ ، أهدى جناب المسيوجاك ماتوسيان مجموعة من ١٦ تحفة من الأوانى الخزفية الايرانية ، نرى احداها هنا (شكل ٢) وهى صحن من الفخار الأحمر المطلى من الداخل بطلاء سمنى اللون ، بوسطه صورة طائر مرسوم بخطوط بسيطة خضراء ، ويحيط به شريط من أنصاف دوائر متجاورة • ويعلو ذلك على الحافة مناطق رأسية بها خطوط مستقيمة متقاطعة أو زخرفة نباتية بالتناوب ، ويفصل بين هذه المناطق أخرى بها خطوط ملفوفة على شكل دوائر صغيرة محزوزة فى الطلاء • وهذا الصحن من صناعة آمول فى القرن ٤ — ٦ هـ • (١٠ — ١٢ م) • رقم السجل ١٥٥٨١

وكان لاهتمام أولى الأمر فى وزارة المعارف ورعايتهم أكبر الأثر فى مساعدة الدار على أن تشترى عددا كبيرا من التحف الثمينة ، كان من أهمها المجموعة النفيسة التى كانت ملكا للمسيو رالف هرارى ، وهى تتألف من ٤١١ تحفة من النحاس ، بعضها مكفت بالذهب والفضة ، عدا بعض القطع النادرة من البللور الصخرى والعاج ، فصارت مجموعة الدار من التحف المصنوعة من النحاس تنافس أهم المجموعات الأخرى •

وفيما يلى أعرض بعض التحف الهامة التى اقتنتها الدار أخيرا •

(شكل ٣) قدر من الفخار المطلى باللون الأزرق اللازوردى ، له بدن كروى الشكل عليه شريط عريض من فرع نباتى متعرج تتفرع منه أوراق مهذبة ، بين شريطين آخرين رفيعين من زخرفة هندسية • والزخارف محفورة تحت الدهان الزجاجى فتظهر لذلك غامقة اللون • وهو من صناعة الفسطاط فى أواخر العصر الفاطمى • وهذا القدر كامل لاينقص منه شىء ، ويندر أن نعثر على تحفة كاملة مثل هذه من خزف هذا العصر • رقم السجل ١٥٤٩٠

(شكل ٤) طشت من النحاس المكفت بالفضة ، على جداره من الخارج شريطان من كتابة كوفية بحروف مجدولة الأطراف ، بينهما آخر عريض به جامات مستديرة متجاورة ومزخرفة برسوم آدمية تمثل فارسا يمتطى جوادا ، أو شخصين جالسين يعزف أحدهما على عود ، أو غير ذلك من المناظر ، وعلى الجدار من الداخل شريط به كتابة دعائية بالخط النسخى الجميل •

وهذا الطشت من صناعة الموصل فى القرن السادس الهجرى (١٣ م) • رقم السجل ١٥٦١٥

(شكل ٥) سوار من الذهب من عصر المماليك ، له قفل مستدير عليه رنك السيف • رقم السجل ١٥٤٧١ •

(شكل ٦) حشوة من العاج من صناعة ايران فى القرن السادس الهجرى (١٣ م •) على شكل نجمة ذات أطراف • عليها بالبارز ، على أرضية من زخارف نباتية ، صورة أمير جالس يمسك كأسا ، ويقف الى جانبيه غلامان فى خشوع واجلال ، وبين يديه نرى أسدين يواجه كل منهما الآخر • وهذه التحفة وحيدة لا يوجد لها مثيل • رقم السجل ١٥٦٢٢ •

(شكل ٧) حشوة مستطيلة من الخشب ، من العصر الأموى ، عليها بالبارز رسم سلة ينبثق منها فرعان تتدلى منهما أوراق وعناقيد

العنب . ويظهر فى هذه الزخرفة أثر الفن الهلينستى ، وهى تذكرنا بزخارف قبة الصخرة فى بيت المقدس . رقم السجل ١٥٤٦٨ .

(شكل ٨) قطعة من نسيج الصوف ، عليها صورة حيوان فرس البحر باللون السمنى وزخارف بالألوان البنى والفيروزى والأزرق . وهى من صناعة مصر فى القرن ١ — ٢ هـ . (٧ — ٨ م .) . رقم السجل ١٥٦٢٨ .

(شكل ٩) سجادة من صناعة آسيا الصغرى فى أواخر القرن التاسع الهجرى (١٥ م.) من النوع المسمى (هولباين) ، أرضيتها حمراء وعليها أشكال هندسية مثمنة بالألوان الأبيض والأحمر والأزرق ، ولها اطار من شبه كتابة كوفية باللون الأبيض على أرضية حمراء . واننا نستطيع أن نؤكد أنه لا يوجد مثيل فى العالم لهذه السجادة الثمينة . رقم السجل ١٥٦١٣ .

محمد مصطفى

مراجع تاريخ الزراعة المصرية

عهد محمد على

١٨٠٥ — ١٨٤٨

أولا — المراجع العربية والتركية

١ — وثائق لم يسبق نشرها .

(ا) من قسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك .

بعض هذه الوثائق باللغة العربية والبعض الآخر باللغة التركية وقد عمل قسم المحفوظات التاريخية فهرسا لها على حسب الموضوعات والسنين كما ترجم الوثائق التركية الى اللغة العربية وتوجد الوثائق العربية والتركية فى الدفاتر والمحافظ الآتية :

١ — دفاتر «أوامر» : مقيدة فيها الأوامر الصادرة من الوالى باللغة العربية الى الدواوين والأقاليم .

٢ — دفاتر « ديوان خديوى تركى » : مقيدة فيها لوائح وأوامر باللغة التركية .

٣ — دفاتر « معيــة تركى » : وهى دفاتر قيودات قيدت فيهـا المكاتبات التركية بين « المعية » والدواوين والأقاليم .

٤ — دفاتر « معية عربى » : وهى دفاتر قيودات قيــدت فيها المكاتبات العربية بين المعية والدواوين والأقاليم .

٥ — دفتر «مجلس ملكية » : وفيه بعض اللوائح والأوامر باللغة التركية .

٦ — دفتر « مجموع أمور ادارة واجــراءات » : وفيــه القوانين

واللوائح والأوامر الخاصة بادارة الدواوين والمصالح منذ محمد على الى عصر اسماعيل وقد جمعت على حسب أمر اسماعيل الى مجلس الأحكام فى ٦ شعبان سنة ١٢٧٩ هـ (يناير سنة ١٨٦٣) وترجم ما كان منها باللغة التركية الى اللغة العربية .

٧ — دفتر « مجموع أوامر جنائية » : وفيـه القوانين واللوائح والأوامر الخاصة بالعقوبات منذ محمد على الى عصر اسماعيل وقد وضع هذا الدفتر كسابقه .

٨ — دفتر « مجموع ترتيبات ووظائف » : وفيه القوانين واللوائح والأوامر الخاصة بوظيفة كل شخص وما فرض عليه من خدمة وواجبات منذ محمد على الى عصر اسماعيل وقد وضع هذا الدفتر كسابقه .

٩ — دفتر « مجموع نظام زراعة » : وفيه القوانين واللوائح والأوامر الخاصة بالزراعة منذ محمد على الى عصر اسماعيل وقد وضع هذا الدفتر كسابقه .

١٠ — دفتر « مصلحة الحرير » : وفيه اللوائح والقوانين والأوامر الخاصة بتربية دود القز وبقية الزراعة منذ محمد على الى عصر اسماعيل وقد وضع هذا الدفتر كسابقه وهو تكملة له .

١١ — محافظ « ديوان خديوى تركى » : وبها المكاتبات التركية بين الدواوين والأقاليم وبين الديوان الخديوى .

١٢ — محافظ « معية تركى » : وبها المكاتبات التركية بين الدواوين والأقاليم وبين المعية .

ب — من دار المحفوظات العمومية بالقلعة

١ — الأوامر العلية : وهى مجموعة من أوامر محمد على باللغة العربية مترجمة عن التركية .

٢ — « تقاسيط الجفالك » باسم محمد على وأفراد أسرته .

٣ — دفاتر « الجفالك » : وفيها قيدت تقاسيط الجفالك .

٤ — دفاتر الرزق : وفيها قيدت تقاسيط الرزق .

٥ — دفاتر مكلفات الأطيان .

٦ — دفتر به خلاصة مضبطة المجلس العمومى فى سنة ١٢٥٦ هـ (باللغة العربية) وتحتوى على عدة أمور منها : ١ — عملية الترع والجسور والقناطر ٢ — ما يلزم لخدمة الأراضى ٣ — ابتداء الزراعة ونهايتها ٤ — مقدار تقاوى الأراضى ٥ — اعانة بعض الفلاحين الفقراء ٦ — جلب الهاربين والعمل على راحتهم وعدم ظلمهم ٧ — كيفية أداء مطالب الحكومة من المال والسمن والانفار .

٧ — محفوظات الروزنامة : وبها تقاسيط الالتزام باللغة التركية ومكتوبة بخط القرمة .

حـ — من دار الكتب المصرية

أمر من محمد على الى الشيخ فوده والشيخ محمد حبيب باعطائهما مسموح مصطبة فى سنة ١٢٤٥ هـ .

٢ — وثائق نشرت

١ — أمين سامى : تقويم النيل ج ١ . سنة ١٩١٦ . ج ٢ سنة ١٩٢٨ . ج ٣ المجلد الأول . سنة ١٩٣٦ . نشر المؤلف فى كتابه هذا وثائق كثيرة مرتبة حسب تاريخها .

٢ — فيليب جلاد : قاموس الادارة والقضاء ج ٥ سنة ١٨٩١ . نشر المؤلف فى هذا الكتاب وثائق مختلفة منها تقرير بطرس غالى أحد أعضاء اللجنة المعينة لبحث ما يتعلق بالضرائب العقارية عن أصول حيازة الأراضى فى مصر والضرائب العقارية . وقد رفع هذا التقرير الى اللجنة المذكورة فى فبراير سنة ١٨٨٠ .

٣ — قانون السياسة الملكية (سياستنامة) فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥٣ هـ ومن محتوياته بيان عن واجبات الحكام والموظفين نحو الزراعة والفلاح .

٤ — قانون منتخبات (القانون المنتخب) فى غرة المحرم سنة ١٢٦١هـ : من ٢٠٣ بنود انتخبت من قوانين سابقة منها قانون الفلاحة فى سنة ١٢٤٥ هـ وقانون السياسة الملكية فى سنة ١٢٥٣ هـ وقانون عمليات الجسور فى سنة ١٢٥٨ هـ وبنود صدرت من قبل من الجمعية الحقانية وديوان المالية . وقد طبع القانون فى أول الأمر باللغة التركية فى آخر ذى القعدة سنة ١٢٦٠ هـ من ٢٠٠ بند أضيفت اليها ثلاثة بنود فى غرة المحرم سنة ١٢٦١ هـ وترجم القانون الى اللغة العربية وطبع فى غرة المحرم سنة ١٢٦١ هـ .

٥ — لائحة الفلاح لتعليم الزراعة والنجاح فى شوال سنة ١٢٥٧ هـ (الطبعة الثانية) : وهى المعروفة باسم قانون رجب سنة ١٢٤٥ هـ أو قانون الفلاحة وقد طبع ونشر فى شهر شعبان سنة ١٢٤٥ هـ (الطبعة الأولى) وهذه اللائحة هى دستور الزراعة فى عهد محمد على تشرح الأساليب الزراعية والنظام الزراعى شرحا وافيا وتبين اختصاصات الحكام والموظفين والفلاحين وتقرر عقاب المهمل منهم .

٣ — مراجع باللغة العربية

أحمد أحمد الحته : تطور الزراعة المصرية فى النصف الأولى من القرن التاسع عشر (مخطوط فى سنة ١٩٤٦) وهو بحث مبنى على الوثائق المصرية والأجنبية وغيرها من المراجع .

« الفلاح المصرى فى عهد محمد على » (مخطوط . سنة ١٩٣٤) وهو بحث مبنى على الوثائق المصرية والأجنبية وغيرها من المراجع .

« دراسات تاريخية اقتصادية لعصر محمد على » مجلة كلية الآداب . المجلد الثالث . الجزء الثانى . سنة ١٩٣٥) .

أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على . القاهرة ١٩٣٨ . وفيه التعليم الزراعى وهو بحث مبنى على الوثائق وغيرها من المراجع .

جرجس حنين : الأطيان والضرائب فى القطر المصرى . القاهرة ١٩٠٤ . بحث مبنى على بعض الوثائق .

الشيفالرى : حدائق القاهرة ومتنزهاتها (ترجمة) ١٩٢٤ . جاء المؤلف الى مصر فى سنة ١٨٦٨ والتحق بخدمة الخديوى اسماعيل وظل فيها حتى سنة ١٨٧٨ فكان مفتشا لمزارع الخديوى والحكومة ورئيسا لبستاني السرايات والحدائق الخديوية والحدائق العامة المصرية وقد وصف فى كتابه هذا حدائق القاهرة ومتنزهاتها كما رآها وبين ما بها من أشجار وذكر تاريخ ما أنشىء منها منذ محمد على .

رينى : الكوكب الدرى فى الاستقراء المصرى (ترجمة) القاهرة ١٢٩٠ هـ . كان المؤلف رئيس قلم الاحصاء فى مصر فى عهد اسماعيل وكتابه هذا يتضمن نتيجة احصاء القطر المصرى فى سنة ١٨٧٣ وبه بيان عن ارتفاع مياه الفيضان ومقدار القطن المصدر من الاسكندرية وثمنه فى عهد محمد على .

عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ٤ القاهرة ١٣٢٢ هـ . يذكر المؤلف الحوادث اليومية كما شاهدها وفى كتابه هذا معلومات كثيرة عن الزراعة فى عهد محمد على حتى سنة ١٢٣٦ هـ (١٨٢١ م) وهو من المراجع القيمة .

عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية (ج ٣ عصر محمد على) القاهرة ١٩٣٠ . بحث المؤلف مصر فى عهد محمد على وبين حالة الزراعة فى ذلك العصر معتمدا على بعض المراجع التاريخية .

على مبارك : نخبة الفكر فى تدبير نيل مصر . القاهرة ١٢٩٧ هـ .

كان المؤلف ناظرا للأشغال العمومية وقد ذكر فى كتابه هذا حالة الرى وبعض نواحى الزراعة فى عهد اسماعيل وذكر تاريخ ذلك بالاجمال فى عهد محمد على .

عمر طوسون : البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الأول وسعيد . الاسكندرية ١٩٣٤ . بهذا الكتاب بيان عن البعثات العلمية لدراسة الزراعة .

فيجرى : حسن البراعة فى علم الزراعة (ترجمة) . القاهرة ١٢٨٣ هـ (جزءان) جاء المؤلف الى مصر حوالى سنة ١٨٢٧ وكان أستاذ علم النبات بمدرسة الطب فى عهد محمد على ورئيس الصيادلة وكشاف الأدوية فى عهد اسماعيل . وقد قام برحلات كثيرة فى مختلف أرجاء مصر مما سهل عليه الوقوف على حالة الزراعة وما حصل لها من التقدم منذ مجيئه مصر حتى حوالى سنة ١٨٦٧ . ولذلك كان كتابه هذا ذا قيمة تاريخية .

كلوت : لمحة عامة فى مصر (ترجمة) . (جزءان) القاهرة . جاء المؤلف الى مصر سنة ١٨٢٥ وكان له نصيب فى النهضة الطبية فى مصر وألف كتابه هذا حوالى سنة ١٨٤٠ . وهو من المراجع الأساسية فى الزراعة المصرية وقد ساعده مركزه فى الحكومة المصرية على الحصول على المعلومات والبيانات والاحصاءات اللازمة لكتابة .

محمد شفيق غربال : محمد على الكبير . القاهرة ١٩٤٤ . هذا الكتاب دراسة تحليلية عميقة لمحمد على .

محمد فهمى لهيطة : تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة . القاهرة ١٩٣٨ . ألم المؤلف بالزراعة فى عهد محمد على الماما حسنا دون تفصيل .

يعقوب ارتين : الأحكام المرعية فى شأن الأراضى المصرية (ترجمة) القاهرة ١٣٠٦ هـ . كان المؤلف وكيل المعارف فى مصر من أول ابريل

سنة ١٨٨٤ الى ١١ يوليه سنة ١٨٨٨ وكان من قبل مدرسا لبعض أنجال الخديو سنة ١٨٧٣ وكاتما أوربيا للأسرار في المعية فى سنة ١٨٧٩ . وقد ألف كتابه هذا بالفرنسية وترجم الى العربيــة وهو من المراجع الأساسية فى حيازة الأراضى المصرية .

يوسف نحاس : الفلاح وحالته الاقتصادية والاجتماعية (ترجمة) القاهرة ١٩٢٦ . بحث فى حالة الفلاح فى آخر القرن التاسع عشر مع دراسة اجمالية لحالته منذ آخر عهد البكوات المماليك الى الخديو توفيق . وقد طبع الكتاب فى أول الأمر بالفرنسية فى سنة ١٩٠١ .

٤ — دوريات

الوقائع المصرية : من سنة ١٢٤٤ ﻫ الى ١٢٤٩ ﻫ ومن ١٢٥٦ ﻫ الى ١٢٥٧ ﻫ ومن ١٢٦١ هو الى ١٢٦٤ ﻫ : وفيها الأخبار الرسمية والأوامر والقرارات الحكومية فى أمور شتى منها الزراعة وهى مرجع أســاسى ذو قيمة .

ثانياً — المراجع الأجنبية

١ — وثائق لم يسبق نشرها :

من قسم المحفوظات التاريخية بديوان جلالة الملك .

١ — تقرير هدجسن (Hodgson) وخطاباته : أمرت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وليم هدجسن أحد موظفى سفارتها فى القسطنطينية بالذهاب الى مصر فى بعثة خاصة للبحث فى أحوال البلاد الاقتصادية وعلاقاتها التجارية مع الدول الأخرى رغبة فى الدخول مع محمد على فى علاقات تجارية . وقد وصــل هدجسن الى الاسكندرية فى أغسطس سنة ١٨٣٤ وغادرها فى نوفمبر بعد اتمام مهمته . وفى اثناء وجوده بمصر أرسل خطابات الى حكومته عن حالة البلاد كما كتب تقريرا شاملا قدمه الى وزارة الخارجيــة فى وشنطن فى مارس سنة ١٨٣٥ . وفى

تقريره هذا وخطاباته السابقة ذكر هدجسن معلومات قيمة عن حالة مصر الاقتصادية .

٢ — مكاتبات قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فى مصر الى وزارة الخارجية الأمريكية بوشنطن (باللغة الانجليزية) .

٣ — وثائق نشرت

Bowring (J): Report on Egypt and Candia, (London 1840).

أرسلت الحكومة الانجليزية بورنج الى مصر فى سنة ١٨٣٧ لكتابة تقرير عن حالة مصر اذ ذاك ومكانتها المنتظرة فى المستقبل . وقد سهلت له الحكومة المصرية مهمته وأمدته بالاحصاءات والمعلومات اللازمة كما ساعده قنصل انجلترا العام فى مصر وأمده بما لديه من معلومات . ولما انتهى بورنج من الحصول على مادة تقريره غادر مصر الى بلاده فى أواخر مايو سنة ١٨٣٨ وأخذ فى كتابة تقريره . وقد طبع فى لندن فى سنة ١٨٤٠ وهو من المراجع الأساسية فى الزراعة المصرية فى عهد محمد على .

Cattaui (R) : Le Règne de Mohamed Ali d'après les archives Russes en Egypte. 3 vols. Roma.

جمع المؤلف المكاتبات والتقارير الروسية عن مصر من سنة ١٨١٩ الى سنة ١٨٤٤ ومنها تقرير مفصل عن مصر أرسله دهامل (Duhamel) فى يولية سنة ١٨٣٧ الى بلاده ، وبه قسم مهم عن الثروة النباتية والثروة الحيوانية . وتعد تلك التقارير والمكاتبات من المراجع الهامة فى الزراعة المصرية فى ذلك العهد .

Douin (G): Mohamed Aly, Pacha du Caire 1805-1807 (Le Caire 1926).

Douin (G): Une Mission Militaire Française auprès de Mohamed Aly Pacha. Le Caire 1923.

Douin (G): L'Egypte de 1828 à 1830. (Roma, 1935).

Douin (G): La Mission du Baron de Boislecomte.

جمع المؤلف فى كتبه هذه مكاتبات قناصل فرنسا فى مصر من سنة ١٨٠٥ الى سنة ١٨٠٧ ومن سنة ١٨٢٨ الى سنة ١٨٣٠ ثم مكاتبات

الجنرال بوايبه الذى أرسلته الحكومة الفرنسية فى بعثة عسكرية الى محمد على (١٨٢٤ — ١٨٢٦) ثم تقرير بوالكومت عن مصر سنة ١٨٣٣ . وهذه الوثائق من المراجع الهامة فى الزراعة المصرية فى عهد محمد على .

Driault (E): Mohamed Aly et Napoléon (1807-1814). (Le Caire.)

Driault (E): La Formation de l'Empire de Mohamed Aly de l'Arabie ou London (1814-1823). Le Caire.

Driault (E): L'Expédition du Crète et de Morée (1823-1828).

جمع المؤلف فى هذه الكتب مكاتبات قناصل فرنسا فى مصر من سنة ١٨٠٧ الى سنة ١٨٢٨ وهى من المراجع الهامة .

Politis (A.G.) : Les rapports de la Grèce et de l'Egypte pendant le règne de Mohamed Aly (1833-1849). (Roma).

Politis (A.G.) : Le conflit Turco-Egyptien de 1838-1841 et les dernières années du Règne de Mohamed Aly d'Après les Documents diplomatiques grecs. (Le Caire 1931).

جمع المؤلف مكاتبات قناصل اليونان فى مصر من سنة ١٨٣٣ الى سنة ١٨٤٩ وفى بعضها معلومات تتصل بالزراعة .

٣ — مراجع عن الزراعة

Arminjon (P) : La situation économique et financière de l'Egypte (Paris 1911).

كان المؤلف أستاذا فى مدرسة الحقوق الخديوية بمصر وقد ألم فى كتابه بحالة مصر الاقتصادية والمالية الماما حسنا .

Barois (J) : L'Irrigation en Egypte. (Paris 1887).

كان المؤلف سكرتيرا عاما لنظارة الأشغال العمومية فى مصر وقد ألف كتابه فى سنة ١٨٨٧ وتكلم فيه عن الزراعة والرى اذ ذاك وذكر تاريخ الرى فى عهد محمد على .

Bellefonds (Linant de): Mémoires sur les principaux travaux (Paris 1872-1873).

كان المؤلف مهندسا فى خدمة الحكومة المصرية منذ عهد محمد على

وانتهى من تأليف كتابه سنة ١٨٧٢ وشرح فيه نظام الرى منذ محمد على شرحا وافيا كما عرفه بنفسه . ويعتبر كتابه من المراجع الأساسية فى تاريخ نظام الرى .

Brown (R.H.): History of the Barrage. (Cairo, 1896).

يشرح المؤلف تاريخ القناطر الخيرية منذ نشأتها حتى أواخر القرن التاسع عشر شرحا وافيا .

Cécile : Vue et détails de la Roue à Jontes Creuses ou Machine à Arroser. (Explication des planches des Arts et Métiers) Descr. de l'Egypte T. 12.

بحث عن التابوت فى عهد الحملة الفرنسية .

Cécile : Vues et détails de deux Machines à arroser appellés Chadouf et Mental (Explication des Planches des Arts et Métiers) Descr. de l'Egypte. T. 12

بحث فى الشادوف والمنطال أو النطالة فى عهد الحملة الفرنسية .

Cécile : Vue, Plans et Coupes du Moulin à sucre (Explication des Planches des Arts et Métiers) Descr. de l'Egypte. T. 12.

بحث فى عمل السكر ووصف للمعصرة فى عهد الحملة الفرنسية .

Charles-Roux (F.): La production de coton en Egypte (Paris 1908).

بحث مستفيض فى انتاج القطن فى مصر منذ محمد على الى أوائل القرن العشرين يبين طريقة الزراعة والتصريف ونظام الرى .

Crouchley (A.E.): The Econmic Development of Modern Egypt. (1938).

كان المؤلف أستاذا فى كلية التجارة بجامعة فؤاد الأول . وقد بحث فى كتابه هذا تطور مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر بحثا ألم فيه بالموضوع الماما حسنا دون تفصيل .

Delchevalerie (G) : Flore exotique du jardin d'acclimatation de Guézireh et des domaines de S.A. le Khédive. (Le Caire, 1871).

وصف حديقة النباتات بالجزيرة وما بها من أشجار أجنبية فى عهد اسماعيل وبيان ما بذله محمد على وابراهيم فى أقلمة النباتات الأجنبية .

Delchevalerie (G) : Aperçu Général sur les Végétaux Excotiques Naturilisés en Egypte. (1880)

النباتات الأجنبية التى تأقلمت فى مصر وجهود ابراهيم فى تنميتها :

Delchevalerie (G) : Le parc public de l'Ezbekieh au Caire (1897).

بهذا الكتاب بيان عن حدائق أقلمة النباتات وما بها من نباتات فى عهد محمد على واسماعيل .

Delile (A.R.) : Histoire des Plantes cultivées en Egypte (Descr. de l'Egypte T. 19).

كان المؤلف عضوا فى المجمع العلمى المصرى أثناء الحملة الفرنسية وفى مقالته هذه يتكلم عن الغلات الزراعية فى مصر وطرق زراعتها وقت ذاك

Devilliers: Fabrication de l'huile (Explication des planches des Arts et Métiers)

Descr. de l'Egypte T. 12 بحث عن استخراج الزيت ومعاصر

Gatteschi (Dr.D.): Real Property, Mortgage and Wakf according to Ottoman Law. (London 1884).

نشر الكتاب فى أول الأمر بالايطالية سنة ١٨٦٩ وترجم الى الانجليزية سنة ١٨٨٤ وفيه شرح المؤلف حيازة الأراضى فى مصر فى القرن التاسع عشر حتى أوائل عهد اسماعيل شرحا حسنا .

Girard (P.S.): Mémoire sur l'agriculture, l'industrie et le commerce de l'Egypte (Descr. de l'Egypte T. 17).

كان المؤلف عضوا فى المجمع العلمى المصرى اثناء الحملة الفرنسية وتكلم فى مقاله هذا عن الزراعة والصناعة والتجارة فى مصر وقت ذاك وبحثه أوفى بحث فى الموضوع .

Gliddon (G. R.): A memoir on the Coton of Egypt. (London 1841).

كان المؤلف نائب قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فى القاهرة وهو ابن جون جليدون قنصل الولايات المتحدة الأمريكية فى الاسكندرية والتاجر الانجليزى فى نفس الوقت ويتكلم المؤلف فى كتابه عن انتاج القطن فى مصر فى عهد محمد على .

Jollois: Roue à Pots ou Machine à Arroser (Explication des Planches des Arts et Métiers)

Descr. de l'Egypte T. 12. بحث عن الساقية

Jollois: La Charrue. Machine à battre les Grains. Machine à blanchir le riz. Moulin à farine. (Explication des planches des Arts et Métiers) Descr. de l'Egypte T. 12.

بحوث عن المحراث والنورج ومكينة تبيض الأرز والطاحونة .

Jomard: Four à Poulets (Explication des planches des Arts et Métiers) Descr. de l'Egypte T. 12.

بحث عن معمل تفريخ الدجاج وطريقة التفريخ .

Jomard : Le Distillateur (Explication des Planches des Arts et Métiers) Desc. de l'Egypte T. 12.

بحث عن تقطير عرق البلح وماء الورد والعطر .

Lancret (M-A.) : Mémoire sur le système d'imposition territoriale et sur l'administration des provinces de l'Egypte, dans les dernières années du gouvernement des Mamelouks (Descr. de l'Egypte. T. XI.)

بحث واف عن ضرائب الأطيان وحيازة الأراضى فى مصر . والمؤلف من علماء الحملة الفرنسية .

Martin (P.D.) : Description Hydrographique des Provinces de Beni-Souef et du Fayoum. (Descr. de l'Egypte. T. 16).

المؤلف أحد علماء الحملة الفرنسية ويشرح نظام الرى فى مديريتى بنى سويف والفيوم شرحا وافيا .

Mazuel (J.) : Le sucre en Egypte. (Le Caire 1937).

كان المؤلف مدرسا للغة الفرنسية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ويبحث فى كتابه هذا القصب وصناعة السكر وتجارته فى مصر منذ القدم وبخاصة فى عصر أسرة محمد على وهو بحث له قيمته .

Moursy (M.K.): Evolution historique de Droit de Propriété Foncière en Egypte. (Le Caire 1935).

يشرح المؤلف تطور ملكية الأراضى فى مصر فى القرن ١٩ .

Moursy (M.K.): De l'étendue du droit de propriété en Egypte. (Paris, 1914).

يشرح المؤلف ملكية الأراضى فى مصر وبخاصة فى عصر أسرة محمد على شرحا وافيا .

Néroutsos (Dr.): Aperçu historique de l'organisation de l'Intendance générale sanitaire d'Egypte. (Alexandrie, 1880).

يتكلم المؤلف عن الادارة الصحية فى مصر منذ محمد على الى آخر عصر اسماعيل .

Rozière: Le Vinaigrier (Explication des Planches des Arts et Métiers) Descr. de l'Egypte T. 12.

بحث فى استخراج الخل من العنب ومن البلح .

Rozière et Rouyer: Mémoire sur l'art de faire éclore les poulets en Egypte. (Descr. de l'Egypte T. XI).

المؤلفان من علماء الحملة الفرنسية وبهذه المقالة وصف لمعامل تفريخ الدجاج وشرح واف لعملية التفريخ فى ذلك الوقت .

Sacy (Silvestre de): Du. Droit de Propriété Territoriale en Egypte à l'époque de l'expédition des Français. (Le Caire).

يبحث المؤلف بالتفصيل حيـازة الأراضى فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية والكتاب من المراجع المهمة .

٤ — مراجع عامة

Bernard (S.) : Mémoire sur les monnaies d'Egypte (Descr. de l'Egypte. T. 16).

المؤلف من علماء الحملة الفرنسية ويبحث فى مقاله هذا العملة فى مصر ويعد بحثه أوفى البحوث فى الموضوع .

Boaz (T.) : Egypt. (London, 1939).

بالكتاب بيان عن الحاصلات الزراعية ومقدار الأراضى وعدد السكان والمقاييس والمكاييل والموازين والنقود .

Chabrol (De) : Essai sur les moeurs des habitants modernes de l'Egypte. (Descr, de l'Egypte T. 18).

المؤلف أحد علماء الحملة الفرنسية يصف عادات المصريين اذ ذاك والمأكل والملبس وهو بحث واف .

Charles-Roux (F.) : L'Egypte de 1801 à 1882 (T. VI. Hist. de la Nation Egyptienne édit. par Hanotaux. Paris 1936).

بحث حديث فى تاريخ مصر من ١٨٠١ الى ١٨٨٢ ومما جاء به شرح النظام الاقتصادى فى عهد محمد على .

Dodwell (H.) : The Founder of Modern Egypt (1931).

بحث فى محمد على ويحتوى على وصف مختصر لحالة الزراعة فى مصر فى عصره .

Estève : Mémoire sur les finances de l'Egypte (Descr. de l'Egypte T. 12). كان المؤلف مدير عام الايرادات فى مصر فى عهد الحملة الفرنسية ويذكر فى مقاله هذا ضرائب الأطيان بالتفصيل .

Guémard (G.): Les Réformes en Egypte (1760-1848). Le Caire, 1936.

يذكر المؤلف معلومات عن بعض الغلات الزراعية معتمدا على بعض المراجع

Lane (E. W.) : An account of the Manners and Customs of the Modern Egyptians مكث المؤلف فى مصر مدة وتركها سنة ١٨٣٥ وقد وصف المصريين فى كتابه هذا وصفا حقيقيا .

Marcel et autres : L'univers Pittoresque (Paris 1877).

فى الكتاب معلومات فى بعض الحاصلات الزراعية فى عهد محمد على

(Marmont) : Voyage du Maréchal duc de Raguse 1834-1835. (Paris, 1837) vols. 3, 4.

زار المؤلف مصر سنة ١٨٣٥ وكان قد رآها من قبل أثناء الحملة الفرنسية وقد ذكر فى كتابه معلومات متفرقة عن بعض الحاصلات الزراعية .

Mengin (F.): Histoire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed Ali (Paris, 1823) 2 vols.

المؤلف معتدل فى آرائه وكتابه قيم به معلومات كثيرة عن الزراعة .

Mengin (F.): Histoire Sommaire de l'Egypte sous le gouvernement de Mohamed Ali (1823-1838) paris 1839.

Paton (A.) : A history of the Egyptian Revolution (London 1870). vol. 2.

زار المؤلف مصر سنة ١٨٤٤ وتكلم فى كتابه عن ادخال بعض الحاصلات الزراعية فى مصر .

Politis (A.) : L'Hellenisme et l'Egypte Moderne (Paris 1830).

بين المؤلف الدور الذى قام به اليونانيون فى خدمة الزراعة المصرية معتمدا فى ذلك على بعض المراجع التاريخية .

Reynier : De l'Egypte après la bataille d'Heliopolis (Paris 1802). المؤلف من رجال الحملة الفرنسية ومما جاء فى كتابه هذا حيازة الأطيان فى مصر .

Toussoun H.H. Prince Omar) : Mémoire sur les Finances de l'Egypte. T. VI.

يبين المؤلف محصول الفدان من الحاصلات ومقدار الأراضى الزراعية .

Wilkinson (G.): Modern Egypt and Thebes (1843). 2 vols.

زار المؤلف مصر وفى كتابه هذا معلومات عن الغلات الزراعية والنقود والموازين والمكاييل والمقاييس .

٥ — دوريات

Artin (J.): Essai sur les causes du Renchérissement de la vie Matérielle au Caire dans le Courant du me siècle (Mém. Inst. Egypt. T. V. F. II). بحث قيم فيه معلومات متفرقة متصلة بالزراعة .

Boinet (A.): L'Accroissement de la population en Egypte (Bul. Tust. Egypt. 1886 pp. 278 et seq.) بحث واف فى السكان

Colin : Lettres sur l'Egypte. Administration territoriale du Pacha. (Rev. de deux Mondes. T. XIII.)

بحث قيم عن حيازة الأراضى والنظام الزراعى .

Grégoire : De la culture du coton en Egypte (Mem. Inst. Egypt. 1862).

جاء جرجوار الى مصر سنة ١٨٣٤ وزرع فيها القطن منذ ١٨٣٩ ومقالته هذه بحث قيم فى زراعة القطن بمصر منذ عهد محمد على الى آخر عهد سعيد .

Ninet (J.) : La culture du coton en Egypte et les filateurs Anglais (Rev. de deux Mondes, 1875).

بحث قيم فى زراعة القطن فى مصر منذ عهد محمد على الى أواخر عهـد اسماعيل .

Pellion: Egypte. المؤلف يدافع عن نظام محمد على الزراعى ويشرحه .
(Rev. de l'Orient, 1875)

Regny (E. de) : Notice sur l'introduction de la culture du coton en Egypte et sur Jumel. (Bul. Inst. Egypt. 1876).

بحث قيم فى ادخال زراعة قطن جوميل فى مصر .

Worms (Dr.) : Recherches sur la constitution de la propriété territoriale dans les Pays Musulmans (Journal Asiatique, I, 1843).

بحث قيم فى حيازة الأراضى .

أحمد أحمد الحتة

تاريخ التعليم فى عصر محمد على

مصادره ووثائقه

يحتل « التعليم فى عصر محمد على » المكان الأول من اصلاحات العاهل الكبير . فقد احتفل له طوال حكمه ، وبذل له الكثير من المال والفكر ، وحشد له الجهود ، ووفر له أقصى ما هيأت له أسبابه ووسائله المحدودة من عوامل النجاح والتدعيم . لهذا حرصت أكثر الكتب والبحوث التى نشرت عن عصر محمد على ،على أن تخصص جانبا منها للحديث عن مدارس محمد على وبعثاته والنظم التعليمية واللوائح المدرسية .. الخ ، تستوى فى ذلك كتب المعاصرين أو المتأخرين ، من تلك المراجع (العامة) التى تؤرخ لمصر الحديثة أو لعصر محمد على وحده ، أو من تلك المراجع (الخاصة) التى تؤرخ للتعليم فى مصر .

وليس قصدنا هنا أن نذكر — على سبيل التعداد — مصادر تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، فقد فعلنا هذا فى مكان آخر[1] ، ولكننا نهدف الى وضع دراسة نقدية لأهم هذه المصادر مع تحليل لأهم الوثائق المنشورة وغير المنشورة .

المصادر العامة :

ولا شك أن فى مقدمتها ما كتبه نفر من الموظفين الأجانب — ومن الفرنسيين خاصة — فى حكومة محمد على ، وفى الادارة التعليمية على وجه الخصوص . وفى طليعتهم الطبيب كلوت بك الذى ارتبط اسمه

(١) انظر قائمة المراجع فى كتابنا « تاريخ التعليم فى عهد محمد على » .

طويلا بالتعليم الطبي فى عهد محمد على وعباس وسعيد . وقد ترجم كتابه — لمحة عامة الى مصر — الى اللغة العربية ونشر فى مجلدين كبيرين .

واذا كان حديث كلوت بك عن التعليم فى عهد محمد على جاء موجزا ، على غير ما كنا نتوقعه من مؤسس أقدم مدرسة عالية بمصر ، فان له تقارير كثيرة أفاض فيها بالحديث عن مدرسة الطب التى أنشأها وقام على التدريس فيها وقتا طويلا . ومن تلك التقارير التى طبعت فى عهد محمد على :

"Compte rendu des travaux de l'école de Médecine."

وقد نشر فى باريس فى ١٨٣٣ .

وله تقرير قدمه للدكتور بورنج مبعوث الحكومة الانجليزية لمصر فى سنة ١٨٣٨ ونشره بورنج فى تقريره عن مصر .

وفى تقارير كلوت بك عن التعليم الطبي فى عهد عباس وسعيد اشارات كثيرة الى مدرسة الطب فى عهد محمد على . ومن هذه التقارير :

1. Relation des phases parcourues par l'instruction médicale en Egypte sous les gouvernements d'Abbas et de Said Pacha.
2. Compte rendu de la réouverture de l'école de médecine du Caire.
3. Compte rendu de l'examen des élèves de l'école de medecine.

وأكثر تفصيلا فى موضوع « التعليم فى عصر محمد على » الكتاب الذى وضعه زميل كلوت بك ومنافسه — بل خصمه — وهو الطبيب البيطرى هامون ، وكتابه عن عصر محمد على من الكتب الهامة فى تاريخ ذلك العصر .

Hamont : l'Egypte sous Méhémet Ali, 2 vols. Paris. 1843.

والدكتور هامون مؤسس فن التطبيب البيطرى بمصر ، خدم طويلا فى دواوين الجهادية والزراعة والمدارس . وقد أنشأ مدرسة الطب البيطرى ، واشترك فى اللجنة التى نظمت التعليم فى مصر فى سنة ١٨٣٦ ، وقد أفاض فى الحديث عن المنشئات العسكرية والتعليمية التى اتصل بها

وأورد معلومات كثيرة طريفة عن المدارس وادارتها وحياة التلاميذ بها . على أن « هامون » كان مضطرب الأعصاب ، يعتقد دائما أن الدسائس تحاك من حوله ، فسأء رأيه فى حكومة محمد على كلها ، وامتلأ كتابه بالنقد اللاذع ، بل بالتجريح الشديد لكل الاصلاحات التى نهض بها محمد على . ومن هنا ينبغى على الباحث فى عصر محمد على أن يصطنع الحذر فى تناول المعلومات المستفيضة والآراء التى امتلأ بها كتاب هامون .

أما الدكتور برون Perron الذى كان أستاذا بمدرسة الطب ومديرا لها فى سنة ١٨٤٥ فقد ترك لنا رسائل كان يرسلها لصديق له بباريس ، وقد نشرها يعقوب أرتين باشا فى سنة ١٩١١ . والدكتور برون كان — فوق عمله الرسمى — مستشرقا يعنى بالاتصال بشيوخ الأزهر والوراقين ، ويدرس الأدب العربى فى مظانه القديمة ، ولهذا جاء اهتمامه فى رسائله بهذه الناحية أكثر من اهتمامه بناحية التعليم والمدارس .

ومن العسكريين الذين عملوا فى تنظيم جيش محمد على ومؤسساته التعليمية العسكرية الضابط الفرنسى بلانا "Planat" وقد ترك لنا كتابا عن نهضة مصر فى عهد محمد على .

Planat : Histoire de la Régenération de l'Egypte. Paris, 1826.

واذا كان « بلانا » قد غادر مصر مبكرا قبل أن يشهد ازدهار النهضة التعليمية بين سنتى ١٨٣٦ و ١٨٤٠ فان المعلومات التى أوردها عن مدرسة أركان الحرب — أو مدرسة الرجال على حد تعبير أوراق ذلك العصر — وهى المدرسة التى أنشأها بلانا وقام بالتدريس فيها — معلومات ثمينة .

أما الفريق الآخر من الكتاب الأجانب المعاصرين وهم الذين أقاموا فى مصر زائرين أو عملوا بها مبعوثين فانا نضع على رأسهم فيلكس منجان F. Mengin الموظف فى القنصلية الفرنسية بالقاهرة . وقد نشر ثلاثة

مجلدات فى وصف حكومة محمد على وآثارها ، حاول فيها أن تؤلف تاريخا لمصر بين سنتى ١٧٩٨ و ١٨٣٨ ومنجان كما يبدو من كتابته يحرص على أن يكون نزيها ، مع ميل الى محمد على وتقدير كريم لاصلاحاته .

ولا يقل عن منجان فى هذه الناحية مورييه Mouriez بمجلداته الخمسة فى تاريخ محمد على ، وقائمة المصادر (العامة) عن عصر محمد على زاخرة بأسماء كثيرة ، نذكر منها سانت جون وسكوت وبكلر مسكاو وغيرهم كثيرون إلا أن جانب (التعليم) فى هذه المصادر (العامة) لا يعدو أن يكون أحد الجوانب التى حفل بها عصر محمد على وصورها هؤلاء المؤلفون ، لهذا لم يلق منهم عناية خاصة .

ونستطيع أن نلحق بهذه القائمة من المصادر العامة التقرير القيم الذى وضعه دكتور بورنج عن مصر وكريت فى سنة ١٨٣٨ . ولا يزال تقرير بورنج — بما حواه من وصف شامل وتقارير فرعية واحصائيات — من أهم الوثائق المنشورة لذلك العهد ، وهو لا يزال لهذا مرجعا أساسيا لكل باحث فى تاريخ مصر فى عصر محمد على . والمعلومات التى أوردها عن التعليم فى هذا العصر تعد من الدرجة الأولى فى الأهمية ، فقد اتصل بمدير ديوان المدارس ونظار المدارس وأساتذتها واستكتبهم التقارير وجمع الاحصائيات ولخص اللوائح .

المصادر الخاصة :

ونقصد المصادر التى تؤرخ للتعليم فى عصر محمد على أو تصف ناحية من نواحيه . وقد نشرت فى عهد محمد على تقارير ولوائح لا غنى للباحث عن الرجوع اليها . وقد ذكرنا تقارير كلوت بك عن مدرسة الطب وأشرنا الى التقارير التى قدمت للدكتور بورنج ونشرها هذا فى تقريره العام . ونضيف الى ذلك التقرير أو البحث القيم الذى وصفه العالم الفرنسى Jomard جومار الذى قدم الى مصر فى باريس خدمة كبيرة

بالاشراف على البعوث التى كانت ترسلها من الطلاب للدراسة بفرنسا .
وقد نشر جومار هذه الدراسة الممتعة عن « المدرسة المصرية بباريس »
فى الصحيفة الأسيوية

Jomard : Ecole Egyptienne de Paris (Journal Asiatique, 2e. série, II. 1828.)

وقد نشر جومار هذه الدراسة بعد أن مضى على البعثة فى باريس عامان ، ذكر جومار أسماء المبعوثين وما يعرفه عن أعمارهم وجنسياتهم ودرجة ثقافتهم ونواحى اختصاصهم ونتائج امتحاناتهم ، وتنبأ لكثير منهم بالنبوغ ، نذكر منهم رفاعة رافع ومصطفى مختار وأرتين وأسطفان وغيرهم .

ومن الوثائق الهامة التى نشرت فى عصر محمد على عن التعليم فى عهده اللوائح التى وضعت لتنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ ، وقد نشرت النسخة الفرنسية من هــذه اللوائح بباريس فى تاريخ غير مذكور . وسنعود الى هذه اللوائح لنحللها بعد قليل .

وموضوع « تاريخ التعليم فى مصر » من الموضوعات التى لا يمكن أن نقول انها لم تكن مطروقة ؛ فقد كان يستهوى من وقت لآخر الباحثين من مصريين وغير مصريين ، وطبيعى أن يكون عصر محمد على نقطة البداية لكل مؤرخ للتعليم الحــديث بمصر . على أن من الحق أن نقــول ان النصيب الذى كان يبذل فى هذه المؤلفات لتاريخ التعليم فى عصر محمد على ليس من القوة والعمق بما يتكافأ وأهمية هذا العصر ، وأهمية (التجديد) الذى بدأه محمد على فى مجال العلم والتعليم . ولاشك أن هذا يرجع — قبل كل شيء — الى ما كان من قلة المادة المنشورة وخاصة لوثائق ذلك العصر .

ولا شك أن مؤلف دوربك Dor عن التعليم فى مصر (باريس ١٨٧٢) يقع فى الطليعة من مكتبة تاريخه ، ليس من حيث السبق التاريخى فقط ،

وانما من حيث المادة والفكرة والدراسة البيداجوجية . فادوار دور عالم سويسرى فى مسائل التربيــة والتعليم ، زار مصر مستشفيا فى سنة ١٨٧٢ ، ولكن « غريزة المعلم » دفعته لأن يدرس نظام التعليم فى مصر ، فجاء كتابه ثمرة هذه الدراسة ، واجتذب الكتاب نظر حكومة اسماعيل الى المؤلف فأسندت اليه رياسة التفتيش . وبذلك أتيح لدور بك أن يشارك مصطفى رياض ناظر المعارف فى ذلك الوقت فى خطتـه الاصلاحية على أساس لائحة رجب ١٢٨٤ التى كان قد وضعها على مبارك .

والفكرة المهيمنة على دور بك فى كتابه وتقاريره وجهوده فى الادارة التعليمية فى عهد اسماعيل ان مصر لا تملك نظاما قوميا للتعليم ، فالتعليم فى الكتاتيب الأهلية القديمة أصبح لا يساير التطور الجديد ، والتعليم الحديث (الأولى) الذى أدخله محمد على غريب عن البلاد ، فينبغى أن تتجه الجهود الى اقامة نظام قومى للتعليم يستمد مقوماته من كلا النظامين التعليميين : القديم والحديث . وقد تتبع دور فى كتابه الأصول الأولى لهذين النظامين ووصف معاهد كل منهما ، ونقد أساليب التعليم المتبعة فيها . واذا كان النصيب الذى خص عصر محمد على من ناحية المعلومات جاء ضئيلا الا أنه قيم بتوجيهاته ونقداته .

وانقضت مدة طويلة حتى نشر يعقوب أرتين باشا كتابه عن « التعليم فى مصر » بالفرنسية فى باريس فى سنة ١٨٨٩ . ولاشك فى أن أرتين باشا كان من أوائل الذين خدموا هذا الموضوع بالسبق الى الكتابة فيه فضلا عن خدمته للتعليم نفسه اذ مضى جانبا كبيرا من حياته الوظيفية وكيلا لنظارة المعارف .

حاول أرتين باشا أن يضع كتابه على أســاس تاريخى بيداجوجى ، ولاشك أنه استفاد كثيرا من مؤلف دور بك فى موضـوعه . درس أرتين باشا التعليم الاسلامى عامة وفى مصر خاصة ، وحاول أن يوازن

بين التعليم فى العصور الوسطى فى الشرق وفى الغــرب ، ثم انتقل أرتين باشا الى دراسة الأساس الآخر الذى يقوم عليه التعليم فى مصر : وهو التعليم الحديث أو التعليم « على الطريقة الأوروبية » كما يدعو أرتين . وفى رأيه أن هذا اللون من التعليم أدخله محمد على فى مصر دون اعداد سابق ، وانما قام على ادارة وقدرة رجل عبقرى . وفصل أرتين باشا بعض الشىء الكلام على مجهودات حكومة محمــد على لتنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ ولقد كان أبوه وعمه عضوين فى اللجنة التى نهضت بهذا العمل .

ولأرتين باشا ملاحظات لها قيمتها — وان كنا لا نسلم بصحتها جميعا — منها تعليقه على عجز حكومة محمد على عن أن تنشىء فى مصر تعليما فنيا عاليا لعدم توافر الأساتذة الأكفاء ونقص المؤلفات العربية ومنها أيضا نقده للنظام الذى وضع للطلاب المصريين بباريس من حيث جمعهم فى (مدرسة مصرية) أنشئت لهم بباريس مما يحول اندماجهم فى الأوساط الغربية وحذقهم لغاتها .

وفى الملحق الثالث من كتابه أورد أرتين باشا قــوائم بالمدارس الابتدائية والتجهيزية والخصوصية التى أنشئت فى عهد محمد على وسرد تاريخ انشائها والغائها وأسماء نظارها ومديريها وهى معلومات نشرها أرتين باشا للمرة الأولى ، وهى — على قيمتها — تحتاج الى ضبط كثير فى ضوء وثائق ذلك العصر .

وكلما قرب أرتين باشا فى بحثه من العصر الذى عاش فيه اتسع أمامه مجال الدرس وغرزت المادة .

ولأرتين باشا كتاب آخر ، نشره بالفرنسية والعربية فى القاهرة فى سنة ١٨٩٤ وعنوانه : « القول التام فى التعليم العام "Considération sur l'Instruction publique" وهو كتاب — أو تقرير كبير — يشرح حالة التعليم فى مصر فى ذلك الوقت ويصف العلاج لنواحى النقص القائمة

وتزدان مكتبته « تاريخ التعليم فى مصر » بمؤلف شيخ المعلمين المرحوم أمين باشا سامى « التعليم فى مصر » (القاهرة ١٩١٧) وهو الكتاب الذى لا يزال مرجعا أساسيا لكل باحث فى هذا الموضوع ، وخاصة من سنة ١٨٦٣ ، أى من الأيام الأولى من عصر اسماعيل ، وهى التى قربت من (جيل) أمين سامى ، فشهدها تلميذا ثم مدرسا فعضوا بارزا فى الادارة التعليمية ، حيث توافينا ذاكرة الباشا القوية ومذكراته وأوراقه (١) وعمله الطويل فى وثائق الدولة بالمعلومات الغزيرة فى تاريخ معاهد التعليم وبرامج الدراسة بها وحياة الطلاب فيها . على أنا نستدرك فنقول انهذه المعلومات الغزيرة عرضت فىصورة جافة لا تنبض بالحياة. كما أن من المؤسف حقا أن عصر محمد على كان من (البعد) بحيث لم (يلحق) ذاكرة الباشا ومذكراته فجاءت معلوماته عن هذا العصر بمثابة (التمهيد) السريع لحديث مستفيض عن العصور التالية .

وفى ملحقات الكتاب سرد أمين باشا سامى — فيما سرد — قوائم بالمدارس التى أنشئت فى عهد محمد على مع بيان التطورات التى حدثت لها ، وهى بيانات لا تختلف كثيرا عما أورده أرتين باشا فى ملحقات كتابه .

ومن المؤلفات التى تعالج ناحية معينة من «تاريخ التعليم فى مصر» كتاب أرمنجون فى التعليم الدينى فى مصر

Arminjon : L'enseignement, la doctrine et la vie dans les Universités musulmanes d'Egypte. Paris, 1907.

وأرمنجون أقام بمصر وقتا يعمل أستاذا بمدرسة الحقوق ، وقد شاقه منظر الطلاب فىالأزهر منكبين على الدرس ، فزار الجامع الأزهر وتحادث مع أساتذته وطلابه واطلع على كتبهم ووقف على أساليبهم فى الدرس والتدريس ووازن بين هذا كله وما يعرفه من أساليب التعليم فىالجامعات

(١) تجدطائفة منهذه الأوراقمودعة بمتحفالتعليم التابعلوزارة المعارف.

الأوروبية بالعصور الوسطى ورد كل فرع من فروع التعليم الى أصوله التاريخية ، وسجل هذه الدراسة فى كتابه هذا عن الجامعات الاسلامية بمصر وهى الأزهر والمعاهد الدينية بالاسكندرية وطنطا ودسوق ودمياط. واذا كان الجزء الوصفى من كتابه شائقا فان الجانب التاريخى منه جاء ضعيفا [(١)] . وهو فى موضوعنا بالذات غير ذى عناء كبير .

ومن تلك المؤلفات الكتاب القيم الذى نشره المغفور له الأمير عمر طوسون فى سنة ١٩٣٤ عن : «البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد» . وقد ذكر سموه أنه اعتمد فى بحوثه على دفاتر دار المحفوظات العمومية بالقلعة ، ولكنه آثر ألا يذكر شيئا عن تلك الدفاتر من حيث النوع أو الرقم . ولا شك فى قيمة المعلومات التى سردها سموه عن أعضاء البعثات وتقصى تاريخ حياتهم بقدر المستطاع وبيان الخدمات التى أدوها للدولة ، فهى معلومات رائعة يكمن وراءها جهد بالغ . على أنه قد أتيح لنا — بزيادة التوفر على البحث فى وثائق القلعة وعابدين — أن نكتمل ونضبط ونصحح بعض المعلومات الواردة فى كتاب (البعثات العلمية) [(٢)] .

وفى خلال ذلك كان العمل فى تنظيم الوثائق المصرية وتنسيقها ووضعها فى متناول الباحثين قد تقدم كثيرا ، حتى اذا حلت الفترة بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ أضيفت الى مكتبة «تاريخ التعليم فى مصر» أربعة كتب باللغات الثلاث : العربية والانجليزية والفرنسية . ومن (المصادفة) أن يكون مؤلفو هذه الكتب جميعا من المعلمين على اختلاف جنسياتهم وثقافتهم .

---

(١) من أمثلة (الخلط) التاريخى الذى وقع فيه أرمنجون ما ذكره فى ص ٤١ من أن المشايخ فى سنة ١٨٠٥ عزلوا السيد عمر مكرم (باشا مصر) وولوا بدله محمد على !

(٢) يمكن الرجوع لبيان هذه التحقيقات والمراجعات الى الفصول التى عقدناها عن البعثات العلمية فى كتبنا عن تاريخ التعليم فى مصر .

وهذه الكتب هى : —

١ — أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى عصر محمد على . وقد أتمه مؤلفه فى ١٩٣٦ ونشره بالقاهرة فى ١٩٣٨ .

2. J. Heyworth-Dunne: An introduction to the history of Education in Modern Egypt. London, 1938.

3. J. Williams : Education in Egypt before British control. Birmingham. 1939.

4. Ibrahim Salama : L'enseignement islamique en Egypte. Son Evolition, son influence sur les programmes modernes. Le Caire. 1939.

ويلحق به مجلد آخر عن المصادر بعنوان :

Bibliographie analytique et critique touchant la question de l'enseignement en Egypte depuis la période des mameluks jusqu'à nos jours. Le Caire. 1938.

والآن فلنلق نظرة مقارنة على هذه الكتب .

ان « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » هو أول كتاب — بل هو فيما نعلم الكتاب الوحيد — الذى يكرس كله لتاريخ التعليم فى عصر محمد على وحده ، فضلا عن اعتماده الكلى على الوثائق العربية والتركية المودعة بقسم المحفوظات التاريخية بعابدين ، كما يبدو من حرص المؤلف على ذكر الدفاتر والمجلات التى رجع اليها بأرقامها وتاريخها ومكانها .. الخ وايراده نماذج فى ملاحق كتابه . وهكذا وجد المؤلف نفسه أمام (مادة خام) غزيرة تناولها بالبحث للمرة الأولى ومنها كون عناصر الصورة التى عرضها للتعليم فى عصر محمد على . وهكذا انفسح المجال أمام المؤلف للتحقيقات الواسعة والتفصيلات الدقيقة والبحوث العميقة التى اكتظ بها هذا الكتاب الضخم ، حتى حظيت كل ناحية من (التعليم فى عصر محمد على) بحظها من الدراسة الشاملة . وانا نعتقد — ومن الصعب حقا أن يتحدث مؤلف عن آثاره ! — أن أبرز نواحى الكتاب :

١ — سياسة محمد على التعليمية .

٢ — توضيح تطور التعليم فى عصر محمد على وبيان مراحله الأساسية فى ١٨٣٣ ، ١٨٣٦ ، ١٨٤٠ ، ١٨٤٨ .

٣ — تفصيل الكلام على كل معهد من معاهد التعليم وحياة التلاميذ المدرسية ونظم امتحانهم وعطلتهم .. الخ .

٤ — بيان وجوه التأثير المتبادل بين التعليم القديم ممثلا فى الأزهر والمكاتب الأهلية والتعليم الحديث ممثلا فى مدارس الحكومة ومكاتبها .

٥ — بعض تحقيقات فى موضوع البعوث العلمية فى عهد محمد على .

أما الأستاذ هيورث — دن الأستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن فقد نشر كتابه الذى قصد به أن يكون « مقدمة » لتاريخ التعليم فى مصر الحديثة فى سنة ١٩٣٨ بعد أن قضى سنوات بمصر مشتغلا بالتدريس وبغير التدريس وفى خلال ذلك كان يهتم ببعض المخطوطات العربية القديمة ويجمع المادة الغزيرة التى ألف منها كتابه الذى نحن الآن بصدده ، والذى انتظم دراسة واسعة لعصر حافل — بل لعصور حافلة — امتدت من القرن الثامن عشر الى دخول الانجليز مصر فى سنة ١٨٨٢ . ولاشك أن الأستاذ دن قد بذل جهدا كبيرا فى اعداد مادة كتابه وتنسيقها وربط أجزائها بعضها ببعض وعرضها ، وقد حرص المؤلف على أن يسند كل حقيقة ذكرها الى مرجعها من الكتب والتقارير والاحصائيات . كما أنه لم يهمل تماما الناحية الوثائقية ، فحاول أن (يدخلها) فى كتابه الكبير . ولكن من الواضح أن المؤلف لم يبذل فى هذه الناحية من الجهد مثل ما بذله فى بحث الكتب والتقارير المنشورة .

واذا كان هذا القصور فى ناحية البحث الوثائقى لا تبدو خطورته فى العصور التالية لحكم محمد على وخاصة فى عصر اسماعيل الذى يزخر بالتقارير والمنشورات والاحصائيات المنشورة وكلها مادة غزيرة للبحث ،

فان لهذا القصور — لاشك — خطورته بالنسبة لعصر محمد على الذى لا يمكن بأى حال من الأحوال تأريخ التعليم فيه — بل تأريخ أية ناحية منه — دون الرجوع الى الوثائق العربية والتركية والأجنبية واستقرائها فى دقة وصبر وأناة . وهذا فيما نرى النقص الواضح فى كتاب الأستاذ دن وفى أكثر الكتب الأخرى التى أرخت للتعليم فى مصر ونشرت فى السنوات العشر الأخيرة . على أن من الانصاف أن نضيف الى ذلك أن الأستاذ هيورث دن قد بذل جهده ليعوض هذا (النقص) بالتوفر على بحث المادة المنشورة والافادة منها فى تأليف كتابه .

أما مستر وليمز فقد جذبته — هو الآخر — مهنة التعليم بمصر الى محاولة تأريخ التعليم فيها ، فنشر فى سنة ١٩٣٩ كتابه الموجز الذى وقف به — كما فعل زميله دن — عند احتلال الانجليز مصر وسيطرتهم على التعليم فيها . ولكن كتاب وليمز — على ايجازه الشديد قد تناول موضوع التعليم فى مصر فى مختلف عصورها ، مبتدئا بمصر الفرعونية ومنتهيا بمصر فى عهد الخديويين . ولهذا لم نتوقع أن يظفر عصر محمد على من هذا كله بأكثر من تلك الصفحات التى أوجز فيها وليمز ما رددته الكتب (العامة) عن مدارس محمد على وبعثاته . فنحن اذن أمام (مجمل) يقدم صورة عامة لتطور التعليم فى مصر ، وهو من هذه الوجهة لا يخلو من فائدة .

والدكتور ابراهيم سلامة صاحب « التعليم الاسلامى بمصر » و « مراجعه » معلم قديم ، جمع بين الثقافة العربية الاسلامية التى تلقاها فى الأزهر ودار العلوم والثقافة الغربية التى تلقاها بأوربا ، وحاول أن يؤلف بينهما فى ذلك الكتاب ، أو تلك (الرسالة) التى نوقشت أخيرا فى جامعة باريس وأجيزت لدرجة الدكتوراه فى الآداب . ومن هذه الناحية ينبغى أن يؤخذ هذا البحث بعين الاعتبار . على أن هذه الناحية بعينها موضع النظر ، فهذا بحث وضعه صاحبه — عن موضوع عربى —

بلغة أجنبية ، وتقدم به لجامعة أجنبية وناقشه وأجازه أساتذة من الأجانب ، لا نحسب أنهم يعرفون عن موضوع البحث أكثر مما يعرفه صاحبه ، ولا نظن أن صاحب البحث قد أفاد منهم كثيرا ، الا فيما قد ينتصح به عن أستاذه من أساليب البحث وطرائقه . وهذه الاعتبارات كلها — فيما يبدو — هى التى شكلت رسالة الدكتور سلامة على النحو الذى ظهرت به . وكنا نود لو اختار الدكتور لكتابه عنوانا أبسط وأكثر انطباقا لحقيقة الكتاب وموضوعاته . وانا نعتقد — دون أن ندخل فى التفصيلات اذ ليس هذا مكانها — أن الدكتور سلامة لو نشر كتابه بالعربية لراجع مادته فحذف منها ما (زاد) على موضوع الكتاب وغيّر منها ما لايلائم القارىء (العربى) أو يتفق وحاجاته .

أما الجزء الخاص بالتعليم فى عصر محمد على فقد حوى معلومات كثيرة ينقصها كثير من الضبط والتحقيق وخاصة فى موضوعين : موضوع انشاء الادارة التعليمية وموضوع البعوث العلمية ، كما أن تصوير سياسة محمد على فى التعليم جاء غامضا ، وقد جاء ذلك فيما نعتقد نتيجة لضعف الأساس التاريخى الذى يجب أن يقوم عليه البحث ، فضلا عن القصور الواضح فى ناحية البحث الوثائقى على الرغم من تلك الاشارات المبعثرة فى هوامش الكتاب الى وثائق من محفوظات عابدين . وانا لنعتقد أن زيادة التوفر على البحث فى الوثائق المحفوظة كان قمينا بأن يغير بحث الدكتور سلامة كله من أساسه . بل انا نذهب الى أبعد من هذا فنتمنى لو أن الدكتور ابراهيم سلامة كان قد كرس الجهد العنيف الذى بذله فى تأليف هذه الرسالة — ذات الموضوعات المتعددة دون انسجام — لبحث تاريخ الأزهر ، وهو التاريخ الذى لا يزال — حتى بعد ظهور « التعليم الاسلامى فى مصر » — غير مكتوب .

تحليل لأهم الوثائق :

وليس غرضنا فى هذا المقال أن ندل الباحث على الوثائق التى ينبغى

الرجوع اليها لكتابة « تاريخ التعليم فى عصر محمد على » فقد فعلنا هذا فى مكان آخر [1]. ولكننا نكتفى بأن نشير الى طائفة من تلك الوثائق لايمكن كتابة هذا التاريخ الا بالرجوع اليها .

وهذه الوثائق هى :

أولا : اللوائح والنظم التى وضعت لتنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ ، وقد وضعت باللغة الفرنسية أولا ثم ترجمت الى اللغة العربية ، والنسخة الفرنسية طبعت فى مجموعة على حدة .

ثانيا : أوامر محمد على الى الدواوين التى كانت تتبع لها مدارسه وهى : المعية والجهادية والمدارس . فهذه الأوامر تقدم لنا صورة من سياسة محمد على فى التعليم واهتمامه الدائب بمسائله . وهذه الأوامر تجدها فى دفاتر المعية ودفاتر مجلس الملكية ومحافظه .

ثالثا : مضابط مجلس (أو شورى) المدارس : وهى تحتوى على تقارير مستفيضة وضعها أعضاؤه عن حالة التعليم فى مصر قبل أن ينظم طبقا للوائح ١٨٣٦ والكيفية التى تم بها هذا التنظيم . وهذه المحاضر تجدها فى الدفاتر والمحافظ التركية لديوان المدارس .

رابعا : المكاتبات المتبادلة بين ديوان المدارس وفروعه ومدارسه ، وهى تقدم لنا صورة من نشاط ديوان المدارس وحالة المدارس فى ذلك العصر وحياة التلاميذ فيها والنظم التى كانوا يخضعون لها والكتب التى كانوا يقرءون ومواد الغذاء والأدوات المدرسية ... الخ . وهذه المكاتبات تجدها مسجلة فى الدفاتر العربية لديوان المدارس .

والآن نحلل جانبا من تلك الوثائق التى نعتقد أنها تقدم — فى مجموعها — صورة لطور التعليم فى عهد محمد على . وهى :

أولا : الوثائق المتعلقة بحركة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦

(١) انظر كتابنا : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٧٥٥ ـ ٧٧٥

ثانيا : لوائح سنة ١٨٣٦

ثالثا : تقرير باعادة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٤٠ — ١٨٤١

أولا : الوثائق المتعلقة بحركة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ (١) :

يخطىء من يظن أن نشاط حكومة محمد على فى ميدان التعليم لم يبدأ الا بانشاء ديوان المدارس فى سنة ١٨٣٦ ، اذ الواقع أن المدارس التجهيزية والخصوصية التى عاشت الى نهاية عصر محمد على أو بعد عصر محمد على انما أنشئت قبل ١٨٣٦ ، أما المدارس الابتدائية (أو مكاتب المبتديان) فقد أنشىء أكثرها فى سنة ١٨٣٣ . فلما وضعت لوائح ١٨٣٦ ألغى عدد منها ونظمت المكاتب الباقية طبقا لتلك اللوائح . فهذه اللوائح اذن لم تنشىء مدارس أو مكاتب جديدة — وان استخدمت فيها أحيانا كلمة الانشاء — وانما نظمت مدارس ومكاتب كانت قائمة .

وأهم وثيقة توضح الأهداف والخطوات التى سارت فيها عملية (التنظيم) هذه كتاب وجهته المعية الى السرعسكر (القائد العام للجيش ابراهيم باشا) فى ١٩ رمضان ١٢٥١ (٢) . ويؤخذ من هذا الكتاب مايلى :

١ — ان حركة التنظيم بدأت بصدور أمر من محمد على بتشكيل (لجنة عامة) للنظر فى شئون المدارس رئيسها مختار بك وأعضاؤها فريق من مديرى المدارس الخصوصية وأساتذتها . وهذه اللجنة ليست دائمة ، وانماهى مؤقتة تنتهى بانتهاء المهمة التى وكلت اليها : وهى وضع اللوائح لتنظيم التعليم . وهذه حقيقة يجهلها كثير ممن كتبوا ويكتبون فى تاريخ التعليم فى مصر ، اذ أنهم يخلطون بين هذه اللجنة — ذات المهمة المؤقتة — ومجلس (أو شورى) المدارس ، وهو الهيئة الأخرى الدائمة

(١) المصدر السابق ص ٩٣ — ١٢٢

(٢) سجل ٢١٢ (عابدين) ص ٢٩ رقم ١٧٧ فى رمضان ١٢٥١ . وقد نشرنا ترجمة هذا الكتاب فى الثانى من كتابنا ص ٦٧٥ — ٦٧٦

التى كان انشاؤها نتيجة لمداولاته وقرارات اللجنة الأولى .

٢ — نظرت اللجنة العامة الى التعليم على اختلاف معاهده على أنه يؤلف نظاما واحدا مترابط الأجزاء يعد الطالب فى مراحل ثلاثة : ابتدائية وتجهيزية وخصوصية . ووضعت اللجنة لائحة لكل مرحلة ، كما وضعت لائحة عامة تنتظم أمر المدارس جميعا .

٣ — وبوضع تلك اللوائح انتهت مهمة اللجنة العامة لتنظيم التعليم ، ولكن رؤى أن المدارس والمكاتب تحتاج بعد تنظيمها الى هيئة فنية تقوم على الاشراف عليها وخاصة خلال السنوات الأولى من تنظيمها . وهذه الهيئة الفنية لم تكن متوافرة فى ديوان الجهادية التى كانت المدارس تابعة له . وبذلك ظهرت الحاجة ماسة الى تنظيم العلاقة بين ديوان الجهادية والمدارس ، فأمر محمد على « بتشكيل لجنة من حبيب أفندى والباشا ناظر الجهادية والبك الخزينة دار ومختار بك ناظر مجلس الملكية وحسين بك خزينة دار الجهادية فاجتمعوا بديوان المعاونة لتنظيم ماهو معلوم من تبعية هذه المدارس لديوان الجهادية » .

٤ — « وبعد بحث طويل فى هذا الصدد — يستطرد كتاب المعية الى ابراهيم باشا — وافقوا على اقامة لجنة مؤلفة من بضعة رجال من خريجى مدارس أوروبا لتتولى المحافظة على النظام المزمع قبوله ولتبحث فيما سيعرض عليها دواما من أمور القراءة والكتابة والتعليم والتعلم الخاصة بالمدارس » .

وهذه اللجنة « الدائمة » التى أنشئت لتعرض عليها الشئون الفنية الخاصة بالمدارس هى ما عرفت بعد ذلك باسم « شورى المدارس » أو « مجلس المدارس » . وقد شكل برياسة مختار بك وثلاثة أعضاء دائمين وينضم اليها أعضاء استشااريون كلما دعت الحاجة . والمطلع على محاضر جلسات شورى المدارس يقدر الجهود الرائعة التى بذلها أعضاؤه

لتنظيم المكاتب والمدارس ورفع مستواها ، مع الاستعانة بالهيئات الفنية والادارية التى أنشئت وأهمها هيئات التفتيش الفنى والصحى .

٥ — ولكن معاهد التعليم ظلت بعد انشاء شورى المدارس تابعة — من الوجهة الادارية التنفيذية — لديوان الجهادية ، واستفحل النزاع بين الهيئتين ، ورفعت التقارير عن هذا النزاع الى محمد على فرأى أن المدارس قد اكتملت شخصيتها وتعقدت شئونها بحيث يحق لها الآن أن تتحرر من ديوان الجهادية ، فيكون لها ديوان خاص « تبصم فيه قراراتها » . وبفحص السجلات التركية لديوان المدارس ظهر أن الأمر الرسمى لمحمد على بانشاء ديوان المدارس قد صدر فى أوائل شهر ذى القعدة (أو على التحديد بين اليومين الأول والخامس منه) من سنة ١٢٥٢ (فبراير ١٨٣٧) . أما شورى المدارس فقد ظل قائما بعد ذلك نحو ثلاثة أشهر ثم وقفت جلساته ، واستمر ديوان المدارس قائما حتى ألغى فى حكم سعيد باشا ، ثم أعيد تشكيله فى أول حكم اسماعيل باشا .

ثانيا — لوائح سنة ١٨٣٦ :

وضعت هذه اللوائح — كما قلنا — اللجنة العامة التى شكلت برياسة مختار بك لتنظيم التعليم فى سنة ١٨٣٦ ، وقد وضعت أولا باللغة الفرنسية ثم ترجمت الى التركية والعربية ، ووزعت على المدارس لتسير طبقا لها . وقد أعيانا البحث عنها كاملة فى محفوظات عابدين والقلعة والمكتبات العامة ، فلم نجد منها الا لائحة للتعليم الابتدائى فى كتيب بدار الكتب المصرية يضم نصا تركيا وآخر عربيا ، كما عثرنا على النص العربى أو الترجمة العربية بأحد دفاتر مجموعة الترتيبات والوظائف بمحفوظات عابدين[1] ، وكذلك عثرنا بدار الكتب المصرية أيضا على قوائم مطبوعة بمرتبات

(١) نشرنا الترجمة العربية للائحة التعليم الابتدائى فى كتابنا ص ٦٨١ — ٦٨٥

موظفى وتلامذة المدارس وتعييناتهم وملابسهم وأدوات غذائهم ومنامهم الخ[1] .

وقنعنا — حين كنا نضع كتابنا فى تاريخ التعليم فى عصر محمد على — بما وجدناه من تلك اللوائح فى ذلك الوقت ، مع الاستفادة من الملخصات التى أوردها هامون وبورنج وغيرهما للوائح الأخرى المفقودة ، وبعد أن تم نشر الكتاب فى سنة ١٩٣٨ عثرنا على نسخة من المجموعة الفرنسية للوائح ١٨٣٦ كاملة فى مكتبة المجمع المصرى ، وها نحن نعرض لهـا بالتحليـل :

عنوان المجموعة : «لوائح وافق عليها وزير المعارف العمومية لتنظيم المدارس فى حكم محمد على»[2]. وهى مطبوعة بباريس فى تاريخ غير مذكور. وتبدأ بمقدمة قصيرة — لا تخلو من الخطأ[3] — عن أمر محمد على بتشكيل لجنة لتنظيم المدارس القائمة ، فقدمت اليه بعد عمل دقيق تلك اللوائح التى انتظمتها تلك المجموعة . وأعربت تلك المقدمة — ونحن نجهل كاتبها — عن الأمل فى أن تؤتى تلك اللوائح أطيب النتائج ، ولأهميتها جمعت فى تلك الكراسة خشية «ضياعها أو اهمالها» .

قامت تلك اللوائح على قاعدتين أساسيتين حرصت اللجنـة على تطبيقهما فى كل ناحية :

الأولى : أن تخضع المدارس جميعا من لون واحد لنظام واحد فى كل شىء : فالكتب التى يقرؤها تلاميذ الفرقة الواحدة واحدة وكذلك الغذاء الذى يتناولونه واللباس الذى يلبسونه والامتحانات التى يؤدونها .. الخ.

(١) نشرنا هذه القوائم فى كتابنا ص ٦٨٦ — ٦٩٢

(٢) وعنوان المجموعة بالفرنسية :

Réglements approuvés par le Ministre de l'Instruction Publique pour l'organisation des écoles sous Mohammed Ali.

(٣) جاء فى المقدمة أن أول مدرسة أنشئت بمصر هى مدرسة الطب بأبى زعبل فى سنة ١٨٢٧ وليس هذا بصحيح .

الثانية : أن تخضع معاهد التعليم جميعا لاشراف شورى المدارس ، وبذلك كانت تلك اللوائح الأساس الذى قام عليه النظام . المركزى فى ادارة التعليم ، حتى اذا أنشىء ديوان المدارس ورث هذا السلطان المركزى عن شورى المدارس وتمسك به وتوسع فى تطبيقه .

تنقسم تلك المجموعة من اللوائح الى أقسام :

القسم الأول : لائحة عامة لتنظيم التعليم من ٥٧ مادة : ٣٩ مادة منها تنظم مراحل التعليم الثلاثة مع بيان أغراض كل مرحلة ومعاهدها ، مع أحكام عامة عن ضرورة توحيد الكتب الدراسية وسائر النظم المدرسية التى يخضع لها الطلاب .

ثم تنتقل اللائحة الى الحديث عن «المجلس الأعلى للمعارف العمومية» أو «شورى المدارس» وله «الادارة العامة والاشراف الأعلى على جميع المدارس المدنيـة والعسكرية ، فى كل النواحى الادارية والتأديبيـة والتعليمية وذلك بتطبيق اللوائح وتفقد المدارس فى زيارات دورية وغير دورية والنظر فى التقارير التى يرفعها اليه نظار المدارس ومديروهـا ورياسة لجان امتحانها » .

ويلى ذلك قـوائم بمرتبات موظفى وتلامذة المـدارس وتعييناتهم وملابسهم ... الخ . وقد أشرنا الى عثورنا على نسخة من تلك القوائم باللغة العربية ونشرها فى ملحقات كتابنا .

القسم الثانى : لائحة التعليم الابتدائى من ٢٧ مادة . ومما يلفت النظر أن النسخة الفرنسية التى نحن بصددها — وهى الأصل — لا تختلف كثيرا عن الترجمة العربية السقيمة التى عثرنا عليها على حدة بدار الكتب ومحفوظات عابدين ، الا أنها أدق تعبيرا وأكثر تنسيقا .

نظمت اللائحة أمر التعليم الابتدائى بمصر ، فعينت عدد مدارسـه ومكاتبه بالقاهرة والأقاليم وحددت عدد طلابها وكيفية قبـولهم ومدة

الدراسة ومواردها وهيئة التدريس والادارة بها والعقوبات التأديبية ونظام التفتيش والامتحانات .

القسم الثالث : لائحة التعليم التجهيزى من ٣٦ مادة : جرت على منوال لائحة التعليم الابتدائى، فحددت عدد المدارس التجهيزية والغرض منها وسنوات الدراسة ومواردها وهيئات التدريس والادارة والتطبيب بها والامتحانات .. الخ ، بما يتفق وارتفاع مستواها عن مستوى المدارس الابتدائية ، فأدخلت النظام العسكرى بها ، وقسمت الطلاب الى سرايا وبلوكات وأقامت منهم رؤساء يساهمون مع الضباط فى قيادة الطلاب والاشراف على سلوكهم ، وأنشأت فى المدرسة مجلسا للتعليم والتأديب من مدير المدرسة وبعض أساتذتها .

ثالثا — الوثائق الخاصة باعادة تنظيم التعليم فى سنة ١٨٤٠ — ١٨٤١ [1] :

فى سنة ١٨٤٠ بدت الحاجة ماسة الى اعادة النظر فى النظام التعليمى على ضوء التجربة التى مرت بها معاهد التعليم منذ نظمت للمرة الأولى فى سنة ١٨٣٦ وعلى ضوء حاجات البلاد الجديدة : اذ وضح أن مكاتب ومدارس المبتديان أخذت تخرج من التلاميذ أكثر من حاجة المدرسة التجهيزية ، كما وضح أن دوائر الحكومة عجزت عن أن تستنفد كل خريجى المدارس الخصوصية ، لهذا اتجهت الرغبة الى وضع نظام جديد للتعليم يحقق ما تنشده الحكومة من اقتصاد لمالها من ناحية و (حبك) للنظام التعليمى من ناحية أخرى .

وأهم الوثائق المتعلقة بالتنظيم الجديد وثيقتان تدلان على المراحل التى تمت فيها حركة التنظيم هذه :

الأولى : هى الأمر العالى الذى أصدره محمد على فى ٢٤ شعبان

(١) انظر كتابنا : تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ١٢٣ ـ ١٣٦

سنة ١٢٥٧ (١) بالموافقة على « الترتيب الذى وضعته اللجنة المنعقدة بحضور نجلنا الباشا السرعسكر لأجل ديوان المدارس ... وان القرار الصادر منها بالغاء مكاتب المبتديان الكائنة بالأقاليم وبالسيدة زينب ومدرسة الموسيقى الغاء تاما والغاء مدرسة التجهيزية أيضا وتوزيع التلاميذ على آلايات البيادة والسوارى والطوبجية وارسال الضباط الى ديوان معاونتنا لاستخدام من يصلح منهم فى المصالح ورفت بعض الخدمة من المدارس الأخرى ... »

ويضيف « هامون » الى ذلك أن الالغاء شمل أيضا المدارس الخصوصية ، « وقد نتج عن الغاء المدارس احساس عميق مؤلم » . وهكذا ألغيت معاهد التعليم جميعا .

على أنه يبدو أن قرار الحكومة بالغاء المدارس لم يكن نهائيا ، وأنها انما كانت تهدم لتبنى من جديد ، اذ سرعان ما شكلت لجنة أخرى بديوان المدارس ، كان من أعضائها ستة من أعضاء اللجنة الأولى التى نظمت التعليم فى سنة ١٨٣٦ ، لهذا ليس غريبا أن نرى لجنة سنة ١٨٤١ تحتفظ للنظام التعليمى بالأسس العامة التى أقيم عليها فى سنة ١٨٣٦ .

أكبت اللجنة الجديدة على العمل ، فأخذت « تنظر فى أمر المكاتب الابتدائية والمدرسة التجهيزية الملغاة جميعا فيقتصر منها على فتح العدد الذى تمس الحاجة الى فتحه سواء فى القاهرة أو فى الأقاليم باعتبار هذه المدارس أصلا وأساسا للمدارس الخصوصية » . وراحت تبحث المدارس الخصوصية مدرسة بعد أخرى على ضوء حاجة الدولة الى خريجيها وعلى ضوء ما حققته المدرسة من نتائج . وخرجت اللجنة من هذه الدراسة الدقيقة بتقرير قيم نال موافقة ولى النعم [١] ، وهو (الترتيب) الذى نظم التعليم فى مصر فى السنوات الباقية من عصر

---

(١) نشرنا نص هذا الأمر العالى فى ملحقات كتابنا ص ٧٣٨ .

محمد على (١٨٤١ — ١٨٤٨) . والحق أن عمل اللجنة كان شاقا والتيارات التى تتجاذبها متباينة : فبينما كانت تضع نصب أعينها « التحرز من ابتداع زائد النفقات » تمشيا مع السياسة العامة للدولة فى ذلك الوقت ، كانت فى الوقت نفسه جد حريصة على أن يظل النظام التعليمى الذى حشدت له الجهود وبذلت الأموال سنين طويلة سليما قائم الأركان .

احتفظت اللجنة بمراحل التعليم : الابتدائية والتجهيزية والخصوصية ، ولكنها قصت أطرافها فأنقصت عدد طلاب المدارس الخصوصية ، فسرح الفاشلون منهم وصرف بعض أساتذتها ، باستثناء مدرسة المهندسخانة التى رأت اللجنة أن « من البداهة أنه كلما تقدمت البلاد زادت حاجتها الى المهندسين ، فلم تر من الحكمة أن تجعل هذه المدرسة أصغر وأشد اختصارا مما هى عليه الآن » . وأبقى على المدرسة التجهيزية بعد أن أنقص عدد تلامذتها وضمت الى مدرسة الألسن كقسم منها . أما المكاتب الابتدائية فهى التى أصابتها الضربة حقا : فقد رأت اللجنة أن تغلق جميعا ، عدا مدرسة ابتدائية بالقاهرة وأربعة مكاتب بالأقاليم بحيث تكفى فقط لامداد المدرسة التجهيزية بالتلاميذ . وهكذا اختفت « مكاتب المبتديان » الأميرية وتركت المجال للمكاتب الأهلية القائمة منذ قديم .

وتمشيا مع خطة الاقتصاد أنقصت مرتبات التلاميذ فى سائر المدارس وأعيد النظر فى تعييناتهم . وأعادت اللجنة تنظيم ديوان المدارس ، فنسقت أقلامه وأنشأت قلما جديدا للترجمة من خريجى مدرسة الألسن .

أحمد عزت عبد الكريم

الأدب المصرى القديم
أو
أدب الفراعنـــة

تأليف حسن سليم

(جزءان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٥)

عندما نشر الأستاذ ارمان فى عام ١٩٢٤ مقاله عن بردية امنمؤوبى التى احتوت على حكم نقلها العبرانيون الى لغتهم وكانت الأصل الذى نقلوا منه أجزاء من كتاب سفر الأمثال لسليمان الحكيم ، تلفت العالم كله يسأل عن الأدب المصرى القديم ويسأل عما تركه من أثر فى آداب العالم ، وطلب الناس من علماء الآثار المصرية أن يحدثوهم عن هذا الأدب وعن حياة أصحابه . فأخذ العلماء يعيدون نشر ما سبق أن ترجمه غيرهم من ملفات البردى ويترجمون مالم يسبق نشره وأثبتوا للعالم أنه كان للمصريين القـدماء أدب جامع ، لا يقل عن آداب الأمم الأخرى ، أدب لم يوضع لخدمة غرض دينى كما كان الأمر مع أكثر الأمم القديمة ، وانما كان أدبا مليئا بالجمال الفنى ، يتذوقه الخاصة ويتوق الى معرفته عامة الناس ، وهو قبل كل شىء أدب نشأ على ضفاف النيل استقى صـفاءه ومعانيه من طبيعة مصر وطبيعة أهلها وعكس فى مرآته الكثير من صور حياتهم الخاصة .

ولو أردنا سرد تاريخ اعتناء علماء الآثار بالأدب القـديم لوجب علينا أن نعود الى أوائل أيام حل رموز اللغة الهيروغليفية فى القرن الماضى ولكن يكفى أن نشير الى مجهود بعض العلماء الأفذاذ أمثـال بروكش وماسبرو وجريفث ثم نقف طويلا أمام كتاب الأستـاذ ارمان

فى الأدب المصرى القديم الذى ظهر بالألمانية عام ١٩٢٣ وظهرت ترجمته الانجليزية عام ١٩٢٧ . فقد قسم ارمان أدب المصريين الى فصول وعصور ووضع ترجمة صحيحة للنصوص المصرية وأصبح كتابه منذ ذلك العهد هو المرجع الأول لكل مشتغل بأدب قدماء المصريين . ولم يقف مجهود علماء الآثار عند ذلك بل ظهرت بعد كتاب ارمان عشرات المقالات وعدة كتب جليلة الشأن تحوى ترجمة بعض البرديات مثل بردية « شستر بيتى » وبرديه امنمؤوبى وكتاب برستد الذى سماه « فجر الضمير » . ولكن أمثال هذه الكتب والمقالات لا تصـل اليها الا أيدى الباحثين ولذا أصبحت الحاجة ماسة الى اصدار كتاب جديد فى الأدب يحوى جميع ما استجد بعد نشر كتاب ارمان ولكن مرت السنوات ولم يصدر هذا الكتاب فى أى لغة من اللغات .

ومن الغريب أن مصر مهبط هذا الأدب ومصدر وحيه ظلت لا تعرف عنه شيئا اللهم الا بعض مقالات هنا أو هناك فيها محاولة لترجمة بعض القصص المصرية من احدى اللغات الأجنبية وكان أكثر الذين قاموا بهذا العمل من غير المتخصصين فى علم الآثار أو الذين لم تكن لديهم الثقافة الكاملة فى الموضوع فجاءت أعمالهم بعيـدة عما يرجوه علماء الآثار وعما يرجوه المشتغلون بالأدب .

وأراد الأستاذ سليم حسن بك أن يسد هذا النقص فى المكتبة العربية فطبع كتابه فى الأدب المصرى القديم ، وليس الأستاذ سليم بك غريبا على الآثار المصرية فهو من أبر أبنائها وأحد أساتذة الجيل الجـديد المشتغل بالآثار ويرجع عهده بدراستها الى خمسة وثلاثين عاما كما أن اهتمامه بموضوع الأدب يرجع بلاشك الى وقت بعيد وهو يقول فى مقدمة كتابه انه بدأ ترجمة كتاب ارمان فى عام ١٩٣١ ، ولهـذا رحب جميع المشتغلين بالآثار وجميع من يهمهم الوقوف على آداب القدماء أو مظاهر حضارتهم بظهور هذا الكتاب .

ففى الجزء الأول مهد لكتابه بلمحة عن التاريخ المصرى ليسهل على

غير الأثريين فهم العصور المختلفة ، كما ألقى نظرة عامة على الأدب وكيفية نشأته والكتابة وتطورها والمغنون والقصصيون وأثرهم . وبدأ بعد ذلك بالقصص فترجم جميع ما نعرفه من القصص القديمة مقدما لكل منها علخص وذاكرا بعد ذلك المصادر المختلفة لمن يريد التوسع فى دراستها كما اعتنى من آن لآخر بالتعليق على بعض النقط فى الهامش لشرح ما يصعب على غير المشتغلين بالآثار . ولو أردنا التعــليق على القصص المصرى لاحتجنا الى صفحات ويكفى أن نقول أننا نلمس فى هذا القصص خيالا خصبا كما يلقى علينا دروسا ثمينة عن علاقة مصر بغيرها من أمم الشرق القديم مثل قصة سنوهيت وهربه من مصر الى فلسطين ، أو قصة الغريق التى يرى فيها أكثر العلماء الأصل الذى نقل عنه اليونان وظهر بعــد ذلك فى كتابات العرب تحت اسم قصة السندباد البحرى ، أو قصة الاستيلاء على يافا أو قصة سياحة « ونأمون » الذى سافر من مصر لاحضار خشب الأرز من جبال لبنان فلم يلازمه التوفيق .

فاذا وصلنا الى باب الحكم والتأملات رأينا معينا لا ينضب من حكم قيمة تدلنا على المثل العليا التى كان يضعها قدماء المصريين أمام أعينهم ، ومن ذا الذى لا يقف معجبا أمام حكم « بتاح — حتب » التى يرجع تاريخها الى عام ٢٦٥٠ ق.م . تقريبا أو تعاليم « كاجمنى » أو نصائح « آنى » أو تعاليم « أمنمؤوبى » التى وضعها مؤلفا لتكون مرشدا فى الحياة العامة والسلوك . لقد اشتهر المصريون بالحكمة وافتخر اليونان بأنهم اقتبسوا من أبناء وادى النيل الحكمة والفلسفة . وليس هناك من شك فى أن المصريين القدماء هم أول من وضع المثل العليا للأخلاق ، ونحن اذ نقرأ هذه الحكم نرى فيها صدى حيا لما فى نفوسنا . ولا عجب فان أسس مكارم الأخلاق فى جميع الأزمنة والعصور واحدة وهى فى الوقت ذاته صورة لما فكر فيه حكماء عاشوا فى البيئة المصرية ، وقد تتغير

الشعوب وتزول الأمم ولكن البيئة باقية ولها الأثر الأكبر على حياة الأفراد .

وينتهى الجزء الأول من الكتاب باعطاء نماذج للرسائل التى كان يتداولها المصريون ومساجلة أدبية بين كاتبين يريد كل منهما أن يظهر تفوقه على الآخر فيحاول النيل من معلوماته . فأحدهما يعير صاحبه بأنه لا يستطيع تقدير وزن مسلة أو تمثال ضخم كما يعيره أيضا بأنه غير قادر على عمل حساب للمئونة اللازمة لحملة عسكرية ، ثم يضع له امتحانا دقيقا فى معرفة بلاد سوريا ولبنان وماهى الطرق الموصلة اليها لأنه كانت من مهام وظائف الكاتب أن يصطحب الجيوش الخارجة للحرب وعليه تموين الجنود وتوزيع ما يلزمهم من ملابس وأسلحة ومأكل فى أوقاتها .

وخصص المؤلف الجزء الثانى من الكتاب للدراما والشعر وفنونه ، وفيه نرى أن الدراما المصرية ظهرت فى عالم الوجود قبل الدراما اليونانية بما يقرب من ثلاثة آلاف سنة وأنها بلا شك وليدة البيئة المصرية وشبت ونمت من تربتها . فكانت للمصريين تمثيليات يقوم بها الكهنة فى بعض الأعياد الدينية وأهمها وأشهرها تمثيلية « حورس وست » التى يلبس فيها الكهنة ملابس الآلهة فيتحادثون ويمثلون وتظهر على المسرح فرق المغنيات والراقصات والموسيقيات لتزيد من بهجة الحفلات ، ونعلم من متون هذه الدراما وغيرها أن المتفرجين كانوا يشتركون مع الكورس فى غناء بعض الأناشيد . وفى ختام هذا الفصل عقد المؤلف موازنة بين الدراما المصرية والدراما اليونانية وأظهر ما بينهما من شبه أو اختلاف .

وفى باب الأغانى والأناشيد ترجم المؤلف بعض أجزاء من متون الأهرام وحلل معانيها ومراميها وأظهر للقارىء أهميتها كصورة للحياة الدينية والدنيوية التى عاشها المصريون فى أوائل القرن الثلاثين قبل الميلاد . وثنى بعد ذلك بالأناشيد الدينية للآلهة المختلفة فى عهد الدولتين

الوسطى والحديثة فاذا وصل الى عهد اخناتون أعطانا صورة لهذه الحركة الدينية التى رمت الى التوحيد فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ثم عقد بين أنشودة اخناتون لالهه أتون والمزمور ١٠٤ مقارنة لاثبات أن واضع المزمور نقل عن تلك الأنشودة .

يعتقد بعض الناس أن المصريين القدماء كانوا يعيشون لأجل آخرتهم فقط ولكن هذه التهمة هى آخر ما يمكن أن نصف به هؤلاء الناس فانهم منذ بدء حضارتهم الى أن دالت أيامهم لم ينسوا نصيبهم من الدنيا بل انهم بالغوا فى بعض الأحيان فى طريقة حصولهم على هذا النصيب كما نرى ذلك واضحا من حياتهم الخاصة التى صوروها على جدران مقابرهم أو ما نقرؤه مسطورا فى كتاباتهم ويكفى أن يقرأ الانسان ما خلفوه من شعر غزلى ليدرك هذه الحقيقة ، فقد خلف المصريون مجموعة غنية من شعر غزلى بين عذراء وحبيبها وهو شعر مملوء بالرقة والعذوبة وفيه يتفتح خيال الشاعر على أسمى ما فى الطبيعة من معان . فنرى الحب على صورته العفة الرقيقة وقد صقلتها حياة الحقل فيناجى الشاعر ما فيه من نبات ومن زهر وما يغرد على غصون أشجاره من طيور لأنه يرى فى نضرة الزهر وسعادة الطير ما يذكره بحبيبة قلبه .

ويأتى بعد فصل الشعر الغزلى فصل المدائح التى قيلت فى الملوك لتخليد أعمالهم وحروبهم ثم ينتهى الكتاب بفصل عن الشعر الدنيوى فيعطينا بعض أغانى العمال ثم أغانى الولائم وآخرها أغنيتان مسطرتان على جدران أحد قبور طيبة أولاهما تدعو الى طرح الهموم والاستمتاع بكل ما فى الحياة من جمال واسترضاء الحبيبة وسماع الموسيقى ووضع العطور وحمل الزهور لأن الحياة قصيرة وسيأتى اليوم الذى نصل فيه الى الآخرة التى يتردد الشاعر القديم فى الايمان بها فيقول عن أرض الموتى انه « لم يعد منها بعد » . ويلوح أن هذه الأغنية الداعية الى الشك فى البعث أفزعت المؤمنين به فوضعوا أغنية أخرى كتبوها فى القبر

نفسه للتقليل من شأن ملذات الحياة واعلاء شأن ما فى عالم الموتى من خلود وأمن ودعة .

والآن بعد أن استعرضنا أبواب الكتاب يجدر بنا أن نقف قليلا لايضاح بعض النقط :

أولا — لا شك أن المكتبة العربية — والمصرية بنوع خاص — كانت فى أشد الحاجة اليه ، وقد أسدى مؤلفه يدا مشكورة الى الأدباء والمؤرخين .

ثانيا — قد نجح المؤلف فى نقل النصوص الى العربية ، وسواء أكانت بعض أجزائه مترجمة من النص المصرى رأسا أو عن ترجمة لها نقلا عن ارمان أو برستد أو غيرهما فان الترجمة فى مجموعها لابأس بها ويمكن الاعتماد عليها .

ثالثا — ترجم المؤلف للمرة الأولى فى اللغة العربية بعض البرديات المصرية نخص منها بالذكر أوراق « شستر بيتى » وحكم « أمنمؤوبى » وبذل مجهودا كبيرا فى التعليق على النقط التى يصعب فهمها على غير المشتغلين بالآثار . وكنا نود أن يكون هذا التعليق والشرح على نطاق أوسع ليزداد الانتفاع من الكتاب .

والكتاب فى مجموعه مجهود مشكور ومرجع جديد للمشتغلين بعلم الآثار ولمن يريدون دراسة الأدب المصرى ، فلقد سبقت مصر أمم العالم فى اكتشاف الزراعة والكتابة والموسيقى والكثير من الصناعات ، وضربت بسهم وافر فى كل ما يختص بتقدم الجنس البشرى ، وتركت لنا أيضا تراثا أدبيا عظيما كان دائما موضع عناية علماء الغرب وأدبائه وموضع اعجابهم . ونحن اذ نجد اليوم بين أيدينا مؤلف الأستاذ سليم بك حسن فى هذه الصورة من الاتقان لا يسعنا الا تهنئة أستاذنا الفاضل على هذا المجهود .

أحمد فخرى

تراث العرب

« تراث العرب » : أشرف عليه الدكتور نبيـه أمين فارس ، فى ى + ٢٧٩ صفحة من قطع الثمن ، وبه ١٢ لوحة بها ١٨ شكلا من الفن الاسلامى . مطبعة جامعة برنستون فى برنستون ، نيوجرسى بأمريكا ، سنة ١٩٤٤ .

فى هذا الكتاب القيم صورة شعبية لطائفة من المحاضرات التى ألقيت صيف سنة١٩٤١ فىالدورة الصيفية لقسم الدراسات العربية والاسلامية بجامعة برنستون ، وهى تتناول جملة من المسائل التى تتصل بالمرافـق الروحية المختلفة للتراث العربى ، حتى انها لتعطى صورة واضحة للوجوه الرئيسية لهذا التراث . وما قصد منها أصحابها اعطاء صور اجماليـة بقدر ما قصدوا الى معالجة مسائل جزئية أو بيان ملامح عامة ، وعلى هذا الأساس يجب أن نقدر هذا الكتاب . فاذا رأينا فصلا كالفصـل الذى عقده رتشرد اتنجوزن Richard Ettinghausen عن «طابع الفن الاسلامى» (من ص ٢٥١ — ص ٢٦٧) لا يكاد يتناول الا نقاضا مجملة متناثرة تتصل بتأثير روح الاسلام فى الفن الاسلامى ، فما هذا الا لأنه اقتصر على هذه الناحية ، وان كانت معالجته اياها يعوزها شىء من العمق والاتصال فى الأفكار .

ولعل من خير هـذه الدراسات تلك التى قام بها ليفى دلافيـدا G. Levi Della Vida عن «بلاد العرب قبل الاسلام» ؛ فانها عـلى الرغم من أنها لا تكاد تأتى بجديد ، بل تعمل فى نتائج الأبحاث التى قام

(١) The Arab Heritage, edited by Nabih Amin Faris, Primeeqen University at Primcater.

بها فنكلر وهمل ودوتى ، ففيها مع ذلك اثارات مفيدة للمشاكل الرئيسية التى تدعوها تلك الأبحاث الفيلولوجية . ومن أهمها مسألة نشأة حضارة بلاد العرب الجنوبية ، فمن المعـروف أن أولئك الباحثين يميلون الى ردها الى الحضارة السومرية فى بلاد العراق ، لكن ليفى دلافيدا يثير اعتراضات لها حظها من الوجاهة مثل جهل العرب الجنوبيين بالكتابة المسمارية واختلاف المعمار ثم تباين الأنظمة السياسية والدينية . ونرى نحن من جانبنا أن الخطأ فى هذا الفرض وأمثاله ناشىء من عدم الفهم لطبيعة الحضارات ومحاولة رد الواحدة الى الأخرى بأى ثمن ، شأن مؤرخى القرن الماضى . ولهذا نرى أن حضارة بلاد العرب الجنوبية يجب أن تدخل ضمن دائرة حضارة أخرى ، هى الحضارة العربية . ولو فسرت وفقا لروح تلك الحضارة كما حددناها فى مواضع عدة من مؤلفاتنا (« الالحاد فى الاسلام » ، « اشبنجلر » ، « التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية ») لتبدت فى ضـوء جديد يستطيع أن يكشف عن كل تلك المشـاكل المزعومة . لهذا نلفت أنظار الباحثين الى دراسة حضـارة بلاد العرب الجنوبية على أساس أنها المهد الأول للحضارة العربيـة بالمعنى المفهوم لدنيا ، وفيها تظهر روحها . على أن جهلنا بتاريخ بلاد العرب الشمالية لا يقل ان لم يزد عن جهلنا بتاريخ بلاد العرب الجنوبية ، خصوصا فيما قبل العصر الهلينى ، منـذ أن ظهر العرب كعنصر حقيقى ناضل بقوة واستمرار ضد الملوك الأشوريين من سرجون الثانى حتى أشور بانيبال . على أن هذا الجهل ينزاح شيئا فشيئا لما أن غزا الاسكندر الشرق وتلاه أخلافه السلوقيون . ففى القرن الثالث قبل الميلاد ان لم يكن قبل ذلك نشأت أول دولة عربية شمالية بلغت مبلغا بارزا فى الحياة الدولية ، وذلك لما أن قامت دولة النبطيين فى تلك المنطقة التى يحدها البحر الميت وخليج العقبة ، وكانت لهم بلاد ذات شأن ممتاز مثل سلع (بترا) وجرش .

ثم يعرض الأستاذ ليفى دلافيدا لقيام دولة اللحيانيين التى يرى أنها

قامت بعد انحلال الدول العربية الجنوبية وكانت لعهد طويل تحت سيطرة النبطيين ثم ازدهرت بعد زوال دولة هؤلاء ، وان كان غيره مثل د. ه. ملر D. H. Müller يرى ، وهو الخبير كل الخبرة بنقوش اللحيانيين ، أن مملكتهم أقدم بكثير جدا من ذلك العهد . كما يعرض لدولة ثمود التى كان مركزها مدين حيث وجد العالم التشيكى موسيل Musil بقايا معبد ونقشا باللغتين اليونانية والنبطية فيه ذكر لثمود .

فاذا ما انتقل الى العصر السابق مباشرة على الاسلام وجد أمر التأريخ لتلك الفترة أشد عسرا ، لأن الوثائق الباقية عنها أكثرها ذات طابع أدبى ، بينما الوثائق الخاصة بالعهد الأقدم كانت نقوشا وبالتالى أصدق وأوضح دلالة . فعلى الرغم من وفرة الأخبار الأدبية عن تلك الفترة وفرة هائلة جدا ، فانها لا تكاد تساوى فى قيمتها شيئا من تلك النقوش القليلة الباقية من العصر الأقدم . على أن المؤلف قد حاول أن يقدم صورة اجمالية واضحة عن تاريخ تلك الفترة .

وختم ليفى دلافيدا فصله القيم هذا بمراجع وفيرة تكاد تستغرق كل الأبحاث الرئيسية فى هذا الباب . ويتلو هذا الفصل فصل عن « أصول الاسلام : دراسة فى المحيط والأساس » كتبه جولين أوبرمن Julian Obermann وفيه يتعرض لتلك الناحية الشائكة غير المألوفة فى دراساتنا الشرقية وهى ناحية الصلة بين الاسلام والدينين الكتابيين : اليهودية والمسيحية ، فيدرس ويبين ما هنالك من تواز بين العقائد والتيارات والمؤسسات الدينية فى الأديان الثلاثة . وهو يمهد لهذا ببيان تأثير هذين الدينين فى بلاد العرب قبل الاسلام ، خصوصا فى المدينة وعن طريقها فى مكة لما كان ثمت من روابط وثيقة بين كلتا المدينتين اللتين كانت أولاهما تنطوى على جالية يهودية جليلة الشأن ، وكيف كان هذا النفوذ متباين المنافذ بلغ قلب الجزيرة فى مكة والمدينة من طرق عدة . ثم أخذ فى دراسة مسائل جزئية مثل « الكتاب » و « أو الكتاب » على

أساس أنها معان يهودية مسيحية ، ويسوق الشواهد من القرآن والكتاب المقدس بقسميه للتدليل على ما يريد الوصول اليه . ويعنى بتقسيم السور الى أربعة مجاميع تمثل الأدوار الأربعة لحياة الرسول ويحلل القسم الأول منها . والغاية التى يستهدفها المؤلف من وراء هذا كله أن يبين نصيب كل من اليهودية والمسيحية فى تكوين الاسلام ، وهو يجرى هنا فى اثر الأبحاث التى قام بها خصوصا جولد تشيهر ثم فنسنك ، ولا يمكن الدخول فى تفاصيلها هنا أو مناقشتها اذ لا يتسع لها هذا المجال .

ونمر عابرين بمقال جرينبوم Gustave von Grünebaum عن « نمو الشعر العربى » ثم مقال الدكتور نبيه فارس عن « الغزالى » بوصفه ممثل طابع الرجل المسلم خير تمثيل ، لأنهما لا يدخلان فى باب هذه المجلة ، ونمضى الى مقال جون ل. لامونت John L. Lamonte عن « الحرب الصليبية والجهاد » فنجد المؤلف يعرض « للدوافع الدينية فى الحروب الصليبية والحروب الاسلامية ضد اللاتين فى سوريا ابان القرنين الثانى والثالث عشر » ؛ لهذا يعنى بتحليل فكرة الحرب الصليبية كفكرة دينية ، وبتحليل ما يناظرها عند المسلمين فى ذلك العهد ، أعنى فكرة الجهاد فى سبيل الله حتى تتم الغلبة للاسلام . على أنه لا يرى هذا الدافع الدينى فى الحرب الصليبية الا فى الحملات الأولى ، أما بعد استقرار الأمر للصليبيين فى بلاد الاسلام فقد ضاع المعنى الدينى ، ويرى فى هذا دليل زيادة فى المدنية والتحضر عند الفرنجة ، على عكس ما فعله فترى Vitry وجروسيه Grousset اللذان وجدا فى هذا علامة انحلال دب دبيبه فى أولئك الفرنجة . والمؤلف يتابع هذه الفكرة فى تحليله المتصل لأدوار الحروب الصليبية كلها حتى يأتى عليها وعلى ملامحها البارزة فى عرض لا يخلو من التشويق والآراء الجديدة . ولهذا فان هذا البحث على صغره يقدم فكرة دقيقة عن روح الحروب الصليبية والجهاد الاسلامى المضاد لها ، وما مرت به تلك الأرواح من أدوار . وفيه

انصاف للجانب الاسلامى من تلك الحروب بما لا نكاد نجد له نظيرا من الكتاب الأوربيين الآخرين ، لأن المؤلف كان على علم جيد بروايتى الطرفين المتنازعين . ولذا يحسن قراءة مثل هذا الفصل الى جانب كتب جروسيه ، وبخاصة كتابه الأخير « ملحمة الحروب الصليبية (باريس سنة ١٩٤٧) » .

ثمت فصل شائق عقده هنرى ل. سفج Henry L. Savage « للقدس والقاهرة فى القرن الرابع عشر فى نظر غربيين » ، وفيه يحدثنا عن أحد أولئك الحجاج الذين كانوا يفدون الى بلاد المشرق من أوربا ، وهو أوجييه Ogier بارون انجلير Anglure الثامن ، وانجلير هذه التى فيها أسرة هذا النبيل تقع على مسافة ثلاثين ميلا تقريبا جنوب شرقى ابرنيه وعلى خمسة وعشرين ميلا تقريبا جنوب غربى تروا فى اقليم المارن بفرنسا . وهذا البارون قد قام « برحلته المقدسة » هذه لأنه تجرى فى عروقه دماء صليبية اذ شارك أحد أجداده فى الحملة الصليبية التى قادها فيليب أوجست وقلب الأسد سنة ١١٩٠ ؛ ثم لحادث آخر مع فتاة سرعان ما شكته الى الملك فلم يعف عنه الا بشرط التكفير بهذه الرحلة الشاقة الى البلاد المقدسة . ولقد بلغ هذا الحاج القاهرة فى الثانى من شهر نوفمبر سنة ١٣٩٥ ، فبهره وصحبه ضخامتها وجمالها وثراؤها ووفرة مساجدها . ثم عاد الى بلاده بعد أن زود برسائل الى فرنسا فى الثانى والعشرين من شهر يونيو سنة ١٣٩٦ . ولعل هذا الفصل من أجمل فصول الكتاب لما فيه من طرافة وحسن عرض .

وفى الكتاب يعد هذا فصل عن « تطور التفكير العلمى عند العرب » لادورد جورجى ، وفصل عن « الدراسات العربية فى أمريكا » . وكل فصل من فصوله قد ختم بثبت مراجع يتفاوت وفقا لاتساع الأبحاث فى الموضوعات المعالجة .

وليس من شك فى أن الكتاب فى مجموعه يعطى للقارىء العادى ، بل للباحث ، صورة عامة واضحة ، قد لا تخلو فى بعض المواضيع من العمق والدقة ، عن التراث العربى فى توقف مظاهره ؛ ويخدم الهدف الذى رمى اليه وهو زيادة التعرف بين الغرب والعالم العربى ؛ كما يثير أمام الباحثين طائفة من المسائل والمشاكل التى تدعو الى مواصلة البحث وموالاة التفكير .

عبد الرحمن بدوى

تاريخ التعليم فى مصر
تحت حكم عباس وسـعيد واسماعيل

تأليف

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

توفر الدكتور أحمد عزت عبد الكريم على دراسة ناحيـة من أهم نواحى نهضتنا الحديثة وأبعدها أثرا فى جميع ميادين التقدم والرقى ؛ تلك هى ناحية التربية والتعليم فى تاريخ مصر الحديث . وهو باهتمامه بعلاج هذه الناحية قد عمل على ملء فراغ خطير لأن ميادين دراسـة التربية والتعليم لا تزال فى بلادنا ، على الرغم من خطورتها ، من أفقر الميادين . وقد بذل المؤلف جهدا عظيما لعلاج هذا النقص فأتحفنا بعدد من المؤلفات القيمة فى فترات متقاربة ، وأبرز الى عالم الوجود ما كان مختفيا بين جدران المتاحف وفى مخازن المكتبات ودور المحفوظات من التقارير والوثائق وصاغ من كل ذلك بيانات مرتبطة واضحة واحصاءات دقيقـة وافية تبين تطورات التعليم واتجاهـاته من ناحية الأنظمـة والمعاهد والمناهج والأغراض ، منذ ظهور محمـد على الكبير الى بدء الاحتلال البريطانى .

وكان كتاب تاريخ التعليم فى عهد محمـد على أول الغيث ؛ ثم تبع ذلك المؤلف النافع ظهور ثلاثة مجلدات ومجلد خاص باللوائح والوثائق التعليمية ، تعالج تاريخ التعليم فى عصر عباس وسعيد واسماعيل . وقد تولت وزارة المعارف طبع هذه الأجزاء تقديرا لجهود المؤلف وبحوثه القيمة . والأجزاء الثلاثة الأخيرة هى موضوع بحث اليوم .

يعالج المؤلف فى المجـلد الأول تاريخ التعليم فى مصر فى عصرى

عباس وسعيد ، فيبدأ بالاشارة الى الظروف التى تولى فيها عباس الحكم وهى ظروف لاشك تستدعى التدبر والاناه نظرا للصعوبات المالية التى عقبت عهد محمد على ، ولكن عباس آثر الانكماش والنكوص وتذرع بالرجعية المطلقة فأغلق أغلب معاهد التعليم وشتت تلاميذها ومعلميها . وكان أقسى ما وجه للتعليم من ضربات غلق التجهيزية والمبتديان والغاء مكاتب الأقاليم التى ما كادت تنبت فى عصر محمد على حتى عاجلها عباس بالفناء وبذلك عمل على تقويض الأساس الهام لكل تقدم أو اصلاح ولم يفن شيئا كثيرا عنايته ببعض نواحى التعليم كارسال البعوث العلمية الى الخارج أو الاهتمام الكبير بانشاء المدرسة المفروزة لاعداد الضباط اللازمين للجيش .

وينتقل القارىء من عصر الظلمات أو عصر عباس الى عصر لا يتخلله الا بصيص ضئيل من الأمل والنور ، وذلك هو عصر سعيد ، الذى يصبح التعليم فيه عرضة للتيارات والأهواء المتضاربة بسبب عدم استقرار الوالى على خطة ثابتة فهو لا يكاد يفرغ من اقامة معهد حتى تذهب عنه الحماسة الأولى فيتخلى عنه ويشتت طلابه أو ينقلهم الى نوع آخر من الدراسة لا عهد لهم به . ولم يكن المدرسون وموظفو الديوان بأسعد حظا من الطلاب . على أن المؤلف يحاول اثناء تصويره لمحنة التعليم فى هذين العصرين أن يفتح بابا للأمل فيشير الى ظهور الشخصيات التى بدأت تؤثر فى التعليم وتوجهه بعض التوجيه المستقيم مثل على مبارك وأدهم باشا ورفاعه بك رافع ، كما يشير الى وضع أساس بعض المبادىء الهامة التى يقول عنها انها تؤرخ عصرا جديدا فى نظريات التربية فى مصر كمشروع انشاء مكاتب « الملة » لتعليم أبناء الشعب وتربيتهم . كما يبين أهمية البعوث العلمية الى البلدان الأوربية التى استمرت خلال العهدين فكانت نبراس هدى وسط الظلمة الشاملة .

وما من شك فى أن المؤلف لاقى صعوبات جمة فى دراسة التعليم

دراسة متصلة فى تلك الفترة المليئة بالاضطراب والفوضى . فركز جل اهتمامه على الوقوف على أنواع المدارس من أولية وابتدائية وتجهيزية وخصوصية وما اشتملت عليه خططها ومناهجها الدراسية وما مرت به من مختلف المحن والتقلبات تبعا لاهواء الحكام . كما عنى باستقصاء أسماء النظار والوكلاء والمدرسين وطلاب البعثات وأنواع دراستهم فى البلاد المختلفة ، وأساليب الحيـاة المدرسية وتطورات ديوان المدارس والشخصيات البارزة التى عملت على تكوينه . على أن المؤلف لا يكتفى عند علاج هذه النواحى بسرد المعلومات بل يعمل على تمحيص الحقائق ، ويوازن بين مختلف المصادر ويراعى التسلسل والتطور فى أسـلوب المؤرخ والأديب معا .

يفرد المؤلف بعد ذلك مجلدين ضخمين لدراسـة التعليم فى عصر اسماعيل ذلك العصر الملىء بروح المغامرة والحيوية والتجديد . ويطالعنا فى المجلد الأول بأمتع وأهم ناحية من نواحى التعليم الا وهى محاولات نشر التعليم الأولى والابتدائى بين أبناء الشعب بقصد النهوض بمستوى الحياة العامة ، وتلك أمنية كانت تجيش فى الصدور منذ أمـد بعيد ولكنها لم تأخذ مظهرا جديا أو طابعا قوميا الا فى عهد اسماعيل فقـد نادى بضرورة تعليم أبناء الشعب مجلس شـورى النواب فى اجتماعاته الأولى ، وفى لائحة رجب الشهيرة سنة ١٨٦٧ وضعت الخطط والتفاصيل لنشر التعليم الشعبى عن طريق اشراك الأهالى فى تحمل نفقات التعليم والاهتمام بشأنه واخضاع الكتاتيب لرقابة الدولة . وفى سنة ١٨٨٠ ، يجدد قومسيون تنظيم المعارف المشروع ويعمـل على تلافى العوامل التى أدت الى فشل مشروع لائحة رجب . وتعد تلك المحاولات دليـلا واضحا على ظهور الوعى القومى فى البلاد وتنبه الشعب للعناية بشئونه والمطالبة بحقوقه . ويبين المؤلف هذا الاتجاه بوضوع عندما يشير الى أن الأسر بدأت تهتم بأمر التعليم وأخذت تتبارى فى ارسال أبنائها

للمدارس . وقد كان التعليم قبل ذلك شيئا مخيفا يفرض على التلاميذ الذين كانوا يؤخذون بنظام عسكرى صارم . كما يظهر هذا الاتجاه فى تكوين مجلس أعلى للمعارف وتنظيم ديوان المعارف تنظيما يجعله مهيمنا على كل نواحى التعليم وملما بكل وثائقه وتفاصيله ، فلم يعد الحاكم ينفرد مع نفر قليل بتوجيه سياسة التعليم فى البلاد . وكان من بوادر هذه اليقظة أيضا التنبه الى ضرورة التوفيق بين التعليم الاسلامى القديم والتعليم الحديث وهى مشكلة لا تزال تشغل أذهان المربين الى وقتنا هذا .

وعلى وجه الاجمال يبين لنا هذا الجزء بوضوح محاولات نشر التعليم الشعبي وما مرت به من عقبات . وهبوط وصعود ؛ ونخرج بفكرة واضحة وهى أن تحقيق النجاح كان دون السعى والجهد ، وان محاولاتنا اليوم فى التوفيق بين أنواع التعليم فى المراحل الأولى تشبه الى حد كبير محاولات عصر اسماعيل لأننا فى الواقع لم نتقدم الا تقدما يسيرا ... على الرغم من مضى أكثر من ثمانين عاما .

وفى الجزء الثانى يعالج المؤلف التعليم فوق الابتدائى أى التعليم التجهيزى والخصوصى أو العالى والبعثات العلمية الى البلدان الأوربية ؛ ويعرض المؤلف فى ذات الوقت للاصلاحات المختلفة فى تنظيم التعليم والادارة والخطط الدراسية ومحاولة تنظيم دراسة اللغة الأجنبية وتحديد المرحلة التى تبدأ فيها دراسة تلك اللغة والمرحلة التى يبدأ عندها تدريس الأجرومية ، وتنظيم الامتحانات وتعليق أهمية على منح الشهادات النهائية وتقرير مبدأ الاشراف على المعاهد الأجنبية ، والعناية بتعليم البنات وانشاء مدارس لاعداد المعلمين ومدارس لذوى العاهات. كذلك لايهمل الكتاب الخطط والمصروفات وأسماء النظار والوكلاء والمدرسين والضباط .

ويجد القارىء متعة فى تتبع أكثر هذه النــواحى التى عنى المؤلف بابرازها لأنها لا تزال وثيقة الصلة بمشاكلنا التعليمية ، وفى دراستها تفهم لاتجاهاتنا الحالية وتلك غاية من غايات المؤلف الرئيسية .

مصــادر الكتاب :

وقد استعان المؤلف بمصادر كثيرة أهمها الدفاتر المصرية والتركية ولوائح التعليم ومذكرات المشرفين على شئون التربية فى تلك الحقبــة من الزمن ، وكتب المعاصرين كمؤلفات دوريك وعلى باشا مبارك والشيخ محمد عبده ، والوثائق المختلفة الخاصة بحركة اصلاح التعليم . ولا شك أن الرجوع الى تلك المصادر الأصلية يطبع الكتاب بطابع الجدة ويبين ما يدل المؤلف من جهد فى البحث والتنقيب والاستخلاص والتبويب .

ولست أبتغى فى هذه العجالة حصرا لجميع نواحى البحث أو بيانا لأهمية كل ما أتى به المؤلف من الحقائق والبيانات الكثيرة المتفرقة وانما أروم من وراء هذه الملاحظات العابرة أن أوجه الأذهــان الى أبواب ومنافذ تؤدى الى العثور على ثروة وافرة من المعلومات والآراء ممـا لا يستغنى عنه مشتغل بالتاريخ المصرى الحديث أو بالتربية .

على أنى لا أنكر أن وفرة المعلومات والحقائق والبيانات التى كشف عنها المؤلف نشأ عنها تشعب فى البحث وضاعت بين ثناياها وتعاريجها الأغراض الرئيسية وأغرت المؤلف على الخوض فى تفاصيل لا حصر لها فأكثر من ذكر أسماء نظار المدارس وضباطها وعدد التلاميذ فى السنوات المتعاقبة ، وزيادة المصروفات أو نقصانها والأطوار المتباينة التى مرت بها كل مدرسة ، وأسماء المدارس الأجنبية الكثيرة وموظفى ديوان المدارس وتنقلاتهم ... الخ مما يجعل الكتاب يبدو أشبه بتقويم للتعليم منــه بمؤلف متماسك الأجزاء ، محبوك الصنعة موحد الغرض . وكان من الممكن الاكتفاء بذكر كثير من البيانات والتفاصيل والاحصاءات فى

المجلد الخاص بالملحقات حتى يسهل على القارىء الوصول الى التطورات الرئيسية فى تاريخ التعليم فى مصر الحديثة ..

كذلك لم يعرض المؤلف لناحية ربما تكون ضرورية لاتمام البحث وبيان مدى التقدم العلمى فى مصر ، وهى ناحية الموازنة بين بعض نواحى التعليم والتقدم فى أهم البلاد الأوربية التى اتصلت بها مصر لأغراض ثقافية وبين ما حققته مصر أو لم تحققه عن أغراض التعليم الرئيسية . وكنت أود ان ألمس فى الكتاب زيادة العناية بطرق التربية ونقد الأساليب والأنظمة المتبعة فى مصر على ضوء ما كان سائدا فى الغرب من الأساليب أو شائعا من النظريات والنظم فى بعض البلاد الغربية . فلقد كانت مصر تهدف الى التشبه بالغرب وترتوى من مناهل علومه ومعارفه ، مما يشعر بالحاجة الى الوقوف على طرائقه وأغراضه فيما قد يعيننا من شئون التربية .

وحبذا لو كان المؤلف قد ركز جل عنايته عند دراسة التعليم فى عصر اسماعيل بصفة خاصة فى معالجة أهم الحركات والاتجاهات الثقافية التى تمخض عنها هذا العصر الملىء بشتى التغييرات ، كظهور الوعى القومى فى ميدان التعليم ، ونشاط الجاليات الأجنبية وأثر ذلك فى النهضة القومية العلمية ، وحركة الاصلاح الأزهرية ، دون الافاضة فى التفاصيل والبيانات التى تشمل كل أنواع المدارس والمعاهد والمناهج والتنظيم والادارة مما يكاد يختنق معها المبادىء والآراء والنتائج .. وليس معنى ذلك أن المؤلف لم يتصد لعلاج هذه النواحى الهامة ، كلا فقد أولاها الكثير من عنايته ، ولكننا نأخذ عليه عدم الاقتصار على النواحى المميزة للعصر وابرازها فى قوة ووضوح بتجريدها مما لا يهم من التفاصيل .

بيد أن هذا النقد لا ينسينا فضل المؤلف فى الكشف عن حقائق هامة جديدة وعرضها فى أسلوب شائق جذاب وبطريقة علمية تتميز بالنقد والوضوح والاتزان مما يجعل لمؤلفاته فى تاريخ التربيـة مكانة رفيعة عالية .

اسماء فهمى

A. H. Hourani : Syria and Lebanon. A Political Essay. London, 1946.

يعطى الأستاذ حورانى فى الجزء الأول من كتابه لمحة تاريخية عامة . فيذكر أن سوريا بالمعنى الجغرافى قد تأثر تاريخها كل التأثر بجغرافيتها وبحكم موقعها المتوسط كسبت ثروة طائلة لمرور التجارة العالمية بأراضيها، كما تعرضت لهجرات شعوب كثيرة ، وتتابع عليها الغـزاة الأجانب ، ومزجت بين عناصر الحضارات التى تأدت اليها ، وساهمت بنصيب عظيم فى سير الحضـارة منذ عهد الفينيقيين حتى الوقت الحاضر . وحـدثت تغييرات هامة فى أثناء القرن التاسع عشر لزيادة اهتمام أوروبا بسوريا ولبنان ولحكم محمد على . وتجاذبت البلاد حركة الاقتباس عن الغـرب وحركة الاصلاح العثمانى ونمو الروح الاستقلالية .

قبيل الحرب العالمية الأولى تفاوتت نظرة أهل سوريا بين الرغبة فى الحكم الذاتى والاستقلال التام . واتجـه السوريون الى انجلترا وتطلع اللبنانيون الى فرنسا لنيل المعونة والتأييد فى تحقيق أهدافهم . وعضدت انجلترا اتجاه العرب واليهود اليها فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، فى حدود المصالح الانجليزية الفرنسية . وعقدت اتفاقية سايكس بيكو السرية فى ١٩١٧ ، التى قسمت البلاد الى مناطق نفوذ بين انجلترا وفرنسا والعرب . وشجعت انجلترا العرب على الثورة على الدولة العثمانية ، كما أصدرت وعد بلفور لاقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

لكن الحلفاء لم يحققوا آمال العرب بعد الحرب . وأنشأ مؤتمر فرساى نظام الانتداب . وأعطيت سوريا ولبنان لفرنسا وفلسطين لانجلترا . وحاول العرب المقاومة وأعلن فيصل ملكا على سوريا فى دمشق . ولكن القوات الفرنسية سارعت الى هزيمة قواته فى ميسلون فى ١٩٢٠ ، فهرب

فيصل الى العراق . ومضى الحلفاء فى سياسة تقسيم البلاد . وأدرك العرب أن الحلفاء قد خدعوهم وأن مصيرهم فى أيديهم . كما استاء اليهود لتحديد هجرتهم ومنعها عن بعض المناطق .

يبحث الجزء الثانى طائفة من المسائل . يبدأ بمسألة الاقتباس عن الغرب . فيقول ان أهل سوريا كانوا منذ قرون أحد حملة لواء الحضارة الاسلامية ، ثم أخذوا يواجهون الحضارة الغربية منذ أكثر من قرن . وظهرت هذه الحضارة كقوة ثورية تهدد باحداث تغيير حاسم فى حياة البشر . وقد تفاوت موقف العرب ازاءها ، فعارضها فريق وبالغ فى الايمان بها فريق آخر . على أن الأغلبية المعتدلة اعتبرت أن الحياة العربية يجب أن تتغير على أساس الحضارة الغربية ، مع الاحتفاظ بما هو خير فى تقاليدهم وتراثهم . ويرى الأستاذ حورانى أن خير الوسائل لتحديد الفكر العربى هى دراسة آثار اليونان خصوصا وأن العرب سبق أن درسوها ، ولأنها أساس الحضارة الغربية الحديثة ، ويمكن أن تعد أساسا للتفاهم العقلى بين الشرق والغرب. كما أن على العرب أن يدرسوا خلاصة الفكر الأوروبى الحديث بما تحويه من فلسفة وفن وموسيقى . ويرى أن على سوريا أن تلعب دورا رئيسيا فى هذا المقام بحكم اتصالها الوثيق بحضارة الغرب والشرق .

ويلاحظ أن التقدم الاجتماعى بطىء ، وأن أغلب السكان يعيشون على الزراعة ، وأنه يسود نظام الملكيات الكبيرة فى سوريا ، ويوجد نظام الملكية الجماعية فى لبنان . وهناك عدد كبير من البدو أخذ بعضه فى الاستقرار . وحدث تقدم جزئى فى ميدان الصناعة والتجارة وفى مظاهر الحياة الحديثة فى المدن . وبدأت المرأة تشترك فى الأعمال العامة وأخذ التعليم فى الانتشار . ولا يزال مجال التقدم واسعا فى هذه النواحى .

ويذكر أن حركة القومية العربية ظهرت على أساس من روابط اللغة والدين والتقاليد والتطلع لتحقيق أهداف واحدة . وبدأت موجهة

للتخلص من الحكم العثمانى ، وقويت بالاتصال بالغرب ، خصوصا للاستخفاف والتغرير الذى عامل به الغربيون الشعوب العربية . رغب العرب أن يبعثوا الى الحياة من جديد ، باستقلالهم جميعا وبايجاد رابطة تجمع بينهم وبالعمل على اعادة تنظيم حياتهم . وساعد على نمو القومية العربية ظهور الحركة الصهيونية . قام كفاح عنيف بين العرب واليهود فى فلسطين . ورأى اليهود فى العرب الاضطهاد الذى لاقوه فى الغرب ، ورأى العرب فى اليهود أداة للاستعمار الأوروبى . وحاولت انجلترا أن تحل هذه المشكلة بارسال اللجان وبعقد مؤتمر المائدة المستديرة فى ١٩٣٩ ، ولكن بغير جدوى .

وفيما يتعلق بمشكلة الأقليات يقول ان أغلب أهل سوريا ولبنان عرب من حيث اللغة والتقاليد ومسلمون سنيون من حيث الدين . ومع ذلك توجد أقليات دينية ولغوية وجنسية مثل الشيعة والدروز والعلويين والموارنة والكاثوليك والأرثوذكس والسريان والأرمن والبروتستانت والجراكسة والأكراد والتركمان واليهود . وقويت مشكلة الأقليات لبعض عوامل مثل الخلافات التقليدية ، وتفاوت هذه العناصر فى تأثرها بحضارة الغرب ، وحركة القومية العربية التى أوجدت عدم الثقة بين الأغلبية والأقليات .

ليس فى لبنان أغلبية مطلقة . وكانت أغلبيته فى العهد العثمانى من الموارنة . وتمتع الجبل منذ قرون بالحكم الذاتى ، ووجد تنافس بين زعمائه على السلطة . وكانت صلة الموارنة قوية بفرنسا . وتفاوتت وجهة نظرهم ، كباقى الأقليات فى سوريا ولبنان ، بين استقلال لبنان التام واعتباره قطرا عربيا وتمتعه بالحكم الذاتى . وضمت اليه فى عهد الانتداب الفرنسى مناطق أغلبيتها من المسلمين .

وتوجد فى سوريا أقليات متجمعة . فهناك الدروز فى جبل الدروز

والعلويون فى اللاذقية والأقليات الكثيرة من الأمن والسريان والأشوريين والأكراد الذين هاجروا الى الجزيرة بعد الحرب العالمية الأولى ، مما سبب اضطراب أحوالها . هذا فضلا عن بعض الأقليات المتناثرة فى أنحاء سوريا .

ثم يدرس مصالح الدول الأجنبية . فيقول ان مصالح فرنسا فى سوريا ولبنان تفوق مصالح سائر الدول . وترجع صلات فرنسا بالشرف الأدنى الى عهد الصليبيين والى عهد فرنسوا الأولى . وظلت هذه الصلات تتقدم ، مع استثناءات قليلة ، حتى الوقت الحاضر . وتلخص مصالح فرنسا فى حماية الموارنة وغيرهم من الأقليات ، وحماية البعثات الفرنسية ، والاحتفاظ بمركز فرنسا الثقافى ، وضمان سيطرتها على بعض المواضع الحربية ، والتوفيق بين سياستها فى سوريا ولبنان وفى شمالى أفريقيا ، والتوفيق بين سياستها والسياسة الانجليزية فى الشرق الأدنى ، مع مراعاة مصالحها الاقتصادية .

أما انجلترا فتهتم بسوريا ولبنان من حيث مركزها فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، ويهمها أن تبقى فى أيدى دولة صديقة اذا لم تصبح فى يديها هى . وعنيت الولايات المتحدة الأمريكية بتقوية مركزها فيهما بايجاد بعض الهيئات الدينية والتعليمية والمستشفيات . كما أن هناك جالية سورية لبنانية فى أمريكا لا تزال متصلة بوطنها الأول . ويهم الولايات المتحدة الأمريكية أحوال البلاد السياسية فى هذا النطاق . أما ايطاليا فقد عملت على تقوية نفوذها فى الشرق الأدنى باقامة المعاهد والمنشآت وترويج التجارة لكى تنافس نفوذ فرنسا ، ولكن مطامعها السياسية نفرت منها أغلب أهل البلاد . ولم تكن لألمانيا مصالح مباشرة بسوريا ولبنان الا من استغلال استياء العرب لاضعاف نفوذ فرنسا وانجلترا فى الشرق الأدنى . ولم تظهر روسيا اهتماما خاصا بهذه البلاد

منـذ قطعت الثورة الروسية فى ١٩١٧ صـلاتها التاريخيـة بالكنيسة الأرثوذكسية . واهتمت تركيا بأن تقوم فى سوريا حكومة قوية تمنع حوادث الاضطراب على الحـدود . ونشأت اطماع لتركيا فى سنجق الأسكندرونة انتهت بضمه اليها ، فأثار ذلك مخاوف العرب . ولا تعارض تركيا حركة القومية العربية طالما أنها لا تهددها فى شىء .

ولمصر مصالح فى سوريا ولبنان قامت على أساس من رابطة اللغة والدين والصلات الاقتصادية ، وتقدم الانتاج الصناعى فى مصر الذى يعمل على ايجاد سوق له فى سوريا ولبنان . ويهم مصر أن تكون المواقع الحربية فيهما فى يد دولة صديقة . وكذلك اهتمت العراق بأحوال سوريا ولبنان لأنه يربطهم رباط اللغة والدين ، وكان استقلالهما من أهم أهداف السياسة الخارجية للعراق ، كما أن العراق يهمه أن يكون له مخرج عن طريق سوريا الى البحر الأبيض المتوسط .

يبحث الجزء الثالث من الكتاب طائفة أخرى من المسائل الهامة . يدرس أولا الانتداب الفرنسى ، فيقول ان فرنسا عملت على أن يسود النظام وحكم القانون ، وتقدمت المواصلات ونظمت المالية وزادت الأراضى المنزرعة وشجعت التجارة الخارجية وتقدم التعليم . ومع هذا فلم تقم فرنسا بما كان منتظرا منها فى هذه النواحى ، ولم تنل تأييد أغلب أهل البلاد فى آخر عهد الانتداب . شكى الوطنيين من رشوة الموظفين ، واهانة الفرنسيين للعرب ومعاملتهم كأهل المستعمرات ، واعطاء الشركات الفرنسية حق استثمار أموالهم فى البلاد ، كما استاؤوا لأن فرنسا لم تعمل على انشاء حكومة مستقلة ولم تهتم بتنمية الحياة النيابية ، وشجعت الروح الانفصالية عند الأقليات ، وحرصت على تحقيق مصالحها الخاصة دون مصالح البلاد الحقيقية . وبذلك كله خالفت فرنسا دستور عصبة الأمم ذاته .

ويجمل التاريخ السياسى من ١٩٢٠ الى ١٩٣٦ فى أن عهد الانتداب

الفرنسى فى هذه الفترة كان هادئا نوعا فى قسمين من البلاد . ففى لبنان وضع الدستور الأول فى ١٩٢٥ ثم أوقف العمل به فى ١٩٣٢ لأنه أرهق الميزانية ولأن انقسام لبنان الدينى والمذهبى أوجد حالة من عدم الاستقرار . ورأى المفكرون من الأقليات أن حالة لبنان أصبحت أسوأ مماكانت عليه فى العهد العثمانى . وتباينت الأراء بين استقلال لبنان وانضمامه الى سوريا واحتفاظه بالحكم الذاتى . وكذلك كانت دولة العلويين هادئة نسبيا . وسيطر فيها أهل السنة . وعمل الفرنسيون من ناحيتهم على تقوية الروح الانفصالية . ولم يرض السنيون عن ذلك وطالبوا بضم اللاذقية الى سوريا .

أما سوريا فقد سادتها الاضطرابات . استاء السوريون من سياسة فرنسا ، وساعد على استيائهم ثورة عرب فلسطين ضد اليهود . قامت الثورة أولا فى جبل الدروز بسبب الاجراءات الشديدة التى اتبعتها فرنسا فى تنفيذ بعض الاصلاحات الداخلية ، وللمنافسات الداخلية بين زعماء الجبل . ثار سلطان الأطرش وانضم اليه ثوار دمشق وعلى رأسهم الدكتور شهبندر ، وامتدت الثورة الى عدة أنحاء فى سوريا ووصلت الى جنوبى لبنان . وأمر الجنرال سرايل بضرب دمشق بالقنابل فى ١٩٢٥ ، وسيطر الفرنسيون على الموقف .

كان من نتائج تلك الثورة أن عدلت فرنسا عن التدخل فى تقاليد الدروز ، ووضعوا تحت الحكم الفرنسى ، وعملت فرنسا على تقوية الروح الانفصالية بينهم . واتخذ المندوب السامى دى جوفنيل الوسائل التى تؤدى الى الحكم الذاتى فى سوريا ولبنان واللاذقية . ولكن لم تنجح محاولاته ، وقاومه الوطنيون ، وتألفت الكتلة الوطنية من زعماء سوريا . ووضع دستور فى ١٩٢٨ ، ولكن المندوب السامى اعترض على اعتبار سوريا كلها وحدة سياسية ، واعترض على حق رئيس الجمهورية فى عقد المعاهدات ، وعلى حقه فى اعلان الأحكام العرفية . ثم وضع دستور

آخر فى ١٩٣٠ على أساس الدستور السابق أكدت فيه فرنسا التزاماتها فى سوريا ، ووضعت قوانين خاصة لحكم اللاذقية وجبل الدروز والاسكندرونة ، وألفت وزارة مسؤولة أمام البرلمان . ولكن سيطرت فيه الأقلية من المتطرفين على الأكثرية من المعتدلين . وجرت مفاوضات لعقد معاهدة مع فرنسا . ولكن لم يقبلها الوطنيون المتطرفون ، فسحبها المندوب السامى وعطل الحياة النيابية ، وقامت مظاهرات فى ١٩٣٤ و ١٩٣٥ ، أدى ذلك الى زيادة روح السخط وظهرت أحزاب وجماعات سياسية جديدة فى سوريا ولبنان .

ويعرض مسألة المعاهدات بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ . يقول ان حوادث فلسطين والقاهرة والحرب الايطالية الحبشية أدت الى تقوى الشعور الوطنى فى سوريا ولبنان . وجرت مفاوضات للوصول الى حل لقضية البلاد فى ١٩٣٦ . وضع مشروع للمعاهدة الفرنسية السورية ، قضى بالتعاون بين البلدين فى حل المشاكل الخارجية ، وأعطى لفرنسا حق استخدام طرق المواصلات والموانى ، وتصبح الحكومة السورية مسئولة عن حماية أراضيها ، وتبقى بعض قوات فرنسية فترة من الزمن فى جبل الدروز واللاذقية ، وتأخذ سوريا مستشاريها من الفرنسيين ، وتصبح الأسبقية فى البروتوكول لسفير فرنسا ، وتبقى علاقة النقد الفرنسى بالنقد السورى قائمة ، كما تحافظ سوريا على الأقليات . واتفق ألا تصبح المعاهدة نافذة قبل موافقة البرلمانين السورى والفرنسى ، ثم تمضى فترة ثلاث سنوات لتمهيد انتقال الادارة الى السوريين ، ثم تطلب سوريا دخول عصبة الأمم . وكذلك وضع مشروع مشابه للمعاهدة الفرنسية اللبنانية ، خلا من تحديد استخدام القوات الفرنسية ، وتعهدت فيه الحكومة اللبنانية بتنفيذ برنامج اصلاح داخلى .

انتخب مجلس نيابى فى لبنان . ولكن لم تستقر الحياة النيابية هذه

المرة أيضا لاستمرار المنافسة بين الأحزاب ، ولاختلاف الرأى فى الانضمام الى سوريا والانفصال عنها .

وفى سوريا عادت الحياة النيابية ووافق البرلمان السورى على مشروع المعاهدة ، وأعلن ضم جبل الدروز واللاذقية الى سوريا ، وبدت البلاد أنها أوشكت على الاستقلال الصحيح . ولكن استجدت أمور قلبت الموقف . أولا : طلبت تركيا وضع نظام خاص لسنجق الأسكندرونة لوجود جالية تركية كبيرة به . وتساهلت فرنسا ازاء مطالب تركيا لأنها كانت تحرص على صداقتها أمام خطر قيام حرب مع ايطاليا . وجرت انتخابات فى السنجق اشتركت تركيا فى الاشراف عليها ، وأسفرت عن كسب الترك أغلبية صغيرة فى الحكم . وانتهى الأمر بضم تركيا للأسكندرونة فى يونيو ١٩٣٩ .

وتجددت مشكلة الأقليات. فلم يستقر الحال فى جبل الدروز واللاذقية والجزيرة . وتفاوتت دائما الآراء على الانضمام لسوريا والانفصال عنها. وقامت ثورات انتهت بطرد الحكام السوريين وتدخل فرنسا لاعادة النظام فى تلك المناطق .

وكذلك لم ينج مشروع المعاهدة من نقد ساسة فرنسا . قالوا ان السوريين لا يزالون غير صالحين لحكم أنفسهم ، وان ضمانات المعاهدة للأقليات وللقوات الفرنسية فى سوريا غير كافية . وحاول رئيس الحكومة السورية جميل مردم حمل فرنسا على قبول مشروع المعاهدة بدون جدوى . وبذلك فشلت سياسة ١٩٣٦ ، وحلت الكتلة الوطنية وعطل الدستور فى ١٩٣٩ . وقاد المعارضة الدكتور شهبندر ، وظهر حزب الكتلة الوطنية الحرة الذى أخذ يسعى لتحقيق الأمانى القومية . وحدث أن أصدر المندوب السامى الجديد مسيو بيوه قانونا بتحديد حقوق الهيئات الدينية فى الأحوال الشخصية وعامل المسلمين كأصحاب أى دين آخر . أزاد ذلك استياء السوريين وقويت المعارضة ، واستاءت

الحكومة وأصدرت أمرا بعدم تنفيذ القانون الجديد لأنها السلطة الوحيدة التى لها حق التشريع فى البلاد . سقطت الوزارة وحدثت اضطرابات أخمدتها القوات الفرنسية فى مارس ١٩٣٩ . ثم أعلنت فرنسا بعد فترة قصيرة أنها مستعدة لعقد معاهدة جديدة على أساس مشروع ١٩٣٦ ، مع بعض قيود حربية تقتضيها الحالة الدولية التى كانت تنذر بخطر الحرب . فلم يرض الوطنيون عن ذلك . وعطل الدستور مرة أخرى . وعين مجلس ادارى لحكم البلاد وأعيدت الادارة المنفصلة فى جبل الدروز واللاذقية .

وجاءت الحرب العالمية الثانية التى هددت سوريا ولبنان بالأخطار . ساور أهلهما الخوف وعدم الثقة بالحلفاء بناء على تجاربهم الماضية . وعندما سقطت فرنسا فى ١٩٤٠ أعلن ممثل الحكومة الفرنسية الجديدة أن حالة الحرب قد انتهت فى الشرق الأدنى . أزعج ذلك الحلفاء لأن معناه وقوف فرنسا مكتوفة الأيدى اذا ما حاولت قوات المحور احتلال سوريا ولبنان . فأعلنت انجلترا أنها لا تسمح بأن تقع البلاد فى يد قوات معادية . وفى أوائل ١٩٤١ وصلت حالة القلق الى نهايتها بسبب نقص مواد التموين فضلا من قوة الشعور الوطنى والرغبة فى التخلص من الحكم الأجنبي . وتألفت فى سوريا ولبنان وزارتان اداريتان . وبعد سيطرة ألمانيا على البلقان أخذ نفوذها يقترب فى سوريا ولبنان . وثورة العراق على انجلترا واتصال المحور بزعمائها اضطر الحلفاء للقيام بعمل حاسم . فعبرت القوات المتحالفة حدود سوريا ولبنان من جميع الجهات فى يونيو ١٩٤١ . وأبدت قوات الجنرال دنتز مندوب حكومة فيشى مقاومة عنيفة فى بعض المواضع . ولكن انتهى الأمر بسقوط البلاد فى أيدى الحلفاء .

ومنذ بدء الحملة السورية صدرت عدة منشورات وتصريحات سياسية . منها أن أعلن الجنرال كاترو انتهاء عهد الانتداب واستقلال

سوريا ولبنان ، مع قيام مفاوضات للاتفاق على التفصيلات . كما ضمنت انجلترا استقلال البلاد . وأعلن الجنرال دى جول أن فرنسا الحرة ستعمل على اجراء مفاوضات لعقد محالفات تقر الاستقلال ، وتضمن التحالف مع فرنسا وتحفظ مصالحها فى الشرق الأدنى على أساس مشروع ١٩٣٦ ، وقال ان فرنسا الحرة ستبقى مع ذلك مسؤولة عن ادارة البلاد وحمايتها فى أثناء الحرب .وأعلنت انجلترا أنها لن تعتدى على مركز فرنسا الممتاز فى سوريا ولبنان ، واعترفت باستقلالهما وكذلك الدول الحليفة . واعترفت الحكومة السعودية باستقلال سوريا فقط وكذلك فعلت مصر . أما الولايات المتحدة الأمريكية وتركيا فأرجأتا الاعتراف بالاستقلال حتى يتم تنفيذه .

وبالرغم من ذلك كله فان السلطات الفرنسية لم تظهر استعدادها لاعادة الحيـاة النيابية . فوجدت حالة من السخط فى سوريا بزعامة شكرى القوتلى . وأزاد الحالة سوءا الصعوبات الاقتصادية ومشكلة التموين والتعطل . وبعد فترة من التردد أعلنت فرنسا الحرة اعادة الحياة النيابية فى البلدين . وانتخب شكرى القوتلى رئيسا لجمهورية سوريا وبشارة الخورى رئيسا لجمهورية لبنان فى ١٩٤٣ .

وفى الجزء الرابع يعطى الأستاذ حورانى خلاصـة عامة لمشكلات البلاد ويقدم بعض المقترحات لحلها . يقول ان حل المشكلات السياسية لسوريا ولبنان يجب أن يطابق حاجة السلم العالمى ، ويجب أن يكون متفقا مع مصلحة الشعوب العربية ، كما يجب أن يحفظ مصالح الدول الغربية . ويذكر أن ضعف البلاد العربية الحربى والاقتصادى يجعل من الضرورى ابقاء بعض القوات المسلحة فى بعض المواضع الحربية فترة من الزمن . ومن الضرورى أن تحقق المساواة للشعوب العربية والا ثارت كراهيتها للغرب . ولكى تحتفظ الدول الغربية بنفوذها فى الشرق الأوسط يجب أن تقدم لشعوبه المعاونة الصادقة للنهوض . كما يجب أن تتفق هذه

الدول فى سياستها ومعاملتها للشعوب العربية والا تعرضت مصالحها جميعا للخطر . ويحسن أن يكون الدفاع عن سوريا ولبنان بمقتضى معاهدة تعقد مع مجموعة الأمم المتحدة بما فيها فرنسا ، على أن يوضح لأهل البلاد أن هناك ما يشبه ذلك بين الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا .

ويشير الى العلاقة بين سوريا ولبنان وأنه يجمع بينهما روابط ومصالح مشتركة . وينصح بضرورة وجود شعور عام بالوطن اللبنانى يعلو على عوامل الخلاف المحلية فى لبنان ، يوازنه شعور رشيد بالقومية العربية . وينصح بضرورة القضاء على توتر العلاقات بين الأكثرية والأقليات فى أنحاء سوريا ، ويقترح أن تعمل الأكثرية على هضم الأقلية واستمالتها بالادارة الرشيدة العاقلة ؛ وبالمشاركة فى حياة المجتمع والقيام بواجبات المواطن الحر .

ويقول انه على الرغم من تقسيم سوريا الجغرافية الى مناطق خضعت لانجلترا وفرنسا فانه يمكن ايجاد نوع من الاتحاد العام ، ومن الضرورى حل المشكلة الصهيونية ، ولا شىء يدفع العرب الى كراهية الغرب مثل هذه المشكلة . ولا يستطيع أن يجد الحل الملائم .

ويذكر أيضا أنه من المحتمل ايجاد وحدة بين سوريا والعراق بعد التغلب على عوامل الخلاف المحلية ، وايثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة . ويرى أنه من الصعب ايجاد وحدة عربية عامة لنمو شعور القومية فى مصر ، وللخلاف على الحكم والعرش ، وللخلاف فى المستوى الثقافى والاجتماعى . ومع ذلك يرى أهمية تقوية الروابط بين الشعوب العربية فى الناحية الاقتصادية والثقافية .

ويشير الى علاقة الأقطار العربية بأوروبا . ويكرر النصح بأن تعمل الدول الغربية على معاونة العرب باخلاص فى حل مشاكلهم ، وعلى العرب أن يرحبوا بذلك . ويحسن أن تشترك الروسيا فى هذا ، حتى لا تتعارض

المصالح بين الدول . كما يجب أن يوضح موقف تركيا ازاء العرب حتى تزول المخاوف وتحل الثقة بين الجانبين .

وأخيرا يذكر خاتمة بأهم الحوادث من أكتوبر ١٩٤٣ الى ابريل ١٩٤٥ . يقول ان اعلان استقلال سوريا ولبنان فى ١٩٤١ لم يعن تنفيذ ذلك الاستقلال . اذ أعلنت اللجنة الفرنسية للتحرير الوطنى أنها تحل مكان نظام الانتداب مؤقتا ، وأن تسليم ادارة البلاد الى الوطنيين مشروط بعقد معاهدتين تضمنان استقلال سوريا ولبنان ، وتحفظ مصالح فرنسا . قابل الوطنيون ذلك الاعلان باستياء شديد ، وقالوا انهم لم يعترفوا قط بنظام الانتداب ، ولا يعترفون باللجنة الفرنسية كوريثة للدولة المنتدبة ، وان هذا يعتبر تراجعا عن اعلان استقلال البلاد . قالوا ما قيمة استقلال أى بلد اذا شرط بعقد معاهدة مع دولة أجنبية . وأدرك الوطنيون أن فرنسا اذا ما قويت بعد الحرب فستعمل على استرجاع مركزها فى الشرق الأدنى بالقوة المسلحة .

طالبت الحكومة اللبنانية أولا بنقل السلطات الادارية الى يديها . وعدلت الدستور اللبنانى فألغت الاشارة الى الدولة المنتدبة والى عصبة الأمم ، وأعلنت أن عقد معاهدة مع فرنسا لن يتقيد بتحفظات الانتداب اتخذت فرنسا ازاء ذلك اجراءات شديدة ، فقبض على رئيس الوزارة رياض الصلح وعلى أغلب الزراء . وحل مجلس النواب . أثار ذلك شعور الشعب وحدث اضراب عام ووقعت مصادمات مع الجند الفرنسى . وأظهر اللبنانيون شعورا بالوحدة والتضحية بالمصالح الذاتية . وأعلنت انجلترا أنها سبق وأن ضمنت استقلال البلاد ، وأنه يهمها أن يسود الأمن فى لبنان فى أثناء الحرب لأنه طريق هام للمواصلات . وبعد فترة من الاضطرابات أعيدت الوزارة السابقة وألغيت أغلب القرارت الشديدة . ثم حذت سوريا حذو لبنان ، فعدلت دستورها بما يلغى سلطة الدولة المنتدبة ، وأعلنت أنها لا تقبل أية معاهدة كشرط

للاستقلال . كما أعلنت الحكومتان السورية واللبنانيـة أنهما متفقتان على ادارة المصالح المشتركة بينهما .

وفى خلال ١٩٤٤ أعلن ضم جبل الدروز نهائيا الى سوريا ، ولم تضم اللاذقية وقتئذ بسبب استمرار ثورة سليمان المرشد . ثم نقلت أغلب مرافق الادارة الداخلية الى الحكومتين كالجمـارك والمالية والاحتكارات والرقابة على الصحف . وطالبت الحكومتان بتسليم الجند الخاص الوطنى الذى بقى تحت قيادة فرنسا ، لأنه لا احترام لحكومة غير مسلحة ، ولا يليق أن تعتمد دولة مستقلة على قوات دولة أجنبية فى قمع حركات العصيان . فسلمت فرنسا جزءا من تلك القوة الى لبنان فقط .

وأخيرا تحققت فكرة الجامعة العربية . وجرت محادثات بين ممثلى الدول العربية والحكومة المصرية ، وصدر بروتوكول الاسكندرية فى أكتوبر ١٩٤٤ ، الذى أعلن انشاء جامعة الدول العربيـة من العراق وسوريا ولبنان وشرق الأردن والمملكة السعودية واليمن ، للتعـاون فى حل المشكلات التى تنشأ بين أعضاء الجامعة ، والتعاون فى المسـائل الاقتصادية والثقافية والاجتماعية . وأعلن البروتوكول احترامه لاستقلال لبنان ، وأيد حقوق عرب فلسطين ، وأظهر عطفـه على اليهود . وفى فبراير ١٩٤٥ أمضت الحكومات الست فى القاهرة ميثاق جامعة الدول العربية ، الذى أكد البروتوكول السابق ، وأعلن أن غرضه تقوية الروابط بين أعضاء الجامعة وتنظيم جهودهم السياسية والمحافظة على استقلالهم وبحث مشكلاتهم فى شتى مرافق الحياة . كما أعلن احترام أعضاء الجامعة لشكل الحكومة فى دول الجامعة الأخرى .

وفى آخر الكتاب ملحقان . يحتوى الأول على طائفة من الأوراق الرسمية المتعلقة بتاريخ سوريا ولبنان مثل صك الانتداب فى ١٩٢٢ ، ومشروع معاهدة التحالف فى ١٩٣٦ ، وقوانين خاصة بحكم جبل الدروز واللاذقية والجزيرة ، واتفاق فرنسا وتركيا بشأن الاسكندرونة ، واعلان

كاترو استقلال البلاد وتصريحات دى جول وساسة انجلترا ، واعطاء الادارة للوطنيين . ويقدم الملحق الثانى احصائيات حديثة عن سكان سوريا ولبنان والمذاهب الدينية المختلفة . كما يسرد قائمة بأهم المراجع ويعطى مذكرات تحليلية موجزة .

بعد هذا العرض العام لمحتويات الكتاب ، أقـدم أولا الملاحظتين التاليتين .

١ — أعطى لنا الكتاب عرضا موجزا تناول فيه مختلف المسـائل الحيوية والمشاكل التى تهم سوريا ولبنان خاصة والشرق الأدنى عامة مع الاشارة الى مصالح الدول الغربية . وذلك بأسلوب سهل واضح ممتع . وتمثيل أغلب آرائه الى الاتزان والاعتدال ، مع تقديره للمشاكل المختلفة التى تهم هذه البلاد . وحاول جهده أن يقدر حاجاتها وظروفها الدقيقة فى أثناء حربين عالميتين ، مع تقديم بعض الحلول والآراء لحل مشكلاتها الداخلية والخارجية . ووفق فى ذلك أكبر التوفيق .

٢ — يثير الكتاب فى نفس القارىء حب المعرفة ويشوقه الى المزيد من المعلومات عن نواحيه المختلفة . وهو بذلك يوحى بدراسات أوسع ، اذا ما عرفت كل الأصـول التاريخية فى المستقبل ، تتنـاول مشكلة الاقتباس عن الغرب أو مشكلة الأقليات أو نظام الحكم أو نمو شعور القومية .

ويستحق الكتاب فى هذا كله التقدير والاعجاب .

ولكن ليسمح لى الأستاذ حورانى أن أقدم بعض ملاحظات أخرى لعله يوافقنى على بعضها على الأقل .

١ — لا ينطبق عنوان الكتاب « سوريا ولبنان » على محتـوياته تماما . يوحى العنوان بأنه يتناول تاريخ سوريا ولبنان فى كل عصور التاريخ ، لأنه خلو من تحديد عصر أو تاريخ معين . ويتناول الكتاب

فى الواقع أحوال البلاد فى العصر المتأخر . كان يحسن أن يسمى كتابه « التاريخ المعاصر لسوريا ولبنان » مثلا .

٢ — اعترف الأستاذ حورانى فى أول كتابه بأنه وضعه فى وقت الحرب ، ولذا فلابد أنه يحتوى على بعض أوجه النقص ، لأن هناك مسائل مهمة ودقيقة تحتاج الى بحث وتمحيص ، ولا يمكن تناولها الا بشكل عام سريع . فقد تتغير مصالح الدول أو أنواع الحكومات فى الشرق الأدنى . وقد تظهر وثائق تاريخية مجهولة فتكشف عن حقائق هامة . فى الواقع أن هذه احدى الصعوبات التى تواجه من يتعرض لكتابة التاريخ المعاصر . والمعيشة فى العصر ذاته تجعل الانسان قريبا جدا من الحوادث ، وقد تفوت عليه فهم بعض المسائل ، وقد تجعله خاضعا لمؤثرات ومصالح خاصة . بعكس من يكتب بعد زمن ، فانه يستفيد من تجمع الحقائق الكثيرة لديه ، ويستطيع أن يدرس المسائل المختلفة فى جو هادىء مستقر ، بعد أن تتبلور أمامه حوادث الزمن . وليس هناك سبيل للتغلب على هذه الصعوبة .

٣ — ص ٢٨ : يعتبر أن حكم محمد على فى سوريا هو بداية لتاريخها الحديث . ويقصد بذلك أن اصلاحات محمد على قد غيرت أحوال البلاد تغييرا حاسما الى درجة أن تعتبر حدا فاصلا بين تاريخها الوسيط وتاريخها الحديث . يحسن فى نظرى أن نصطلح على جعل التاريخ الحديث يبدأ بشكل تقريبى فى عصر النهضة فى القرن الخامس عشر ، وعندما أخذ طريق التجارة العالمية يتحول الى الرجاء الصالح . وقد ترتب على ذلك أحداث جسيمة . اذ اختلت مالية مصر والشام مما أعجز دولة المماليك عن الوقوف أمام الغزاة العثمانيين فى أوائل القرن السادس عشر ، وتحولت الشام وغيرها من أقطار الشرق الأدنى الى ولايات عثمانية . وهذا التحديد التقريبى هو المصطلح عليه لبداية التاريخ الحديث فى الغرب . فيحسن أن تتخذ هذا التحديد ذاته . ولا يصح أن نجعل

تقسيم عصور التاريخ يختلف فى بلد عن غيره . ولا يجوز مثلا أن نقول أن الحبشة لا تزال فى العصور الوسطى من حيث تحديد العصور التاريخية . هى الآن فى العصر الحديث ، وان كانت لا تزال خاضعة لظروف العصور الوسطى فى أغلب مقومات حياتها .

٤ — ص ٧٩ : عند الكلام على أثر سوريا فى تطعيم الفكر الشرقى بأثار الفكر الغربى ، يقول الأستاذ حورانى ان على أهل سوريا أن يقوموا بواجبهم فى هذا السبيل ، ولا يقنعوا بأن يكونوا تابعين ثقافيا لمصر . جميل أن ينهض كل شعب عربى وأن تحفز الهمم للعمل والانتاج . ولكن لا داعى لأن تحذر سوريا من أن تكون تابعة ثقافيا لمصر أو العكس . لماذا يتبع العكس . لماذا لا يتبع بعضنا بعضا ، ولماذا لا نجد ولا نساهم جميعا وتتعاون وتتآزر فى سبيل التقدم ، دون أن نحذر هذا من سبق ذاك ؟ فلتسبقنا سوريا أو فلنسبقها نحن . والخير يعود علينا جميعا ، اذا ما وصلنا حقيقة الى مستهل النضوج الصحيح .

٥ — ص ٨٠ : يرى أن المسيحيين فى الشرق الأدنى أقدر على فهم الروح الأوروبى ، لأنهم لا يشعرون بالتعارض بين روح الغرب والشرق كما يشعر بها المسلم . أظن أن فى هذا الرأى بعض المبالغة . فلا يعنى كون المسيحى مسيحيا فى الشرق تأثره واستجابته لحضارة الغرب أكثر من زميله المسلم فى الشرق. اليابانيون وهم غير مسيحيين أخذوا عن الحضارة الغربية أكثر مما أخذ مسيحيو الشرق ومسلموه على السواء.والمسيحيون فى شرقى أوروبا يخالفون المسيحيين فى غربيها . وبعض الأقباط فى مصر أمعن فى التمسك بالقديم من بعض المسلمين . فى نظرى أن جميع العناصر — اسلامية أو مسيحية — التى اتصلت بحضارة الغرب بطريقة أو أخرى قد تأثرت بالحضارة الأوروبية بدرجات متفاوتة تبعا لاستعداد كل فرد والفارق الدينى لا يكفى وحده للتأثر بالحضارات .

٦ — ص ٢٥٩ : يقول ان حل المشكلات السياسية لسوريا ولبنان يجب أن يطابق حاجة السلم العالمي . ما السلم العالمي ؟ وهل له وجود صحيح ؟ أظن أنه يوجد سلام بريطاني أو ألماني أو روسي . . . ولكن لا يوجد حتى الآن سلام عالمي حقيقي . هذه مشكلة لم تحل بعد ، وليس من المنتظر أن تحل قريبا . وان سياسة الجشع والأنانية وتعارض المصالح التي تسيطر على العالم لا تجعل أية قيمة للعهود والمواثيق والرغبة في السلام العالمي . والكلام على السلم العالمي شيء وتحقيقه شيء آخر .

٧ — ص ٢٥٩ : يقول ان ضعف الأقطار العربية حربيا واقتصاديا يجعل من الضروري ابقاء بعض القوات المسلحة في بعض المواضع الحربية في سوريا ولبنان بعض الزمن . لماذا ؟؟ نتيجة للجشع والتنافس مع الدول القوية . اذ تحاول الدولة المسيطرة أن تمنع غيرها من الملوك في النقط الحربية ، حتى لا تهدد مصالحها القريبة أو البعيدة . هل يكفي أن تكون بلجيكا أو سويسرا ضعيفة نسبيا من الناحية الحربية فتعرض عليها بريطانيا أو ألمانيا احتلال بعض النقط الحربيـــة بعض الزمن ؟ ؟ ليست هذه هي المعاونة الصادقة والمساواة التي ينصح بها الأستاذ حوراني الدول الغربية في معاملة الشعوب العربية . تستطيع الدول الغربية أن تقدم المعونة الصادقة المخلصة لشعوب الشرق الأدنى دون احتلال أية مواقع في بلادهم .

٨ — ص ٢٦٠ : يرى الأســتاذ حوراني ضرورة اتفــاق الدول الأوروبية في سياستها ازاء الشعوب العربية ، واذا اختلفت الدول في معاملتها فان هذا يضر الجميع . من الصعب اتفاق الدول في السياسة دائما . وتعارض المصالح يوجد الخلاف حتما . ولماذا ينصح الأستاذ حوراني الدول الأوروبية بالاتفاق في سياستها ؟ أرجو ألا تكون هذه النصيحة حرصا على فائدة الدول الأوروبية مع التضحية بمصالح الشعوب العربية . يهمنا أن تتعارض مصالحهم ، طالما أنهم غير صادقين وغير حريصين على

مصالح الشعوب العربية ، فقد نكسب من اختلافهم أكثر من اتفاقهم !

٩ — ص ٢٣٦ : يقول الأستاذ حورانى انه ينبغى أن يوضح لأهل البلاد أن احتلال بعض المواضع الحربية — عند عقد معاهدات دفاعية مع سوريا ولبنان — ليس معناه احتلال البلاد والمساس باستقلالها . وأن هذا له نظير بين دول الغرب . فانجلترا تركت بعض قواعدها البحرية فى أيدى الولايات المتحدة الأمريكية . هذا رأى غريب من جانب الأستاذ حورانى ، الذى أبدى تقديرا وانصافا لمشاكل الشعوب العربية فى أكثر من موضع فى كتابه . وهناك فارق كبير جدا بين العلاقة بين دولتين قويتين مثل انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية وبين دولة قوية وأخرى ضعيفة . التفاوت الهائل بين المتحالفين — من نوع فرنسا وسوريا — ان صح أن هذا تحالفا ، يجعل استقلال وحرية الدولة الضعيفة فى خطر. وكثيرا ما تصبح النصوص والمعاهدات عديمة القيمة بين الدول القوية ، فما بالنا بهذه النصوص والمعاهدات بين الدول القوية والدول الضعيفة؟؟ أعتقد أن شعوب الشرق الأدنى مهما بلغت من الضعف الحربى ، التى لم تكن مسؤولة عنه وحدها ، قد أصبحت أكثر فطانة من أن تنخدع بمثل هذه الآراء .

١٠ — ص ٢٧٦ : يقول الأستاذ حورانى انه يجب أن توضح سياسة تركيا نحو العرب ، لكى يزول شعور الشك والخوف الذى أوجدته مشكلة الاسكندرونة . هذا رأى صواب من غير شك . ولكنى أرى ضرورة الاهتمام بهذه المسألة أكثر من مجرد ازالة شعور الشك والخوف. تأثرت علاقة الترك بالعرب بظروف ضعف الدولة العثمانية فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وخاصة فى عهد نمو شعور القومية العربية وتطلع العرب لنيل الاستقلال . وجد بين الجانبين شعور من العداء وعدم التفاهم . وهذا طبيعى . وقد ساعد الحلفاء على توسيع شقة الخلف بشتى الطرق والوعود . وأصبح شيئا مألوفا أن ينظر كثير من العرب وأهل

الشرق الأدنى عامة الى الحكم العثمانى نظرة سيئة خالصة . ومن غير شك كانت للعثمانيين مساوىء كما كانت لهم حسنات . ومثلا ألم يجرب أهل سوريا ولبنان عهد الانتداب الفرنسى ؟ وألم يتضح لفريق منهم أن عهد العثمانيين كان أفضل من حيث الوحدة والرابطة بين أبناء القطر الواحد ؟ ألم يقسم الانجليز والفرنسيين ، برغم وعودهم الكثيرة للعـرب ، دولة الشام العثمانية الى وحدات متعددة بغير مبرر حقيقى ؟ ألم يعملوا على اذكاء الروح الانفصالية لدى الأقليات ؟ ألم يؤخروا استقلال البـلاد تحقيقا لمصالحهم الذاتية ؟

فى الواقع أنه من مصلحة الشعوب العربية أن تعمل على تقـوية الروابط بين شعوب الشرق الأدنى كافة سواء فى ذلك العرب أو الترك أو الأكراد أو اليونان . ومن هذه الشعوب جميعا فى ظروف تاريخية متشابهة واتحدت فى عصور تاريخية مختلفة ، كان آخرها عهـد الدولة العثمانية . ينبغى أن تفهم هذه الشعوب أن اثارة الحقد والضغينة بينها ليس من مصلحة أحد سوى الدول الغربية . ينبغى أن تتعلم شعوب الشرق الأدنى من تجارب الماضى . وينبغى أن نفهم الصلة الجغرافيـة والتاريخية القائمة بينها ، وتدرك المصالح المشتركة والأخطار التى قـد تتعرض لها : وأهداف السياسة الغربية المتفاوتة ازاءها ، ويعمل الجميع على أساس من المساواة والفهم والتعاون الصحيح .

حسن عثمان